

سلسلة روايات من اجل التوثيق.....(3)

بين نارين

قصة عن الوطن والثورة والغربة

الكتاب	بين نارين
الكاتب	أكرم إبراهيم البكري
تاريخ النشر	الطبعة الأولى 2023
التقييم الدولي	ISBN
رقم الإيداع	
التصميم	التشكيلي بكري خضر



للنشر والتوزيع
Alreem Publishing House

دار الريم للنشر والتوزيع
السودان- الخرطوم خلف برج التضامن
متفرع من شارع البلدية
alreempublishing@gmail.com
+249122992190 +249912914599
إدارة: عماد أبومدين

حقوق النشر محفوظة للمؤلف والناشر ©

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إن دار الريم للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعتبر الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

أكرم إبراهيم البكري

بين نارين

قصة عن الوطن والثورة والغربة

رواية

«ما تسعى إليه لا يختلف عن نفسك أنت الحقيقة»

ديفيد هوكينز - السماح بالرحيل

تنويه وتحذير

قد تصيبك هذه الرواية بإرهاق حاد قد تجد نفسك بين دفتي الغلاف أو مُمرّ غ بحروف كلماتها بين الصفحات، قد تراها مملّة وغير جديرة بأن تُضيع وقتك فيها، وقد تكرهها حد أن تعتريك رغبةٌ بعدم الاقتراب منها، زُبّما لعدم معرفتك بكاتبها أو لأي سبب من الأسباب ولكن إذا حدث وأن وقعت بين يديك وأكملت قراءتها، فتأكّد أن أحداثها وشخصياتها محضُ نسجٍ من مُخيّلة الكاتِب، فإن تطابق يراعُ الكاتب في سرد الأحداث مع حقيقة سرد الأقدار لها. «فَعقلك وحده». نعم وحده المسؤول عن عقد تلك الخيالات والشخصيات الوهمية بخيوط الواقع.

وهذا منا للتوضيح،،

المؤلف

إهداء ...

الى ...

المرأة التي علمتني الحياة

امي

سنية بت نور بت عثمان جقود

إهداء خاص ...

إلى شهداء ثورة ديسمبر المجيدة الشجعان
الذين صمدوا في مواجهة أكبر شمولية في
القرن الواحد والعشرين حتى ذوى عودهم
وعصف بهم الموت لتبقى دمائهم تضيئ لنا
الطريق كلما أظلم أفق الحياة ..

شكري وتقديري

الى الأستاذ عثمان محمد ابوبكر محاضر
بجامعه التقنية والعلوم التطبيقية صلالة لما قام
به من جهد في التدقيق اللغوي وملاحظاته
القيمة في الاخراج وربط الاحداث روائياً.

تندرج طائرة الخطوط الجوية السعودية على مدرج مطار الملك عبد العزيز الدولي بجدة، يقطع صوت الكابتن سيل ذكرياتٍ يضربُ على رأسي بصخب، الصوت يعلن توقيت الوصول المحلي للمدينة إنها السادسة صباحاً بتوقيت الترقب لوجهه غير الوطن، يُخاطب كابتن الطائرة المسافرين بأدبٍ جمٍّ، مُوجِّهاً الركاب بعدم مغادرة المقاعد لحين إشارة فك الأحزمة، بينما يشرد خلدي بمستقبلٍ مُبهم، بحُلم وظيفة بإحدى المدارس الثانوية بالمملكة، أُلبي من خلالها احتياجات من تركتهم خلفي، الخرطوم عاصمة القهر المُقنن والذُل. استرجع في ذاكرتي إبنِي ذو العام ونصف، زوجتي حنان، ووالدي ست البنات، أيامي والرَّفاق والأجساد الغارقة في دمائها بساحة الاعتصام، هُناك حيث الجنود يبتون الرعب ويوزعون الذل أنواع.

حشود المناهضين ودعواتُ تجمّع المهنيين بمظاهراتٍ مليونيه تُفجّر قلب الخرطوم، تركت كل هذا جُلّه واتَّجّهتُ صوب الخليج. يتداخل صوت الكابتن معلناً الوصول وموضّحاً التوقيت المحلي ودرجة الحرارة الخارجية، يتجانس كل هذا مع ألم الذكريات على نحوٍ موجه، كُنْتُ مرعوباً ومُتحمّساً بذات الآن » فكرة الاغتراب والهروب من نيران الحاكم في السودان».

الآن يسكنني خوفٌ مُبهم.. ودخلي صوتٌ لشاعرٍ ما يصدح بأبياتٍ أذكرها جيداً:

وطنٌ ولكن للغريبِ وأمةٌ
ملهى الطغاة وملعبُ الأضدادِ

يا موطننا عاث الذناب بأرضه عهدي بأنك مريضُ الآسادِ
ماذا التمهّلُ في المسير كأننا نمشي على حَسَكِ وشَوْكِ قتادٍ؟
هل نرقى يوماً وحشورُ رجالنا ضعفُ الشيوخِ وخفّةُ الأولادِ؟
وأها لأصفادِ الحديدِ فإننا من آفةِ التفريقِ في أصفادِ

تنهمرُ دموعُ القهرِ مريرةً على خدي، أحاول أن أخفي ضعفي فأنكبّ مُسنداً
رأسي المُثقل على خيباتي المتتالية وصفوف المغادرين للطائرة تعبت بأدرج
الأمّتعة من فوق المقاعد، أضيع لبرهة فتعيدني همهمات البعض حامدين الله
على سلامة الوصول هرباً من لظى الوطن وخبياته!

فقد أرقوا مضجع النيل وحملوا عذوبته ونقاءه فوق ما يستطيع، فصرخ من
وجع أحماله. إن أجساد المحتجين المكبلة بالصخور والأعين المعصوبة التي لم تر
وجه قاتلها كانت أثقل من احتمال مياه الأبيض والازرق عند لمقترن، طالعت
بعينين مُبتلتين تلك الوجوه السمراء الهاربة من جحيم الوطن لسقر الأعراب،
تتقدم بخطاها لحنفها المرير في غربةٍ قد تطول أو تقصر بخروج الروح، حلمتُ
كثيراً أن أجد في وطني وجهتي الأخيرة، وأنا المُعتاد على ألفة الوطن الحاضر
رغم الغياب ودفء أسرتي الصغيرة ، أنا القادم لأعراب الخليج محملاً بدعواتِ
أمي وأمنياتِ زوجتي و أشواق رفقاء النضال، ممتلئاً بأحلام شعبٍ غدروا
بأحلامه.

الآن محطتي ستطول لتأسيس ذاكرةٍ جديدة، أنا المُعتاد على الحنين الدائم وعلى
أغنيات الحلم والشجن ومواكب التغيير، لا يليق بي أن أقضي بقية العمر هارباً
وأن تنتهي علاقتي بأزقة المدينة القديمة وحواري أمدرمان، ثلاثون سنةً هي عمر
النظام في حكم السودان، كان يجب قطعها ثورةً تغييرٍ بردم بحر الأوجاع وآهات
الفقد، لقد تم بترها بنزفٍ جديد أمام مباني القيادة العامة. لا أدري كيف قطعت
المسافة من الطائرة حتى كاوتر الجوازات! إلى أن انتفض جسدي على إشارة

الضابط الذي عقد ما بين حاجبية وهو يشير لي أن أتقدم.

- لو سمحت يازول ما بقي أحد غيرك بالصف

الضابط السعودي يعن النظر على الوثيقة التي بين يديه، ينظر إلي ويقارن بين الصورة والشخصية التي أمامه يبذل جهداً كي يخفي غيظه خلف ابتسامةٍ باردة ويضع ختم الدخول على الجواز ويقول:

- إقامة سعيدة يازول

اتناول جواز سفري مع ورقة الزيارة وابتسم على مريض مُتمتماً بوهن:

- شكراً جزيلاً

يعجّ المكان بوجوه القادمين .. أجناس شتّى, لغات كثيرة .. الأمتعة تتراص على السير، أتناول حقيبتي الصغيرة وكرتونة ملفوفة بعناية تفضحني رائحة الآبري (الحلو مر) مخلوطة مع عجينة الفول السوداني تُنبئ القادمين من أي البلاد آتي .. أضحك في سري وأحمد الله بأن ليس (للويكة) رائحة وإلا كانت الصالة قد فاحت برائحتها أيضاً ، أجول ببصري على الموجودين باحثاً عن وجهٍ مألوفٍ لدي في صالة الوصول، من على البعد يُلوّح لي صديقي «أسعد باب الله» منادياً باسمي ، يقبل ناحيتي رجلٌ آخر كما توقعت لا بل فاق توقعي أكاد لا أعرفه كأنني أراه لأول مرة، رجلٌ أصلع الرأس قد جرّدت مياه الخليج المالحة رأسه من الشعر. كان ممتلي الجسم يرتدي بنطال من الجينز أزرق اللون (و تي شيرت أفريقي) بألوان فاقعة، مازال محافظاً على تلك الابتسامة العريضة لم تفارقه منذ أيام الجامعة، تجسد أمامي حلم الهروب من الوطن وكابوس مجزرة القيادة وهموم الماضي، لقد كتب علينا نحن السودانيون أن نتعدّب بالحنين وتندوّق مرارة الألم داخل الوطن وخارجه، ذكرى الموت الحجابي وفصّ الاعتصام تضرب رأسي.. أترنح من هول الصدمة التي لم تبارحني. يصدح أسعد بصوته الضاحك :

يفتح ذراعيه بشوقٍ حقيقي كأنه يشتم رائحة الوطن في القادمين، مُعَمَّرَةٌ أبدأهم بترابه ووجوههم الكالحة المتعبة بهول المعيشة التي تحولت لظنك مطبوع في الملامح، فالوطن يعاني من أنيميا حادة ولا يصلح العيش فيه، تتقابل الأحضان المتعبة من رهق الغربة وشظف المعيشة، تنهمر الدموع وأسعد يربت على كتفي مواسياً ما مررت به من ألم وشوق لبلدٍ تركته قبل قليل. ولكن قليلُ الغربة لا يقال له قليلٌ يا صديقي.

- كيف الأهل والأولاد، كيف ناس الحلة وبقية الشباب ...؟

أسعد يواسي نفسه في هذه اللحظات يُغالب دموعه ويضحك مواردٍ خيالاته التي ظلت تنخر فيه طيلة سنوات اغترابه دون رجعة. وكأن قدومي يضعه على حافة الطمأنينة بعد أن فقد الحياة والأمل فقد كان يخاف فقدي أيضاً، جُنَّ جنونه وهو يستمع للأخبار ونباً فضَّ اعتصام القيادة العامة يتصدّر العناوين، ظلّ يتصل على الجميع إلى أن تأكّد أنّي بخير، آخر مرة قابلته فيها كانت عند وفاة والدته بحَيِّ الموردة -أمدرمان. تجلّد يومها بعد كبدٍ إلى أن خارت قُواه وشهق على قبرها، تركناه يهمس على قبر أمه وابتعدنا احتراماً لخصوصيته. لم ندرِ كم مرّ من الوقت حتى نهرتنا شمسُ الخرطوم بسياطٍ أشعتها الصباحية.

ترك «أسعد» كل تلك الشجون ومعتقالات النظام التي ألفتها وألفتها، منذ بدايات عهد الإنقاذ ترك حُبّه للرسم وأغاني مصطفى سيد أحمد وشجن الأصحاب.. ترك حبيبته «ناهد» وتحرك صوب مطار الخرطوم بفيزا راعي (لعبودية مختارة) جديدة مع أعراب الخليج انثقب حسّه الثوري وخرجت غازات الثورة المسمومة وحلمه بالتغيير مع كارثة موت والدته التي صُدمت باعتقاله لأكثر من ستة أشهر، خرج من المعتقل إلى المقبرة ومنها إلى مطار الخرطوم ومن يومها لم نلتقي إلا من خلال الأثير ورسائل التليفون.

على صندوق (تويوتا كورولا) أضع أمتعتي مع «أسعد» الذي وضع جزءاً

منها على المقاعد الخلفية وترجع على مقعد السائق، جلست على المقعد الجاور مستغرقاً في تفاصيل الوجوه والأمكنة ورائحة المدينة التي لم ألفها بعد، محاولاً تناسي جراحي وآلامي بقتل مع سبق الإصرار لوطن كان يسع الجميع. علامات الترحيب بقدمي مازالت على وجه «أسعد» الذي فضحته اللغة والإرتباك والشوق للوطن، فمد غادر السودان لم يعيش إنساناً كاملاً.. كان بين منزلتين (إنسان وآلة) يملك نصف حب ونصف وطن ونصف حنين.. أقطع حبل الصمت بيننا وأنا أطلع المدينة من خلف زجاج قائلاً:

- ما شاء الله تبارك الله أبو السعود (العربية) دي موديل كم...؟

يرد بفرح طفولي:

- دي آخر موديل يا بروليتاري يا بتاع المبادئ

أضحك بأسى و«أسعد» يتحرك بالسيارة وعلامات النشوى ظاهرة على وجهه، يلتفت إلي ويقول: ح نفطر في مطعم من مطاعم الامبريالية الرأسمالية. أرفع حاجبي مستفسراً وعلى شفتي ابتسامة:

- ما فهمتك والله

- نفطر في مطعم KFC

أخفض رأسي معاتباً، فلا قدرة لي على انتشارال أوجاعي من بين حُطام نفسي إلا بالصمت بعد أن شاهدت بأمر عيني كيف تم رمي أجساد الحالمين في النيل، يواصل «أسعد» حديثه بعد أن قهقه بصوت عالٍ محاولاً التخفيف عليّ والسيارة تقطع الطريق بشوارع جدة

- أوع تقول لي لسه مع شعاراتك الثورية يا أحمد وتنظر للمطعم كأنه وجه من وجوه الإمبريالية البغيضة...؟

أغضّ طرفي وأسرح مع نفسي.. فكثيراً ما خذلتنا الكلمات وزعزعت الثقة فينا،

هل ناضلنا بالشعارات فقط؟ كيف تم وأد الثورة؟ كيف تأمر عليها الجميع؟

الشعارات نعم... الشعارات هي من قتلتنا، كيف لنا أن نتصوّر بأن يتكونا نسير إلى نهاية الطريق! فقد كانت شعاراتنا في ساحه الاعتصام كفيله بيثّ الرعب في نفوسهم، لقد كان انتصارُ الثورة ضربةً للإمبريالية وصفعةً في وجه الرأسمالية وسياسة السوق الحُر كان يجب أن ندرك بأنهم لن يتكونا نحدّد مصيرنا، الثورة كانت بداية لكسر حلقة التخلف وإعادة صياغة لشخصيتنا السودانية المتحررة من قيود التبعية، شعارات الثورة وممارسة الثوّار في محيط الاعتصام أرسلت إشاراتٍ تحذيريةٍ لهم (لو عندك حُت ما عندك شيل) أعطت إنذاراً بأن القوى الاشتراكية الحاملة لبناء دولة العدالة في السودان تقود الاحتجاج.. فكانت المجزرة لإجهاض الحلم، أحس بالأُم وحرقة تجتاح قلبي وتساؤل «أسعد» يتردّد في أذني أقول بصوتٍ خافت أقرب إلى الهمس محاولاً تناسي ما حدث أمام مباني الجيش بالخرطوم:

- ما زلت أذكر حديثك في أركان النقاش أيام الجامعة عن ثقافة الاستهلاك والغزو الثقافي وتغيير النمط الغذائي للشعوب.

يشيح «أسعد» بوجهه ساخطاً ويلوح بإحدى يديه والأخرى تقبض على مقوّد السيارة التي تنهب الاسفلت الخليجي بسرعة 120 كيلو متر في الساعة وعلى جوانب الشارع تتراص أشجار النخيل وعمال النظافة الآسيويين منكسري الخاطر، يقول بأسىً يلتهم وجهه:

- وأنا أتحاشى تلك الذكريات يا صديقي.. أشعر بأن قلبي لا يصّخ سوى العذاب لبقية جسدي مع كل ذكرى أو حنين.

صمت سارحاً.. مرت قُرابة النصف دقيقة لم يتكلم خلالها «أسعد» ولا أنا حاولت الحديث إلى أن واصل قائلاً:

- الآن أنا في وضع ترك المبادئ أو الانتحار وصدقني إذا أردت أن تعيش

في هذه البلاد عليك أن تتخلص من تلك المبادئ، هنا شعوب الاستهلاك يا عزيزي شعوب بدون حلم أو تفكير.

أسند ظهري على مقعد السيارة بعد أن أرجعته إلى الخلف قليلاً وأقول في نفسي ..

- من الواضح أنك تعاني أيضاً، كثيرةٌ هي ندوب القلب لديك يا صديقي فأنا أعرفك أكثر منك.

يواصل «أسعد» حديثه قائلاً:

- لقد تلاشت الكثير من المفاهيم الآن وأصبحت العولمة وثقافة الاستهلاك هي السائدة في كثير من الدول (الأمركة)..... العزيز «أحمد».. (الأمركة) هي أحد الطرق التي استطاعت بها الولايات المتحدة صاحبة النظام الاقتصادي السائد الآن بعد انهيار المعسكر الشرقي وسقوط حائط برلين أن تنشر بها ثقافتها ومن ثم سطوتها على العالم بواسطة شركاتها.

أنظر إليه وأعلق ساخراً: -

- حسك الثوري مازال جيداً!

يبتسم اسعد ثم يستطرد حديثه بعد أن ضغط على مكابح السيارة أمام إحدى الإشارات على الطريق يلتفتُ إليّ ويواصل حديثه:

- أمريكا الآن هي القوى الاقتصادية الأولى، الآن تفرض ثقافتها على الشعوب. وأكبر مثال لذلك مطاعم الوجبات السريعة تلك فهي إحدى الوحدات الاقتصادية التي تم بناء سوق محلي لها في أغلب دول العالم، لقد أصبحت متصالحاً مع الرأسمالية بكل أنواعها.

انظر اليه مستغرباً وأقول : -

- من قال لك أننا غير متصالحين معها أيها الرفيق؟ ولكن هنالك

فرق بين (التصالح والتسامح) النموذج الذي نتحدث عنه متناسب تمامًا مع المجتمع الأمريكي القائم على المنافسة الحرة والجدارة والاستحقاق وليس على حظوة العائلة كالبلد الذي نحن فيه الآن أو على الولاء السياسي مثل وطننا القائم على البراعة في النفاق وإذلال الإنسان وسحق كرامته! هل تعرف ما هو الجحيم يا «أسعد»? الجحيم أن تتقابل سياسة السوق الحر مع حكم العسكر وسيطرة الجنجويد.

أصمتُ برهَةً ناظرًا للطريق من خلال نافذة السيارة ومن ثم أكمل حديثي قائلًا :-

- سياستهم تفرض علينا نحن الشعوب التي تعيش على رصيف الحياة، يفرضون علينا كيف نعيش، يُقيمون أنفسهم أوصياءً علينا يشترطون خصخصة مرافقنا الخدمية وخصخصة التعليم وخصخصة العلاج، (الأمركة) التي نتحدث عنها يا «أسعد» هي في جوهرها «احتلال» والبلدان التي تتبعها تفقد سيادتها وتُطبق طوق العبودية على عُنق شعبها.

تتحرك بنا السيارة بعد إشارة الضوء الأخضر وكأننا تائهان لم يتقابلا منذ عهود وها هما الآن على ظهره سيارة في قاع ثورة يتربص بما أذيال من يتحدثان عنهم يواصل «أسعد» ثرثته عن مطاعم الوجبات الجاهزة وكأنه لم يستوعب من حديثي شيء:

- في سبعينيات القرن الماضي ومنتصف الثمانينات لم تكن تلك المطاعم لتجد رواجًا في دول الخليج لأن المواطنين كانوا في تلك الفترة لا يزالون متعلقين بعاداتهم الغذائية ووجباتهم الشعبية بعيداً عن هذا النمط الذي ظهر كعلاج للمجتمعات الصناعية في أوروبا وأمريكا بخلاف نموذج المجتمعات العربية والأفريقية ذات الطابع الزراعي الرعوي، أما اليوم بعد أمركة اقتصاد العالم فلن تجد مركزاً للتسوق يخلو من هذا النمط الغذائي للوجبات السريعة.

النتف إليه مرة اخري محاولا تَفْنِيدِ حديثه :

- المجتمعات الضعيفة هي التي تتأثر بنمط آخر دخيل عليها، ففي الهند مثلاً لن تجد تلك المطاعم أي نوع من الرواج أو الريح، لتمسك الهنود بعاداتهم الغذائية وفرضها في أي مجتمع يتواجدون فيه، الهندي مهما كان عمله يحمل وجبته في (hot pot) من المنزل لمكان العمل، لعلك لاحظت هذا؟!!

لم يجاوبني ولكنه أشار إلى لافته إرشادية كتب عليها: (حي غليل) مع إشارة سهمٍ للمخرج من الطريق العام.. وقال:

- في هذا الحي أقيم، لم أبح جدة منذ أن وطأت قدمي السعودية، كنت حين أسافر إلى أي منطقة بالمملكة أشعر بضيق وشيء ما ينقصني يتبدد كل هذا بمجرد وصولي إلى هذه المدينة جدة.

أخذت أتأمل تفاصيل الحي من الخارج علّها تنبؤني عن طالعي في وجوه العابرين، حُيِّل إلي أن جدة تلائم تماماً نوعية «أسعد» فهو رجل كاد أن يستنفذ رصيده من الحب، يمضي بلا هدف ولا غاية، فكانت جدة تلك المدينة التي تمنحك ذاك الشعور الزائف بأنك قريب من الوطن يفصلك عن ترابها هذا البحر المسجور، ولتكن لديك فقط عصا موسى فينقلك لك الأحمر لمعبر شوق كل فرقٍ على جانبيه كالطود العظيم، ولكنك ترفض المسير وإن كانت خلفك جحافل فرعون فالوطن بات أسوأ مكانٍ للعيش، الوطن ليس أرض الميعاد كما يعتقد الكثيرون.

انقطع «أسعد» عن الحديث والسيارة تتوقف أمام نافذة الطلبات (بمطعم KFC).. يخرج صوت معد الطلبات بلغة إنجليزية رصينة يرحب بالزبون ويوضح له قائمة الأصناف.

يتسّم «أسعد» لي قائلاً: -

- يا حبيبتنا نطلب ولا نتحرك لمطعم سوداني (بحي كرتينا) وبعدها نتوكل على مكة لأداء شعيرة العمرة زي ما وعدتك!؟

لم أعرف بالضبط ماهية الأصناف المذكورة في القائمة، للوهلة الأولى وجدت نفسي مثل «سمير غانم» في تلك المسرحية الشهيرة (المتزوجون) وزوجته (شيرين) تحته على أصناف محددة من الطعام تناولها في الإفطار ويُقابلها هو بالرد متسائلاً إن كان عليه أن يجلب تلك الأصناف من الصيدلية؟!!

أومي برآسي مُجيباً:

- نجرب أكل الأمريكان للزمان!!

يُفقهه «أسعد» ويصيح بمرح:

- أيوووووه كدا يا وديع يا حبيينا العالم اتغير خلاص والمبادئ الشغال بيها دي إنتهت من زمن ولتحيا الرأسمالية وسياسة السوق الحر.

يتوجه «أسعد» إلى مايك الطلبات ويُخاطب مُعد الطلبات بالإنجليزية أيضاً:

- لو سمحت أريد:

*2 تشيكن مافن بالبيض

*2 بيج هاش براونز

*2 دبل تشير برجر

*2 كوارتر باوندر بالجينة و.....

قاطعته قائلاً:

- كفاية كدا كويس ما تطلب تاني حاجة.

- طيب نجيب بييسي ولا كوكا كولا

أجيبه:

- كويس ما مشكلة... أي حاجة....

أقول في نفسي البيبيسي كولا والكوكا كولا ومطاعم الوجبات السريعة ليس هناك فرق بينها يا عزيزي ... على ما يبدو أن ثقافة الاستهلاك سمة من سمات هذا العصر، كما قلت الغزو.. الغزو بكل تفاصيله حتى في الطعام! مصالح نخبنا تتقاطع مع أسيادهم إنما التبعية إعادة تعريف للوطنية، الوطنية ذات السيادة الناعمة التي تجلس في حجر المستعمر يفيدها بتغيير سلوك وأنماط شعبه ويرعاها المستعمر بالاعتراف الضمني بها.

يسكت الضجيج المتراكم داخلي أنقل بصري ماسحاً الفضاء الذي أمامي، أشيد أمام «أسعد» بتلك الطفرة (القشرة) التي أصابت دول الخليج بغم ووجم، جمال الشوارع ونظافتها العمارة الحديثة للمدينة. أقول: -

- المهم ما تأتي به هذا التحديثات على اقتصاد الدول ليست المباني ولا حجم المعاملات التجارية ولا مطاعم الوجبات السريعة دلالة على التطور. ينظر إليّ «أسعد» سائلاً إياي تفسير ما أقصد.

أسرح مرة أخرى مع جراحي. فبعض الآلام لا تخرج من حياتنا تظل تطعن داخلنا بوحزٍ مُتتالي تسيطر على أفكارنا مهما حاولنا طردها من ذاكرتنا، تتابع محطات الألم وغدر لجنه «المعزول» لنا في اعتصامنا أمام قيادة من تغينا لهم طرباً

الحارس مالنا ودمنا أريد جيشنا جيش الهنا

بلغنا غاية المني وأصبحت بلادنا مؤمنة

ومن خلال تلك الأغنية ندخل محطات الصبر في غربة تُجدد دهشتنا في كل مرة، أجاب «أسعد» في صبر وتأيي محاولاً تفسير ما قلت:

- تعلم يا صديقي أن المجتمعات التقليدية يقوم الاقتصاد فيها على

قاعدتين إما الملكية الفردية للمشاريع الصغيرة أو ملكية الدولة للمشاريع الاستراتيجية، ولكن النموذج الرأسمالي المفتون أنت به له رأي آخر ، شروط الغرب يا عزيزي حتى يكون في تمام الرضى عنك هو ضرورة خصخصة المشاريع الخدمية والاسراتيجية وبالأخص المشاريع الزراعية والصناعية، ففي الوقت الذي كانت الدولة تسيطر أو تتحكم في هذه المشاريع والتي تسمى «وسائل إنتاج»، أصبحت المشاريع تحت يد أفراد أو شركات عابرة للقارات ولم تعد فوائد هذه المشاريع إن كانت استراتيجية أو خدمية تصل لخزينة الدولة بل لأفراد يضعون فوائدها في بنوك أوروبية، فيفتقر الشعب وتنتعش تلك الدول التي بها البنوك.

قطعت حديثي ناظراً اليه اري وقوع كلماتي على وجهه واصلت قائلاً هذه المرة بحماس:-

- لا تنبهر بهذا النموذج أيها الرفيق إنها حرب المصالح التي تفرض طوق العبودية قسراً على الشعوب وتفقد بذلك سيادتها بتدخل تلك الشركات في القرارات السياسية للدول ، وتبحث الدول في النهاية عن قروض لمعالجة اقتصادها، فتفرض عليها مزيداً من الشروط من أجل القروض التي تأتيها من نفس البنوك التي بها فوائد مشاريعها .

انتهى حديثي و «أسعد» يتناول أكياس الطعام من العامل الآسيوي دون ظهور اي علامات استيعاب لما أقول ، في هذه اللحظة أتذكر زوجتي حنان و أمي ست البنات وعلامات الفرح والغبطة تبدو عليهم مجرد خروجنا، أو عند دعوتي لهم في مطعم و هذا شيء نادراً ما يتكرر مرة أو مرتين في السنة، ثم أمكث شهوراً بعدها أرتق ثوب المنصرفات المهترئ بسببها و ألعن الوطن الذي يستكثر على أبنائه أفراحهم الصغيرة، كنت أتقيأ الهلع والقهر عندما أتذكر أنني تركت حنان و أمي و طفلي الصغير وحدهم في بلد لا يرحم، أبتسم في أسيّ وأنا أُمّي نفسي أن يلحقوا بي لأداء عمرة وزيارة بيت الله ومسجد الرسول.

تتقدم سيارة «أسعد» بعد استلام الطلبات وأنا أعتذر منه لأجراء إتصال
أحتاج لشراء شريحة سعودية لأطمئن الأهل على سلامة وصولي، يناولني
«أسعد» تليفونه المحمول..

- أفضل أشتري شريحة يا «أسعد»..

- يا راجل أمسك التليفون واتصل وبعدين نشترى شريحة.. (يقولها
بحسم).

أستح قليلاً ثم ألتقطُ منه الموبايل مُطأطأ الرأس أقول في نفسي: يكفي أنه قد
بعث لي بئمن تذكرة الطائرة وبعض المنصرفات لتوثيق الشهادات، بيتسم كأنه
يدرك ما يجول في رأسي فيردف قائلاً:

- سلّم على حنان وخالتي ست البنات وأسعد الصغير.

كنت قد أسميت إبني (أسعد) على إسمه، عندما أخبرته بذلك بكى بجرقة
وأرسل لي مبلغاً محترماً ظلت أنفق منه لشهور، تذكرت والدته وهفتها على
زواجه وأمنيتها برؤية أولاده قبل وفاتها، لم يوفي «أسعد» بوعده بالزواج، رحلت
والدته تاركةً في قلبه فراغاً كبيراً، نسي الزواج نسي (ناهد) وحلمة معها بالذرية،
ترك كل شيء.. أحلامه وأفكاره على عتبة الوطن ورحل تاركاً مقارعة النظام لنا
كما «قالها يومئذ». انكسر وكان انكساره واضحاً بعد موت والدته التي رجت
عسوس النظام أن ترى ابنها قبل رحيلها.

- أحمد كيف وصلت؟ الحمد لله على سلامتكم.. الحمد لله على سلامتكم

نقلت موجات الأثير بُكاء حنان وهي ترى الرقم السعودي على شاشة هاتفها
«النوكيا» فضحتها الشهقة والنحيب عند سماع صوتي ومن خلفها بكاء ابني
الصغير.. لغيابٍ مع سبق الإصرار لوالده.

تنهمر دموع اللوعة وكأن الفراق لسنوات ولم يكن الجمع منذ ساعات

- أنا كويس يا حنان وصلت بخير الحمد لله ولقيت أسعد منتظر في المطار، الآن في الطريق على مكة.

- بابا بابا من خلف السماعة يجابد ابني ذو العام ونصف غيابي الذي أحسه بسبب دموع والدته وجدته.

أجهش بحق.. دموعي تفضح ضعفي، وارتجاف أوصالي يترجم جحيم الوطن الذي غادرته تتلقفني يدا أسعد بعد أن أوقف السيارة خارج الطريق يمسك بالمحمول ويرد على حنان.

- الراجل ده وصل بالسلامة الحمد لله وأموره كلها ظابطه كيف إنت وكيف الحجّة إن شاء الله كلكم بخير؟

يومئ برأسه إيجاباً.. يصل إليّ صدى كلمات ست البنات وهي تدعو لنا وتحثّ أسعد على الاهتمام بي في أولى فترة غربتي التي قد تطول.

- بإذن الله يا خالتي ما يشوف عوجه وقريب إن شاء الله نشوفكم مع بعض هنا في بيت الله الحرام.

يناولني أسعد التليفون أتخسس دمعي ودربي بين الكلمات أستجمع قواي وأرد على أمي، يخفت ضعفي وقلقي على من تركتهم في الخرطوم بلا راعٍ أو قريب.. زوجة، وأم، وابن، ست البنات تحدثني بصرامة لم أعهد لها منها..

- اتوكل على ربك يا ولدي أنا عافية منك وراضية عليك، حافظ على صلاتك وأبعد عن الحرام إنت في بلد الرسول، وما ترضى بالحقارة وشوف قسمتك وما تقاوي قدرك يا ولدي..

لو ربنا وقّقتك خير وبركة.. وكمان لو ما لقيت قسمتك اتوكل طوالي وتعال راجع على بلدك أصله ما تقول تصبر على شيء فوق طاقتك!

من خلف دموعي أرد على والدتي التي انفطر قلبي بتركها مريضة، فقد مُت

قبل حديثها هذا مرات عديدة مسموماً بوطن لفظني عمداً، يتراءى لي وجه
أمي على سحابةٍ بعيدة أمد يدي إليها فتأبى أن تمطر على صحراءٍ غربتي، أرد
مجيباً لنصائحها وطيف خيالها يجالسني محاولاً تهدئة لوعتي بفرافقها:

- حاضر يا أمي ... حاضر

- هاك مرتك طمئننا عليك واطمنن على ولدك.

قالت ست البنات جملتها الأخيرة وضغطت على كلمة الاطمئنان بشكل
واضح كأنها تريد أن ترسل لي رسالة محددة.

- أنا كويس تصدقي الآن كنا في KFC والله يا حنان (إتمنيت لو كنت
معاي)

يقهقه أسعد بصوتٍ مسموع ويضغط على مكابح السيارة للمرة ثانية يقول
بصوتٍ عالي: -

- يا بروليتاري يا سجمان أنا الوريثك الحتات دي عايز تتفلهم قدام
مرتك؟

أخذت أضحك مبلل الخد، أجر خذلاي وخيباتي معي.. انتقلت نوبة الضحك
لحنان على الجانب الآخر أمسك أسعد بالحمول وخاطب حنان قائلاً:

- والله يا حنان ما كان قادر ينطق اسم المطعم إنت عارفه راجلك ده
شاكين فيه إنه من أمدرمان أصلاً، هسه أسأليه الساندويتشات الجبناها دي
شوو والله ما يقدر يُنطقها.

أخذنا نضحك بحماس، يمزقني الغياب وفقدان حنان، تفرقني الجراح وهمّ الغربة
القادم ختمت حنان الاتصال بدعواتها أن يُنعم الله على بوظيفة تلبي احتياجاتنا
للحياة و فقط تجنّبنا ذل السؤال، وخلف الدعوات كانت الكلمات حاضرة
تتداخل مع نقرشات العود وصوت مصطفى سيد أحمد يعيد شريط الألم بأغنية

(ما بين زمناً متمنيه)، سيارة أسعد تنهب الطريق ما بين جدة ومكة محاولة
اللاحاق باجتماع عاجل مع رب اخوان الإنسانية.

ما بين زمناً متمنية

وزمناً منك زادني أسية ...

طُفت الدنيا عشان أنساك ...

وأنسى الحزن الطارد لي ...

كان البحر الما خلاني ...

وكان أخوان في الإنسانية ...

قعدنا معاهم وإتفاكرنا ...

كم لفينا وكم ساهرنا ...

وكم مازحنا ليالي الصيف ...

وكم غنينا للحرية ...

وكم دارينا الحزن الأكبر ...

بين الصيف وجمال المنظر ...

تُدْهَشِنِي كَثِيرًا تَلِكِ الْمَدِينِ الَّتِي عَلَي شَاكِلَةِ مَدِينَةِ مَكَّةَ، فِي قَدْسِيَّتِهَا عِنْدَ الْبَعْضِ وَجَنُوحِ مَشَاعِرِ الْقَادِمِينَ إِلَيْهَا، لَسْتُ أَعْرِفُ إِنْ كَانَ هَذَا مَا يُغْرِبُنِي بِهَا وَلَكِنْ مَا أَعْرِفُهُ جَيِّدًا أَنَّهُمَا مَدِينَةٌ اسْتِثْنَائِيَّةٌ خَلَقْتَ هَكَذَا وَهَذَا فِي حَدِّ ذَاتِهِ يُغْرِبُنِي أَنَا الْقَادِمُ مِنْ قَلْبِ السُّودَانِ مِنْ مَدِينَةِ التَّرَابِ أَمْدْرَمَانَ وَالَّتِي لَهَا قَدْسِيَّةٌ أُخْرَى تُضَاهِي قَدْسِيَّةَ مَكَّةَ دَاخِلِي، أَنَا التَّوَّاقُ لِتَجْرِبَةٍ رُوحِيَّةٍ تُنْسِينِي إِرْهَاقَ نَفْسِي الْمَتْعَبَةِ بِالْقَرَبِ مِنْ إِلَهٍ آمَنْتَ بِهِ بَعْدَ شَكِّ وَاتَّحَرَّقَ شَوْقًا لِمُنَاجَاتِهِ فِي بَيْتِهِ، هَلْ تَظُنُّنِي أَجَازِفٌ كَثِيرًا يَا (كَارِلْ مَارْكَس) وَأَرَاهُنَّ عَلَي مَجْهُولٍ لَا يَرِبُّطُنِي بِهِ سِوَى إِيْمَانٍ خَفِيِّ؟!.. أَنَا الْآنَ لَا أَحْتَاجُ لِإِدْرَاكِ مَا هِيَ تِلْكَ الْقَدَاسَةُ بِقَدْرِ إِحْتِيَاجِي لِعِبَادَةِ الرَّبِّ هُنَا وَ أَنْ أَعْسَلَ رُوحِي الْمَتْعَبَةَ، هَلْ سَأَتَمَكِّنُ مِنَ الْحَيَاةِ فِي غِيَابِ سَلَامِي الرُّوحِيِّ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ السَّلَامُ مَعَ اضْمَحْلَالِ الدِّينِ؟ تَشَابَكْتَ فِي رَأْسِي تَسْأُولَاتِ دُوسْتُوَيْفَسْكِ الَّتِي يَخَاطِبُنِي الْآنَ أَمَامَ بَيْتِ اللَّهِ يَهْمَسُ فِي أذُنِي بِتَوْتَرٍ:

- إذا لم نعد نخاف الله فما الذي يجعلنا على خلق أيها الزميل؟

أفتح فمي في دهشة وأقول: لكن المجتمع هو جوهر الواقع البشري، المجتمع هو من يصنع أفرادَهُ وهو من يصنع مجموع القيم!

ينظر دوستويفسكي إلى الكعبة يعدل من إحرامه يطوف حول البيت مُمسكاً بقلمٍ وأوراقٍ يهتف لي قائلاً:

- إذا لم نكن ملزمين ومجبرين بمعاني مقدسة جماعية وجامعة ما الذي يجعل

حياتنا ذات معنى؟ الله هو مركز الأخلاق وليس الفرد أيها الرفيق.

- أعني تماماً ما تقول «دوستو» إنها الجريمة نعم.. هي الجريمة والعقاب كبير
ال....

يقاطعني صوت نيتشه قادماً عكس الطواف يصيح بأعلى صوت وتكبيرات
بعض المعتمرين حوله، لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ،
وَالنِّعْمَةَ، لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ، يغطي صوته التلبية يصيح:

- لقد مات الإله

الكعبة ترتج من هتافه واشترأبت إليه بعض الأعناق في فضول، يتناسى نيتشه
الجمبع يحتضن دوستويفسكي خوفاً وطمعاً في حمايته من المعتمرين، تنفض
الجموع من حولهم تطوف حول البيت لغسل الروح، يواصل نيتشه حديثة
الأول وبنفس الحماس يقف على ساحة الحرم المكي رافعاً كفيه حتى ظهر
بياض إبطيه، تلتف حوله الجموع مرةً أخرى يرفع يديه عالياً يقع الإحرام من
على كتفه، يصيح فيصبل صوته لداخلي:

- لقد مات الإله، وسوف يظل ميتاً ونحن من قتلناه، كيف نُعزي
أنفسنا نحن أكبر القتلة؟ من سيمسح هذا الدم عن أيدينا أي ماء سوف
يطهرنا؟

أشير إلى بشر زمزم وعلى وجهي علامات الحيرة، تهبط ملائكة الرحمة على
كتفهم ويتحرك الإثنان مع الجموع ملبين، ينزل وحي السماء على أرض الحرم
مبتئناً ورابطاً على فؤادي.. يقول الملاك: هل سمعت؟ هل تدبرت؟ إذا فُكّر.

أردّ بخوف: كيف أفكّر؟

يقول مرة أخرى: فُكّر.

أرد وقد انتفض قلبي هلعاً: كيف أفكّر؟؟؟

يقول الملاك: من قتل الإله وأنت بيت الإله؟؟

أنظر بغباء وأقول: وهل يُقتل الرب!

يقول الملاك: نعم لقد قتلت البشرية الإله عندما تجاهلت تعاليمه، عندما كفرت به وإلا لم تلك الفوضى؟ وعلام ذلك الظلام؟ تدرت بإحرامي خوفاً من وحي إلهامي.. أبحث عن أسعد وجيبي يتقطر عرقاً، أصبح في زائرين بيت الرب: (زملوني.... زملوني).. يُشير إليّ نيتشه ومن خلفه دوستوفسكي أن انضم إلينا، ألحق بهم وخلفي إبراهيم بن أدهم.. يتهمل مُتضرعاً لرب الكعبة والوجود.. أردد بخشوع خلفه: (اللهم أنت تعلم أن الجنة لاتزن عندي جناح بعوضة، إن أنت أنستني بذكرك ورزقتني حُبك وسهلت عليّ طاعتك. فاعطِ الجنة لمن شئت). رهبة المكان ورائحة الإيمان تنخر عظمي الماركسي العنيد الذي ظلّ قرابه الخمس وأربعون عاماً يؤمن بالثورة والتغيير والديالكتيك وأن الدين أفيون الشعوب، يضحك كارل ماركس بسخرية من ضحالة ما يعتريني.. يهمس في أذني: لم أقل يوماً أن (الدين أفيون الشعوب) يا هذا؟؟ خرج صوتي مُتحشراً، نظر لي ماركس بحيرة وسأل:

- كيف تكون ماركسيّ ولم تقرأ نقد فلسفة الحق عند هيجل!؟

لم يتركني كارل لفهم ما يُشير إليه.. أكمل حديثه.. إذا كنت ماركسيّاً لعرفت أن الدين هو زفرة المحروم في عالم بلا قلب إنه أفيون الشعوب.

أخذ يُلوح بيديه ساخطاً ويتمتم بصوتٍ مسموع:

- لقد تمّ بتزّ الجملة من السياق فخالفت مضمون ما قلت.

وقف أسعد مُكبراً على المقام وأنا أبتهل بكلّ قلبي لله وعلى يميني جلس ماركس يُسبح بحمد الدين ملاذاً للبشر، أيقنتُ الآن بأن فكرة أسعد كانت جيدة بأن نلبيّ عمرةً لبيت الله بعد الوجبة الأمريكية عسى أن يغفر لنا ربّ لينين رجس فعلتنا بتناول الإمبريالية على شكل ساندويتشات، شارفت روعي

على الإمتلاء عشقاً لله بحضوري أمام البيت المقدس، فرغت من أداء العمرة الثانية بصحبة نيتشه، دوستوفسكي، كارل ماركس، وإبراهيم بن اداهم، كانت الثانية لوالدي الضابط «شهيد الثامن والعشرون من رمضان» باسم حركة الخلاص الوطني، أوفيت أول رغبات أُمِّي بأداء الشعيرة على روح (الشهيد)، ووقفت أمام الحجر الأسود مُناجياً ربي ورَب النظام في وطني، سرحت حينها رجوعاً أربعة عشر قرناً عندما وقف عُمر بن الخطاب في نفس مكاني هذا وأمسك الحجر الأسود بيديه الخشتين ورأسُ أصلع ينسدل شعرةً من جوانبه على كتفيه، نظر إلى الحجر بعينين حمراوين وقال مخاطباً إياه: (إني أعلم أنك حجرٌ لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك لما فعلت). أفقت مُرتجفاً على صوتٍ أنثويٍّ من خلفي يخاطبني بلهجة عرب الشام:

- بدي أبوس الحجر يا ابني.

أفسحت الطريق لمُسَنِّه في السبعين من عمرها «تقريباً» يتبعها رجلٌ عشرينيً وصبيّة في مُقبل العمر، لمُتَّها بطرفِ عيني.. كأنها حورية حطت من الجنة، تستترُ بِخمارها وتترفق بِجُطَّاهها.. يُخلِّق حياؤها و يظللها من هجير نظرتي التي تفترسها، فتاةٌ مُعتدلٌ قوامها يشع من عينيها بريقٌ حادّ تكوّنت حول ثغرها ابتسامَةٌ ضاحكة أظهرت وجنتيها عن عمد، يرتفع ذقنها بشموخ للأعلى مع بروز وأنفها زلف قليلاً ممَّا يزيدُها جمالاً، أحببتُ صورة الفتاة جمالها وحيائها، رمقني الشاب بنظرةٍ تقدحُ غضباً دهشةً من جُرأتي، وقف بكامله أمامي مطيلاً النظر لوجهي.. كأنه يعرفني منذ زمن لكنّه أضاع اسمي في زوايا ذاكرته!

عمدتُ على تجاهله واستدرتُ مُستدرِكاً أني بالحرم المكي! وقد ودّعت قبل قليل ثلاثةً من أصدقائي من عصورٍ مُختلفة، ابتسمتُ ساخراً وأنا أقارن نفسي مع عُمر بن أبي ربيعة، الشاعر العربي الذي كان ينتظر أيام الحج ليلتقي بالحسناوات القادِمات من العراق والشام واليمن، غريبٌ هذا الشاعر فقد كان يتعرّض للنساء في الطواف، فكُنَّ يتجنّبنه حيناً ويزجرنه حيناً آخر مخافة التشهير بهن.

أردّد إحدى قصائده في وصف أحد مواقفه..

وكم من قتيل لا يُبأ به دم ومن غلق رهناً إذا ضمه مني

وكم مالى عينيه من شيء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

فلم أر كالتجمير منظر ناظر ولا كليلالي الحج يفتنّ ذا الهوى

من على البُعد أرى نظرات الصبيّة لي من طرفٍ حييٍّ، بعد أن أشاح أخيها بوجهه عني مستهدياً بالله، أخذت الفتاة تبتعد بخشوع صامت وأنا أرقبها متخيلاً إيّاها (نظام) تلك الفتاة التي خلبت لبّ الصوّفيّ العاشق «مُحي الدين بن عربي» في نفس البقعة (مكة) أسرح قليلاً في شخصية الصوّفيّ وما وجدتُ في كُتبه ما غير مسار حياتي تماماً، ومن خلالها أيقنت بربّ الكون مُتجلباً في خلقه، تتبّع نظري الفتاة الشاميّة وفي ذهني بيتٌ من الشعر للشيوخ الأكبر..

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

لم أنكر فعلي فقد كنت أعلم بيني وبين نفسي وأنا داخل الحرم المكيّ أن تلك الفتاة الشاميّة تجسّد لجمال الله.. لا يوجد داخلي محبوبٌ سوى الله وأنا أمام بيته، وأنّ الله على صورة كلّ محبوبٍ وجميلٍ على الأرض، وأنّ كل من أحبّ إنما في الحقيقة أحبّ الله، لأنّ الله ظاهرٌ في كل محبوبٍ لعينٍ كلِّ محبٍّ، كما أنه لم يُعبد سواه، فإنّه ما من عبدٍ عبدٍ إلا بتخيّل الألوهية فيه، هكذا أيقنت بعظمة الرّب وسريان حبه داخلي فكبرت مراراً لوجه تلك الحسناء مُبدياً إعجابي بخالقها، غرقتُ في غيبوبةٍ عشقٍ لم أستيقظ منها إلا على صوتٍ أسعد مُناجياً ربّه على مقربةٍ مني، أسوق وجهتي حيث مكثتُ أسعد مُتضرعاً في خلوته لربّ البيت. لقد ازداد أسعد سُمنةً فترهّل بطنه واكتظّ بالدهون وزحف لرأسه الصلح، هي حياة الاستهلاك إذن من تضع بصمتها البائنة على جسدك مثل طعنات السيوف.

كنت أظن نفسي مناضلاً من أجل فكري اليساريّ، لم يكن يعنيني شيء في

حياتي كلها سوى طوباوية ما أوّمن به. كنت أتوق لتحقيق ثورة البروليتارية من خلال صراعها الطبقيّ، أفكاري لم تكن نزواتٌ أمارسها بفعل التضاد لحكام الوطن باسم الله، عملي السياسي لم يكن هواية عاطل مثل سياسيّ وطني.. يبحثون من خلاله عن موقع حصين يمارسون فيه نزواتهم باضطهاد الآخرين! بل كان قدرتي الذي يعصى عليّ مقاومته ولا يمكنني السيطرة عليه. استغفر ربّي وأشدّ على قلبي.. تتداخل أفكارني وأسعد يقف قائماً من صلاته وعلى وجهه انشراحٌ بائن، تُغالبي دموعي.. أناجي ربّي: (إلهي إني أتحمّل تأخير رُشدي فدلّني على الطريق، فعقود حيرتي قد تراكمت أجيالاً دنا سقّفها حتى كادت تُطبق علي، فأعني اللهم بوجودك داخلي).

أسعد باب الله يتفهّم حيرتي.. ينتظر مُناجاتي «ونهارات الصبر واقفات» أمام البيت عاشقهُ في ضيافة الرحمن.. ألهذا خُلقنا على شاكلته؟! أسعد الماركسيّ من زمن عدى فات يعدّل الإحرام حول جسده الممتلي، يُصافحني ويقول:

- ربنا يتقبّل منا ومنكم.

يُخرج جهاز المحمول ويبدأ في إلتقاط سيلفي لنا والكعبة من خلفنا.. نتوسّد «الحُزن القديم» وفي بيت الله تعالى ابتهالاتنا حرصاً بمُخاطبة ربّ البيت. أسرح بعيداً هناك وبدُ أسعد تضغط على الزر لتشغيل فيديو وثائقيّ عن مكة، يكرّني بلطف لأعود من شرودي ويشير لي صوب هاتفه قائلاً:-

- انظر لقد وجدت هذا الفيديو إنه مُحاكاه لمكة قبل الرسالة تم تصميمه بالذكاء الاصطناعي.

انظر الى حيث أشار على شاشة هاتفه المحمول، تظهر الكعبة بدون ستائرهما السوداء تتراص حولها مجموعة من الأصنام والأوثان، تتغيّر التضاريس ويتغيّر الزمان، وقفتُ مشدوهاً بجانبي أسعد نستعيد تفاصيل الجزيرة العربية قبل بعث الإسلام.

يتمتم أسعد معلقاً وعلامات الحيرة بادية عليه:

- بأي حق كانت كل تلك الحجارة هنا يا صديقي؟

علامات الدهشة تكسو ملاحي وانتباهي يزداد حيناً ويخفض حيناً أقول وعيني مازالتا مُثبتتان على الشاشة تتجولان بين الكعبة والأصنام والأوثان.

- إنه الصراع الاقتصادي يا عزيزي..

- ينظر أسعد إليّ في حيرة مستوضحاً حديثي!!!!

- الاقتصاد الدخّله بالأصنام شنو يا أحمد؟ برضوح تأخذه بمنحى التحليل الماركسي وصراع الطبقات!؟

أتناول الهاتف من يده وأردف قائلاً: وإن كان تحليلاً ماركسيّ يا صديقي ولكنها الحقيقة، فمكة عاشت فترات بل آلاف السنين دون أصنام أو أوثان داخلها، إلى أن جاء سيد من أسياها يُدعى «عمرو بن لحي» من إحدى القبائل المشهورة تسمى «خُزاعة» وجلب إليها الأوثان، بعد أن شاهدها في بقاع الشام وكانت له رؤية محددة في ذلك أيها الزميل، فظهور الأوثان والأصنام في مكة لم يكن تقديساً وإيماناً كما يبدو بقدر ما كان جلباً للمزيد من عرب الجزيرة إلى مكة وإقامة شعائرهم بما بغية الترويج للسوق وعرض النخاسة وزيادة التجارة.

ينظر إليّ أسعد متعجباً محاولاً تجميع ما قلته.. أستطرّد مُسهباً في الشرح أكثر:

- لقد كان عمرو بن لحي تاجرًا يريد أن يجعل من مكة مزاراً ضخماً يقصده البشر من كلّ فج عميق، فلجأ إلى إضافة الأصنام والأوثان لمكة لتشهد بذلك حدثاً تجارياً سنوياً يُعش هذه البقعة اقتصادياً.

عُدت بنظري إلى شاشة الهاتف.. بدا لي بيت الربّ واضحاً وجموع العاكفين حوله وأفواج الطائفين تتوافد إليه بغزارة، إلى يساره كان يقبع وثنيّ (إيساف) و(نائلة) وحوهما جمعٌ غفير من الحجيج، بينما تتحرك أعداد أخرى منهم في

حلقات تطوف حول الكعبة.

سوق النخاسة بالقرب من بيت الله يعج بالأعراب من شتى أرجاء الجزيرة العربية يتفقدون أفاقره ورومانيات ومصريات وجنسيات مختلفة معروضة للبيع، أتسمُ ساخراً وأقول في نفسي: لولا الكعبة لا شيء يجذب البشر لهذه البقعة الموحشة بذاك الوادي المُقفر، الكعبة هي سرّ الرّب الذي أوحى به لإبراهيم أن أعد ترميمها بعد خرابها بطوفان نُوح.

أقف مطرق النظر أجول في ذاكرة الكتب وأحاول أن أسترجع ملامح المكان، كيف تغيرت الجُمَل وتبدّلت المصطلحات يا هذا؟ ينظر أسعد صوي ويقول لي: أكان بمكة كل هذا الكم من الأصنام؟

أرفع حاجيٍ مستفسراً أسعد:

- ماذا تقصد بكل هذه الأصنام؟

يشير أسعد إلى حجرٍ أبيض على الناحية الجنوبية من الكعبة ويسألني:

إذا.. ما هذا؟

أرد عليه ببرود: إنها اللات يا أسعد

تتسع عينا أسعد مستفسراً: اللات التي يتعبّد عليها العرب ألم تكن منحوتاً؟ ألم يكن لها شكل محدد و...

أقاطعه موضحاً:

- هنالك فرق بين الصنم والوثن.

ينظر أسعد إلى وجهي ببلاهة لم أعهد لها فيه.. فأستطرد موضحاً له:

- حسناً سوف أوضح لك الفرق، الوثن أيها الزميل هو ما كان على هيئة محددة مثل هُبل وأشير نحوه بأصبعي على الشاشة، وهنالك أيضاً أوثان

كانت على محيط الكعبة مثل ايساف ونائلة وهما تماثلان لرجل وامرأة لهما أسطورة أشبه بالأساطير الرومانية. وما كان على شكل حجر فهو صنم، كان هناك حول الكعبة 360 إله بين وثنٍ وصنم.

أتأمل أسعد الذي أخذ يحك رأسه بشكلٍ عفوي..

فأبتسم له بسخرية وأضيف: الأصنام ليس لها هيئة محددة.

كنت أحاول الهروب من جسدي إلى ظل الله في علاه، خابت محاولاتي وخطوات الشيطان تدب داخلي بلون الكاكي، الجنجويد ملائكة الجحيم في وطني.. مُرتزقة الرجعية العربية هناك. ظلّ السؤال ينخر عقلي: لماذا نصر الله كُفار قريش عبدة الأصنام والأوثان على أبرهة المسيحي الموحد برب السماء؟ بينما قريش يشركون مع الرب آلهة آخرين؟ هل كان يقي مكة من دخول أي دين رسالي! هممت بقول شيء ، إلا أن أسعدًا استدرك أمرًا ما فقال: لهذا السبب الاقتصادى رفضت قريش دعوة محمد؟

أبتسم وأومئ برأسي إيجاباً:

- صحيح يا أسعد، وأعتقد أنه قد مر عليك حديث سفيان بن حرب وهو يتحدث لأهل قريش أن معارضته للدين الجديد لم تكن إلا لأن الدين سوف يضُر بتجارهم في مكة!

أتابع ردّة فعل أسعد الذي أخذ يتابعني باهتمام.

- هذه الفترة من التاريخ الديني والسياسي لكي تعلمها حقيقة، لا بد وأن تعرف أن قريش تلك القرية التي شهدت بعث الرسول عليه الصلاة والسلام كانت تحت سيطرة بيتين كبيرين من قبيلة عبد مناف.

يستوضحني أسعد قائلاً:

- أنقصد بنو أمية وبنو هاشم؟

- أجيبه وأنا أطلع المعتمرين أمامي: - Exactly في هذين البيتين كانت رئاسة قريش ولا يستطيع أحد أن ينازعهما فيها.

يهز أسعد رأسه مؤيداً ويقول:

- أعتقد أنني مررت على تاريخ قريش هذا من قبل فقد انقسمت الزعامة بين بنو هاشم وبنو أمية، إلا أن بنو أمية كانت القيادة الحربية من نصيبهم بحكم أنهم الأكثر عدداً.

أرد مقاطعاً إياه:

- لم يكن التنافس بناءً على كثرة العدد لكل أسرة، بل في الخدمة المقدمة للبيت الأمر الذي أدى للخصومة بين هاشم بن عبد مناف (جد الرسول صلوات الله عليه) مع ابن أخيه أمية بن عبد شمس ونجح هاشم في نفيه إلى الشام لعشر سنوات، والغريب أن عبد مناف وعبد شمس أخوين توأم تنبأت القابلة التي وُلد الاثنان على يدها بأنه سيكون بينهما دمًا!

ينظر أسعد إليّ ويقول:

- تم نفي أمية إلى الشام.. هل تقصد دمشق؟

ابتسم في مرارة وأقول:

- نعم مركز ثقل وعاصمة الدولة الأموية «يا عزيزي» التي أسسها أحفاد أمية بن عبد شمس في نفس بقعه النفي الأولى لجدهم.

يستدرك أسعد مغزى حديثي فيضيف:

- على حسب علمي أنه لم يكن هناك ملك أو زعيم أوحد يتفرد بقبض زمام الأمور في مكة، بل كانت هناك أسر محددة تتداول وتتشاور فيما بينها في دار الندوة قبل البت في أيّ حدث.

أجيبه:

- نعم لم تكن هنالك زعامة لقبيلة أو شخصية محددة يا أسعد بل كانت تلك الأسر والعائلات تتشارك في التجارة فيما عُرف (برحلة الشتاء والصيف) ولكن في نفس الوقت كانت كل عائلة تحتكر مهمة معينة تقدمها للتجار والحجيج. فهذه للسقاية وهذه للوفادة وهذه للسدانة وهذه لحجابه الكعبة وتلك لخدمة أصنام القبائل. وكانت أبرز هذه الأسر (وأكثرها قوة وثراء) أسرتي بني هاشم وبني أمية كما قلت لك سابقاً التنافس حاد بينهما، ألم تسمع قول «عمرو بن هشام بن المغيرة»: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا كنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرِك هذه؟ والله لا نُؤمنُ به أبداً، ولا نُصدِّقُه، ألم أقل لك أنه صراع اقتصادي يا أسعد باب الله المغيرة؟ يفهقه أسعد من تشابه الأسماء هذا وينصرف مكبراً للصلاة.

لم تكن مكة المدينة أو (مشأ) كما هي الآن في بداية تكوينها وصنعتها الأولى، الصورة تتحوّل والزمن يتغيّر، أنفاسي تتلاحق وكأني أبصر ما لا يبصر أسعد بجاني، لم تكن تلك الأرض بهذا البهاء.. بل بقعة موحشة تحيطها الجبال من كل جانب، صحراء قاحلة وحجارة صلده تبنى الجبال.. جبلاً تلو جبل. للمُدنِ طعام آخر وما بالك بمدينة مثل مكة فإن طعمها روح الربّ هي مدينة كُلّ الزمان، ماذا تراها تفعل بك عند ولوجك الأول لها؟ والكعبة بأستارها السوداء ترفرف مع فيض الروح بقربك من الله هكذا ظننت لعلّها أشجان ماركسيّ تائه !! لعلّها هدنه الحب التي قطعها إبراهيم رحلةً ما بين بيت المقدس ووادٍ غير ذي زرع ومن خلفه هاجر «الكنداكة النوبية» أخت الملك النوبي العظيم «سنوسرت» تلك الهدنة التي خرقتها الغيرة في قلب سارة زوجة إبراهيم الأولى بعد أن رأت بطن هاجر وهي تتحرّك وهناً على وهن! خواطر شتى تتجاذب إبراهيم، غيرة سارة لم تعد تطاق.. والفتاة السمراء صغيرة السن تربّت في كنف الملوك يانعة تُطوّع ضنك الحياة فرحاً لها، ضاحه بالأمومة تذهب خلفه بكل حب ممشوقة القوام تحمل رضيعها بين يديها تضمه إلى قلبها بحنان تقول في نفسها:

- أنا سليلة كوش العظيم حفيدة (اليكاباسكن) لن يغريني المكان وتخيفني الخطوب.

من هنا جاء شغف إبراهيم لتفاصيلها واختارها الربّ لامتحان البيت، إبراهيم الخليل ينظر إليها بعد رؤيته في المنام يبحثها على المضي في رحلته نحو وادٍ

بالصحراء، حيث أنقاض بيت الرب هناك يقول في نفسه بعد أن رأى ثباتها:

- هي ذا ثابتةٌ لأمرٍ ربّها. وأنا الخائف إن أطلت النظر إليها وإلى ابني أن يصقعي تيار أبويّ وأنوثتها.

يحمل إبراهيم ابنه إسماعيل بين يديه. قد وجده بعد كبرٍ ودُعاء، ينطلق في مسيرة النبوة مدرّكاً عقبات الامتحان بين الجبال وعلى وادي عميق في صحراءٍ لا إنس فيها ولا وحش ولا طير ولا زرع ولا ماء فقط صحراء جرداء وجبال شاهقة والشمس بوهجها تكاد تخطف الأبصار، وما بال اسحق نطفةً في رحم الغيب قد بثّه في أحشاء سارة هناك!

تنظر هاجر حولها تحاول أن تستوعب مغزى وجودهم في هذا المكان تحدّث نفسها.

- طالما ظننت نفسي أن الأمر سينتهي بي برفقة أنيسٍ في مكانٍ ما، كنت أعتقد بأنني أعرف جيداً ما سوف أنتهي إليه وبأن وجعي وحده من سيحزن عليّ متى غادرت أرض النوبة! ولكن الآن ما عاد الموت يشقيني وما عادت الوحدة تخيفني.

كادت تسأل إبراهيم:

- لماذا تلبس الصمت جلباباً. أليست هذه رؤية الله...؟ أم هي غير سارة ما دفعك أن تأت بزوجك وابنتك هذه البقعة الخاوية...؟

إلا أنها لاذت بكبريائها صمتاً تنظر لإبراهيم الخليل ووجهها الأسمر الملائكي يستفسر الفعل؟

يرفع إبراهيم بصره وينظر لتلك الأنثى أمامه ترقص على عبت المكان وأشعة الشمس بوهجها تخطف الرؤية، الحزن يبدو جميلاً على محياها بينما يتوسد هو خسارته بين قدميها.. لم يقل شيئاً فقط استدار عائداً، ملمت أطرافها وضمت

إليها طفلها الرضيع ثم أشارت إلى زوجها وكأنها أدركت أن أمراً ما يمنع إبراهيم من أن يصارحها، فقالت بصوتٍ خافت دون أن تنظر إليه:

- أ الله أمرك بهذا...؟

ثقب سؤالها أذنه وهو يعدّ خطاه مغادراً، التفت إليها يومئ برأسه إيجاباً.. بدا لها كأنه غير مكترث لها أمام مصابها القادم، لحظتها فقط تنبّهت إلى أنه شعلة من ضوء تتحرك.

الحزن لا يحتاج إلى موقف أو غيره امرأة من أخرى، فإنه يهطل بشكل دائم مُد أن هبط آدم للأرض مُمتحناً، ها هي اليوم تقاوم عادتها في الحديث مع ابنتها إسماعيل الذي كان يتجاوب معها بابتسامته وبنظراته البريئة، ابتسامته غائبة وصمته وتشبثه بها أو لغته الأخرى التي يخرج بها أصوات مبهمة، الماء والزاد ينفدان منها، «هاجر... هاجر... صوتٌ يناديها» لكن لا أحد هنا!!

تقيم بنظرها بحثاً عن شيءٍ تروي به ظمأ وليدها بعد أن جف صدرها.. إسماعيل يتلوّج جوعاً وعطشاً، يصرخ.. يتردّد صدى بكاء الطفل في الصحراء وبين الجبال.. يتردّد حول البيت إلى الآن!

ركام البيت أمام ناظرها خراب وكومة من تراب وصخور، تتجلى الحقيقة أمامها هاجر كشمس حرة لا يقدر مخلوق على حجبها، تجول ببصرها تتذكر أصالة نسلها وقوة أجدادها ومجد حضارتها فترفض الاستسلام! لقد اختارها إله إبراهيم لما وهبه إياه من قدراتٍ خفية، هي أنثى و لها القدرة على التسامي إلى حدود روح الرب، تبحث عن معجزة الله فيها، فتسارع الخطى صعوداً إلى أعلى هضبة أمامها تنظر في ملكوت ربّ أجدادها فتري حقيقة البشر من نسل ابنها سليل كوش العظيم، فتهرول مسرعةً إلى هضبةٍ أخرى من الناحية الأخرى وصوت بكاء الطفل يشقّ كبدها، تسابق خطواتها خفقات قلبها، تمضي ذهاباً و إياباً سبع مرات إلى أن يتكشّف سرّ وجودها في ذاك المكان، فينفجر نبغ مياهٍ موقع ضرب صغيرها بأطراف قدميه على الأرض ويتسرّب

الماء عذباً أمامها، وهل يكفي الإنسان بمعجزة الماء فقط ليحيى بين العالمين؟! لقد كان الربّ يختبر بها الإخلاص لقد اختارها الله لامتحان النبوة، كيف غادرتي الكلمات والأحرف في تلك اللحظات كما غادرت الفطنة الأولين؟ لم تكن جارية لم تكن رقيقاً كانت ملكةً نوبيةً عظيمة سليلة كوش أولى حضارات التوحيد والخضوع لإله واحد. كنت أستغرب من أولئك المؤرخين المسلمين الذين يصبغون عليها صفه الجارية أو الرقيق تحقيراً!! كيف لإله أن يختار من لا يملك حرّيته لاختبار النبوة العظيم بتركها بوادٍ غير ذي زرع وبجانب البيت المقدس إلى أن دُفنت بجانب بيت الله الحرام وقد عرف قبرها بحجر إسماعيل.

أسعد يعيد ترتيب إحرامه على جسده، ويتقرفص أرض الحرم المكي ثم سحني بجانبه، نظرت ناحية المقام المسنن الشامية مازالت تقف أمامه تلي ابتهالات ربها ومن خلفها الصبيّة (نظام) الشاب يبدو أنه غادر لمهمّة ما وأنا المشدوه على تاريخ تلك البقعة التي كانت يوماً تعج بالحجارة التي تعبد بدلاً من ربّ المكان، لم تكن مكة مدينة عادية أبداً فهي صنعة الله، كيف لبشر أن يترك صبيّاً وأنثى في هذا الوادي وحدهما؟ فالكتل الجليّة الضخمة هي التضاريس السائدة في تلك المدينة هذا خلاف الأودية والشعاب، أخذت أطوف ببصري وعين أسعد تلاحقني وكأنه يحدث نفسه ماذا يريد هذا المأفون؟ هنا بيت الله ألا يستغل هذا الوقت في الدعاء والتضرّع لرب السماء؟ ينظر إليّ ويقول:

- من الواضح أن دراستك أثرت عليك كثيراً يا أحمد.

أسرح فيما قاله لي متعجباً، أحقاً إلى هذا الحد تأثرت بدراستي في التاريخ والفلسفة؟ فأنا خريج تلك الجامعة التي تمت تسميتها تيمناً باللقاء النبيلين.. نعم قد أكون متأثراً بدراستي!

ظلّ السؤال كامناً داخلي: - كيف تكون بقعة صغيرة مثل مكة «نواة» لدين يحرك تاريخ العالم ما يقارب الأربعة عشر قرناً؟؟ نظرت إلى جبل أبي قبيس شرق الحرم المكيّ الذي أتقرفص على أرضيته وبجاني أسعد الذي أخذ ينظر

إلى حيث أشير متنقلاً ببصري بين الجبال قائلاً:

- هل تحسب أن القდوم لبيت الله نزهة؟ هو هجرة الروح يا صديقي، لقد عكفت على دراسة مكة ورسالة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام... ألا يدعوك الأمر للتأمل والوقوف مع نفسك قليلاً؟ كيف لبيئة مثل هذه أن تخرج لنا ديناً يُعتنق إلى الآن؟

أتنحي جانباً وانظر إلى أسعد مواصلاً حديثي:

- هنالك الكثير من الأقاويل والأطروحات التي تشكك في خروج دين الإسلام من هذا البقعة..

يبتسم أسعد ساخراً ويجيب:

- لعلك بهذا تشير إلى فرضية «دان جيسون» التي تتحدث عن أن مهد الإسلام هو مدينة البتراء في الأردن!

أرد: نعم.. ما قاله دان جيسون.

نظر أسعد إلى «جبال ثبير» وهمهم بمقولة قديمة كأنه يخاطبني بها:

- أن الدعاوي الكبيرة إن لم تقيموا عليها بيّنات أصحابها أدعياء
اخفض نظري ببطء وأقول:

- نعم عزيزي.. حديثك صحيح، وعلى حسب ما قاله عالم الاجتماع «معيار ساجان» والذي يؤكد على أن الادعاءات الاستثنائية غير العادية تتطلب أدلة استثنائية غير عادية ولكني الآن أمام حقيقة تتطلب البحث وهي واحدة من الفرضيات الكثيرة، لم يكن دان جيسون وحده من أشار إلى هذا فقد سبقه إلى ذلك كثيرون من المستشرقين لعل أشهرهم باتريشيا كرون ومايكل كوك لهم فرضيات ركيكة سميت بـ(المهاجرية)

يعلق أسعد نظره بأستار الكعبة محاولاً تجميع أفكاره، يقول كأن صوته قادم من جب عميق:

- أعتقد أن فرضية باتريشيا وكوك هذه هي الأساس لفرضية دان جيبسون لقد شاهدت فيلم (المستشرق الكندي دان)، هذا الفيلم الذي أُنجز باللغة الإنكليزية وترجم لعدة لغات لقد صور هذا الفيلم بجنوب الأردن إن لم تحيِّ الذاكرة، وعلى ما يبدو يحاول أن يقدم سردية متماسكة ولكنه فشل حتى بدعمه بالوثائق الأثرية، بالرغم من المعدات والتقنيات المتطورة التي من خلالها حاولوا إجبار الحقائق التاريخية بتصوير أن مكة المكرمة لم تكن تقع غرب الجزيرة العربية، وإنما كانت في منطقة جنوب الأردن وتحديداً «مدينة البتراء» عاصمة العرب الأنباط القدماء.

يصمت لبرهة.. ثم بيتسم ساخراً سائلاً إياي: هل شاهدت الفيلم؟

أرد باقتضاب: نعم، على اليوتيوب مترجم إلى العربية ولكي قبل ذلك اطلعت على كتاب جغرافية مكة وما سطرته باتريشيا كرون ومايكل كوك حول الفرضية نفسها وكتاب الهاجريون يحاولون صناعة التاريخ الإسلامي.

تتلاشى ابتسامه أسعد الساخرة يرمقني متسائلاً:

- وهل تؤمن بما يقول هؤلاء؟

تنتقل الابتسامة الساخرة لوجهي أنا.. فأجيبه:

- الموضوع ليس إيماني أنا بهذه الهطرات عزيزي أسعد ولكنني في حيرة من جرأتهم التي يتعاملون بها! فرضية دان جيبسون تبدو مفعمة بالخيال ولا تجد لها دعماً من نصوص الفترة الرومانية البيزنطية، على الرغم من توفر عشرات المصادر من وثائق ورسائل ومخطوطات سجلت الكبير والصغير من وقائع تلك الأيام وصراعات القبائل وحروب بيزنطة مع فارس في منطقة بلاد الشام خلال القرن السابع الميلادي، دون أن تتطرق مطلقاً للحدث المحمدي أو مرحلة صدر

الإسلام، هل نسيت أنني متخصص في التاريخ يا زميل ولا نسيت كلمة زميل أيضاً بوجودك في هذه الديار؟

لم يلقي أسعد بالاً لمداعبي الأخيرة بل ألح مردداً ذات السؤال:

- يعني ما معترف بفرضية دان جيبسون؟

قلت في ضيق وصوت الملبين حول الكعبة يصل صداها إلي:

- يا عزيزي لا بد أن نفهم كيف ينظر لنا الغرب، فهو يعرف نفسه عبر الضدية.. حديثي هذا ليس خطاب سياسي ولكن تفكير منظومة متكاملة، هم يريدون أن يعلمونا كيف نعبد ما نؤمن به، لإيمانهم الكامل بالتفوق علينا، الغرب في رؤيته أن الدين الإسلامي هو أحد عوامل تخلفنا الحضاري وفي تصورهم أن الإسلام بطبيعته متخلف وأن المجتمع الشرقي عمومًا يتميز بالعنف والرجعية والاستبداد، ليؤكد بالمقابل على تطوره وتحرره هو، فتم استخدام مصطلحاتهم لتصنيفنا على الرغم منا وهذا ما مهد للاحتلال في القرن التاسع عشر والغيبة العقلية التي جعلتنا ندور في فلك تبعيتهم الآن ، فرضية دان جيبسون لا تخرج عن هذا الاطار ، ولكن تكمن خطورتها في ركاكتها .

استوضحني أسعد قائلاً:

- أي خطورة تلك؟

نفثتُ هواءً حارًا وأنا أدور في حلقة حيرتي باحثًا عن ذاتي ونور الله داخلي.. كم مر من عمري؟ ولكم عامٍ سأظل أستيقظ أبحث عن حقيقة الأشياء؟ أبحث عن شيءٍ يستحق عبث الصراع وإراقة الدماء هذا!! أعود من تساؤلاتي وأردّ على أسعد قائلاً:

- الخطورة ليست بالتأكيد من باب طرح فرضية تاريخية غير مدعومة بأي شيء، ولكن تكمن الخطورة في أنها تحاول أن تطيح بثراث عريض دون كبير

تنقيب، فافتراضُ أيّ نظريةٍ في حدِّ ذاته حقٌّ مكفولٌ دائماً للعلماء والخبراء، يتداولونها ويدرسوها فيما بينهم بحثاً عن الحقائق الموضوعية إن توفرت. ولكن في فرضية دان جيبسون تلك فإن مكنم الخطورة هو في تعميم تلك الفرضية التي تم بثها في شكل أفلام وثائقية لتصل إلى جمهورٍ واسع غير متخصص في أغلبه، فتقنعه الفرضية والتي لم تُثبت إلى الآن دون حتى أن تُتاح للمتلقين فرصة الاستماع إلى نقدٍ موازٍ لها، أو على الأقل سرديّة نقيضة قريبة التناول كما هو الحال في الفيلم الوثائقي الذي شاهدته أنت.

يرمقني أسعد بإعجاب ويلملم أطراف إحرامه بين يديه ويقول:

- نعم نعم يا أحمد.. في الحقيقة كنت مستغرباً سهولة انتشار هذا الفيلم فهو موجود كاملاً على اليوتيوب ومواقع أخرى، بل وتوجد له نسخٌ مترجمة إلى العربية والتركية والصينية والفرنسية والهندية و.....

أقاطعه قائلاً:

- هذا ما أردتُ توضيحه يا زميل «سهولة الانتشار».

حرك أسعد حاجبيه مُتعضباً وردد:

- ولكن هنالك فرضيات أخرى تنكر أشياء عدّه مما ذكرها الإسلام بتشريعاته المختلفة تورا، وإنجيل، والرسالة المحمدية.. فليس هنالك وجود تاريخي للنبي إبراهيم لا في تاريخ الحضارة البابلية ولا المصرية القديمة!

حاولت كتم دهشتي التي خرجت عفوية

- لقد كنت صائباً تماماً يا أسعد في قولك عن النبي إبراهيم، وهذا ما ذهب إليه «سيد القمني» في كتابته (النبي إبراهيم والتاريخ المجهول)، وما قاله «فرج أديب» عن التوراة العربية وأورشليم اليمينية، وقول «كمال الصليبي» أنّ التوراة جاءت من جزيرة العرب، كل هذه فرضيات والإسلام بتشريعاته

المختلفة التي ذكرتها تمجد النص المقدس فيها إن كانت التوراة أو الإنجيل أو الرسالة المحمدية.. وفي النهاية كلها دين واحد يختلف فقط في التشريعات ويتفق في الحقيقة باختلافات أبطال الحدث.

أستجمع طاقتي المتبقية بعد صمتٍ قصيرٍ أقول لأسعد:

- الفكرة ليست تضاد الأديان كما هو ظاهر لنا من خلال الصراع المرير في التاريخ الإنساني بين المسيحية والمسيحية وبين المسيحية واليهودية وما بينهم والإسلام والذي أدى في عصورٍ سابقة في أوروبا لظهور ما يسمى (بمحاكم التفتيش)، إن ما هو مخفي من أوجه هذا الصراع أنه صراع حضارات.. ولّد فيما بعد مصطلح عبّ الرجل الأبيض، كمبرّر لاحتلال وقهر الشعوب كما ذكرت لك سابقاً من خلال مفهوم أن الرجل الأبيض مؤمن بالتفوق الثقافي والحضاري، والهدف من تلك الرؤية بتصورهم أن الآخرين متخلفين ورجعيين ولتعزير ذلك يتم ابتكار نظريات مثل ما ذهب إليه دان جيسون وغيره.

فتح أسعد فمه غير مستوعبٍ حديثي.. الأمر الذي أقلقني بأن يكون عقله قد تأثر بفكر الاستهلاك المادي الذي يُعشعشع في جغرافيا الدولة التي بها مكة، فقلت موضعاً:

- يتوجب الآن أن نعيد النظر في حقيقته مراد الدين والتاريخ والإرث الإسلامي ونسلّم بأن جوهر أيّ دين قائم على الحُب والسلام وليس الصراع بين البشر والطعن في إيمان كل فئة على فئة أخرى، ونعرف نمط تفكير الغرب ومخيلة الإسلام عندهم، ألا ترى كيف يصوّر الغرب الشخصية الشرقية في أفلام هوليوود؟ بعربيّ يضع طرحه على رأسه وعقال متخلف متعطّش للدماء يغتصب ويقتل.. همجي بربري جنسي هذه هي رؤيتهم للإسلام عموماً ورؤيتهم لنا نحن الأفرقة تتمثل في انتشار الجوع والحرب والمرض كيف نثبتها لهم بأفعالنا!

أخذت أدقّ النظر في عينه ملتصقاً فيهما تأثير حديثي عليه، يُرخي أسعد جفنه موافقاً حديثي ويقول:

- تصدّق يا أحمد منذ وفاة والدتي حاولت كثيراً عدم الخوض في أي قضايا تمس ما أوّمن به، لقد سلّمت تماماً بأن الحياة تمضي هكذا دون أي تدخل من أحد، تجنبت كل الأحاديث والتساؤلات التي ترهق عقلي في البحث عن مدلول الأشياء، فأنا أعلم أن ما أمر به ما هو إلا هزيمة نفسية داخلي، وهذه ليست أولى هزائمي فقد سبقها كثيرٌ من الانكسارات.

أخذت أنصت لأسعد بينما أجول ببصري بين المعتمرين الذين يطوفون حول الكعبة كي أمنح الدمع الذي برق في عينيه خصوصيته في النزول، مسح دمعاً سألت من طرف عينه كي لا ألحها وبصره معلقٌ بساحة الحرم المكّي وهو يقول:

- رحلت أُمّي عن الحياة وبها ظمأً وحنين لرؤية ابنها الوحيد، أعاتب نفسي كثيراً يا أحمد بأني السبب في موتها بلهفة شوقٍ ملكت قلبها المسكين فنزف حتى الموت، رحلت وتركتني وحيداً على هذه البسيطة أتجرع مرارة الفقد والخيانة والالتهام بالعمالة من أقرب شركاء النضال، أصبحت خالي الفؤاد أؤدي عبادتي بقلبٍ فارغٍ وحرَجٍ من تأنيب الضمير بتأخير فرض.

أبتسم بهدوءٍ والألم يعتصر قلبي، المسجد المكّي يبكي حالنا وصلاة الخوف التي فرضت علينا منذ العصر الأموي لم تنهاننا عن الفحشاء والمنكر، كنت أعلم ما قيل في أسعد بعد خروجه من المعتقل بأنه قد أدلى باعترافاتٍ كاملة عن التنظيم والحزب، لم أناقش أسعد في تلك الأقاويل لعلمي التام بإيمان أسعد بالتغيير.. أنظر إليه قائلاً:

- إذن أنت تدري ضمور داخلك وتحجب رؤياك عن قصدٍ يا صديقي، فقد قالوا قديماً أن الرؤيا بُرهان السماء إذا تمّنت الروح.
لملمتُ أطراف إحرامي على جسدي وأنا أنهض مواصلاً حديثي:

- كم مرة أدت مناسك الحج والعمرة في مكوثك بهذه البلاد؟

يقف أسعد بجانبى بعد أن عانى في النهوض بسبب حجمه وقلّة الحركة في هذا البلد الأمين رد على قائلاً:

- لا أدري بالضبط ولكني أعتقد أنني قد أدت شعيرة الحج خمس مرات أما العمرة لم أعد أحسبها.

صمت أسعد.. وتوكلت على وجعي وبيت الله الحرام يتنّ حزناً من فكرة أداء الشعيرة دون قلب، قلت مخاطباً الله داخلي:

- خذني إليك ربّ قد حار نبضُ الهوى وأنا ببيتك، كيف لي أن أعرف أنّ القلب هو موطن التقوى وأنّ الصلاة معراجُ إليك؟

نظر لي أسعد دون أيّ تعابير، قلت وأنا أربت على كتفه:

- لا تكترث لما تسمع مني يا صديقي، ولكن عندما تجد قلبك فقط طوّف حوله سبع مراتٍ في المرة القادمة فهذا أفضل لك من الطواف حول الكعبة، وهكذا تكون قد أدت حجّتك السادسة كاملة التي تشفع لك بإذن الله، ووصلت إلى نهاية رحلتك وتكون قد أدت الصفا والمروة وداخلك النقاء، صدقني سوف تعش إلى الأبد مرتاح البال.

قلت كلامي هذا وأنا أتتبع سرباً من الحمام بعيني في سماء الحرم المكيّ يطوف في حلقاتٍ حول البيت، استطردُّ محولاً الحوار إلى نقطةٍ أخرى.. ليس فيها ألم الماضي وذكرى الموت والفقد فقلت:

- مكة قبل بعث الرسول فيها، كانت من أكثر المناطق تخلفاً في العالم تحدها حضارتين، الفارسيّة تدين بديانة «زراد يشت» وهي حضارة موحدة يا عزيزي عكس ما قيل لنا بأنهم عبده النار، والأخرى الحضارة الرومية تدين بالمسيحية وهي ديانة موحدة أيضاً باختلاف محتوى اللاهوت والناسوت بين طوائف المسيحية نفسها والآن نحن نعيش نفس المأساة يا صديقي تحدنا حضارة السوق الحر والنيو ليبرالية من الغرب وحضارة الآسيويين الصينية التي تتخذ

شعارها الاشتراكي لباساً سياسياً يداري سواًتها من الشرق، و تلك البقعة ترزح تحت ظلمات الحاكمين باسم الرب والاستهلاك والجهل الذي وصل لحد التُّخمة، ألم تلاحظ هذا؟

انفعل أسعد لحديثي واقترب أكثر يلملم حبال تلك الأقاويل التي تصدر مني كأنها وحي جديد في نفس بقعة محمد الرسول، أشرت إلى تلك السلسلة الطويلة من الهضاب محاولاً تغيير الموضوع مرة أخرى إلى المشهد الذي أماننا قائلاً:

- إن تضاريس مكة في حد ذاتها عائقٌ لأي إبداع، فهي منطقة موحشة تفتقر إلى أي إحساس.. ذات بيئة قاسية انظر إلى هذه الجبال تسمى «جبال الخندمة».

قلت حديثي هذا وأنا أشير إلى الجهة الشرقية:

- هذا هو جبل تبير ولهذا الجبل قصة يا عزيزي فأهل مكة كان يطلقون عليه اسم جبل الرخم ويقال في الأساطير العربية بأن هذا الجبل قد هبط عليه أحد الملائكة حاملاً كبش عظيم لفداء ابن إبراهيم نفس الكبش الذي قدمه قربان أحد ولدي ادم فتقبل منه قصة الذبيح تلك مشهورة في التراث الديني المحمدي واليهودي باختلاف من هو الذبيح اسحق أم إسماعيل واختلاف المكان بالطبع.

سرح أسعد عميقاً فيما حدثته به وأنا أتابع سردي وجمع من المعتمرين يتوافدون إلى ساحة الحرم المكي، مازال نيتشه مُمسكاً بيد دوستويفسكي انضم إليهم هذه المرة فيكتور هوجو الموحد الزاهد منذ أمد بعيد، قصة البؤساء خرجت من هنا من الحب نبتت بين تلك الجبال

أقول في نفسي مخاطباً فيكتور هوجو:

- تلك الجبال هي التي فرضت ذلك الطوق الطبيعي على مكة عبر

الأزمان فلم يكن هنالك أي منطق أن يتوافد العرب إلى هنا، فلم تكن في هذه البقعة موارد ولا سبب واحد يدعو للعيش فيها، لم تكن هنا أي حضارة صدّقتني أيها العزيز هوجو ففي هذه المنطقة تاريخ ضارب من الدماء والخيانة والاسترقاق والوحشية والقهر الإنساني، وهل كان مجرد تفجير نبع للماء كافٍ للحياة في هذه الصحراء؟

يضحك فيكتور من مقارنتي تلك ويقول:

- صدقت، ولكن هي قوة الروح التي وجدت بالبيت الحرام، هي من دفعت عجلة التاريخ للتوافق بين الإنسانية وبعث الرسول كقوة حب أبدية، في تلك الجغرافيا لم تكن رسالة السماء للدين الجديد في هذه البيئة القاسية عبادة حركية بل كانت قوة الرسالة في تجسيد الله محبة داخل مخلوقاته، ومواصلة لبحث الإنسان عن ذاته وفي هذا اتفقت كثير من الأديان بما فيها البوذية وهذا ما وصل إليه (جان فالجان) و (كوازيمودو اللقيط) إذا اطلعت على البؤساء وأحذب نوتردام أيها العزيز.

يقطع مؤذن الحرم المكّي حديث فيكتور مناديا لصلاة العصر في أولى أيامي بالمملكة وتاريخ تلك البقعة يعصف بأفكاري ودان جيبسون يضحك ساخرًا ويقول أنت في المكان الخطأ إنما هناك في البتراء.. صدقتي إنك في المكان الخطأ، ومع صوت تكبيرة الإحرام التي ظلت لقرونٍ طويلة يخفت تقوها قرناً بعد قرن، تتداخل الرؤى وتبسط أسراب الحمام مصطفةً حلقةً واحدة حول البيت.

ليس للذاكرة بابٌ يا صديقي العمر ساعة إلهية لا تتوقف عند محطات الخذلان والخيانة، أتدرى أن أسوأ شعور يمكن أن توصله لإنسانٍ قريب منك هو أن تستهين بوجعه، أن تؤلمه عن قصد، لا يوجد أسوأ من أن يشعر أحدهم باختلال نفسه وفقدان الثقة فيها. أن تكتشف أنك كنت مغفل نافع. مجرد أداةٍ ليس إلا، هل من العدل أن أنكسر مراتٍ مُتتالية بفجعة موت أمي وخيانة من وددت تكملة الحياة معهم وشماتة الأصحاب؟

هكذا صرح لي أسعد عندما سألته عن ناهد لماذا تركها ورحل دون حتى أن يودعها! لم أسأله عنها قط كل تلك السنون التي مضت ولم أسأله ما حدث في المعتقل لستة أشهرٍ حسومًا! لم أشأ أن أوجعه بتلك الأحاديث التي تهمس بعمالته للنظام وكشفه لأسرار الحزب ولكني كنت أعلم أن هنالك ثمة شيء. لست ممن يقعون في فخ المؤامرة كنت أحلل كل حديث وكل همس وأحصي فرص أسعد وبرأته من تُهم العمالة وأنه غواصة جهاز الأمن في التنظيم، ظل أسعد سارحًا بعد تلك الإجابة مُمسكًا بمقود القيادة في الطريق إلى المدينة المنورة وخلفنا مجانيق الحجاج تدك مكة دكًا وعبد الله ابن الزبير يعلن تمرده الأخير على عبد الملك بن مروان.

كان أول ما أثار انتباهي وأنا المُحتفى به بعد خروجي المشروط من اعتقالٍ دام لأكثر من شهر، هو تلك الفتاة التي جاءت مرحبة بي في ساحة نشاط الكلية، لم تكن ناهد فتاةً عادية كانت استثناءً كاملاً للأنثى، جُرأتها وهَوْرها واندفاعها صارخةً في وجه العسكر (الجامعة جامعة حرة والعسكر يطلع بره).

كان هذا اليوم هو بداية الغواية تذكرتها وأحمد أمين يُقصّ عليّ قصة هاجر النبوية تذكرتها على تخوم البيت العتيق بعد غياب، تذكرتها وأنا احضن أحمد مُستقبلاً إياه في المطار، كل ما تمنيته هو نتف تلك اللحظات التي ملأنتني بالندوب وأفقدتني الثقة في نفسي، شعرت حينها بالكآبة تقتلني وبالرغبة في أن أردم جبال من رمل وحجر على تلك الذكريات وأمسحها من تاريخي، كان يجب أن تنتهي ناهد داخلي كما انتهى كل شيء في منذ زمن، هكذا بدأنا قصتنا أنا وناهد قصة حب جمعتنا تحت شعارات الثورة واليسار ومناهضة النظام، بدأنا غرباء تجمعنا محطات النضال وتلويحه لقاء وكلمات عن الحب والثورة والطبقة العاملة لنبقى عالقين فيها نبحث عن مخرج لنهاية آمنة من الغدر والخيبات! غادرت الوطن أجر أذبال الخسارة والخذلان بموت أمي ووأد حُبي حياً، كانت خيانة ناهد ووفاة أمي أكبر من أن أحتملهم معاً أكبر من طاقة تحملي والوطن جريح، وكأن الأيام تكالبت عليّ، تنفّنت في وجعي لم تكتفِ بسليبي حريتي وخسارتي للوالدة في غيابي حتى فجعتني ناهد بخيانتها!! حنظلّ ظلت مرارته عالقةً في حلقي دهوراً، وبقدر ما كان حُبها لاذع الحلاوة في البدايات إلا أن النهاية كانت سم يسري بجسدي، لم أكن أتوقع أن تكون ناهد إحدى أعين النظام داخل التنظيم! أنا الذي قدمت قرباناً باسمها فتقبل قرباني تركيبةً بدخوها إلى الجبهة الديمقراطية ومن ثمّ الحزب، يومها تفاجأت بها في التحقيق الثاني جاءت مع ضابط الأمن ترتدي بدلةً عسكرية راسمةً على وجهها ابتساماً ساخرة وتقوم باستجوابي! رأسي مُلقىً إلى الأسفل وقدماي مربوطتان إلى الأعلى بوضع معكوس، جسدي مُنهك لم أعد أشعر بقدمي نظرتُ بطرف عين فتصادمت عينيّ بعينها شعرت بها تخنقني ودماء قلبي تنزف من كل مسام بروحي، كانت ناهد... ناهد يا أحمد، صمت المكان.. هُزّ يجرفني إلى هاوية سحيقة، أم هي قوة الصدمة من أشعلت طنين الأذنين عندي صرخت بصوت مكتوم من الأُم:

- يا شرموطة انعل دينك.....

صدقني يا أحمد ما أتعبي ليس جرح قلبي النازف.. ما أتعبي حقاً ما كنت عليه من ضعف ووجوه (كلاب) الأمن تضحك شامته علي، أخذت أنتحب مثل طفل فقد أمه في ليلةٍ ظلماء، لا الألم يسكن وجروح القلب وان برأت ستظل ندوبها شاهدةً على فظاعة ما حدث.

الخيانة لها طعم الموت بل أشد يا أحمد، حتى (ريتنا) الإسرائيلية لم تكن بتلك الوقاحة. لم تكن فظةً لهذه الدرجة إنتهت قصة الحب بينها وبين درويش عند النكسة والتي أيقظت لديهما هويتها لينحاز كل منهما إلى ما يريد، اختارت ريتنا الانضمام إلى سلاح الطيران الإسرائيلي، واختار درويش الوقوف إلى صف شعبه، ولكن ناهد تعمّدت قتلي وكسري.. كانت عين النظام في التنظيم، كانت يهوذا الإسخريوطي الذي غدر بيسوع بعد أن استأمنه ماله ونفسه.

كنت أسمع صوت الركل والضرب وأصوات المنكسرين تتوسل الرحمة، يعقّبها أزيز الكهرباء يشوي جلودهم وينغرس في لحومهم يؤلمني الرجاء المسحوق بالابتزاز أكثر مما تؤلمني تأوهات الوجع، الألم قصير المدى ولكن الإذلال يبقى ما بقيت الروح، انكسرت نعم تم قهري يا صديقي وكان انكساري واضحاً. تغيّرت. نعم تغيّرت للأسوأ، لا يتغير الإنسان دون عذاب. أصبحت لا أشبه الشخص الذي كنت أخطط أن أكونه، صرت لا أعرف كيف ولماذا خرج مني الشخص الذي أنا عليه الآن! في كل صباح كنت أتعرف على نفسي من جديد ينتهّد أسعد بحسرةٍ ويواصل.

ستظل تلك اللحظات كالعلقم في حلقي كلما حاولت ابتلاع تفاصيلها في غياهب النسيان، خنقتني أصبحت ضعيف المقاومة بقلب جريح وذكريات مؤلمة، أميل كأني غصن هزيل يهتز مع كل هبةٍ من رياح الحياة، أردت الاتصال بك بعد خروجي من المعتقل وحتى بعد هروبي من الوطن لأخبرك هذا الثقل الذي يجثم على صدري، لم أعد أطيقه ولكن ماذا سأقول لك؟ هل أقص عليك خيبيتي؟ أفتح عينيك على بشاعة جراحي التي لم ولن أشفي منها أبداً؟ أخبرك عن تلك الصفعة التي لم أكن أظنها أو أتخيلها حتى في أقوى كوابيسي

بالمعتقل؟ هل أفتح لك قريحتي وأحدثك عن رجل مهزوم في حبه غدرًا؟؟

كانت عيناى مفتوحتان على وسعهما دهشةً وأنا أنصت لسرد أسعد عن تفاصيل هروبه من ماضيه؟! كل أوصالى ترتعد وتنتفض غضبًا وحرزًا وشفقةً من هول ما لاقاه.. مددت يديّ نحوّه أشده لحضني عساي أفلح في إخماد نيران جوفه التي أشعلتها فيه الخيانة وزادها حطبًا موت والدته!

- يا الله هل عشت كل هذه السنوات كاتمًا سر الخيانة تلك؟؟ كيف مرت عليك الليالي والأيام كيف صبرت على ما لم تحط به من خيانة يا أسعد؟ يا ريتك اتصلت بي يا ريتك أخبرتني ما أصابك من رهق، ربما كان عليك ان تخبر احد ولو لم يكن أنا يا أسعد!!

أسعد مازال متماسكًا يسرد لي خيانة حبه الأول والأخير حكايات الليل والشجن والألم والشهد والدموع..

- على مر كل تلك السنوات يا صديقي كان هدفي مساء كل يوم أن أنجو من نقرات الماضي والذكريات على رأسي، كل تلك الأعوام التي مرت لم أعشها ليست إضافة لعمرى إلا مزيداً من العنت والمشقة واليأس والاستسلام التام، لم أعد أقاتل لتغيير قدرى لم أعد أواجه ولا يهمنى أي انتصار، كنت أسعى في قرارة نفسي أن أنجو فقط من تلك الساعات لأستقبل ساعات أخرى بنفس الهدف. لليالي الخوف طعمٌ مختلف أيها الزميل، فلا يمكن لرجل مرّ بنفس ما مررتُ به ألا يفقد أنفاسه وهو يرى من أحبها تسحق رأسه بصخرة، حتى أنى صرت لا أحصي ما تبقى لي من فرص للبقاء على قيد الحياة، فأنا الآن جسد خائر وروح مهشمة لقطع صغيرة، ما كان يهون علينا جور الحكام وخيبات الحبيبات هو أحضان ودعوات الأمهات وكفوفهم التي تمسح دموعنا وتخبّرنا أن لا بُد يوم باكر يبقى أخير.. خرجت من المحنة تلك لأجد أن أمي قُبرت يا أحمد. أمي ما انت

وكانه تلقى نبأ وفاة والدته للتو! فقد شهق أسعد حتى كادت السيارة تخرج

عن الطريق السفري، ضغط أسعد على المكابح بقوة خلفت صريراً علياً إثر احتكاك العجلات بالأسفلت. ارتقى على كتفي يبكي بحرقه ويرتجف مثل زغبٍ صغير في ليلةٍ ماطرة لم أتمالك نفسي.. لممتُ أسعداً إلى صدري وغرقنا في نوبة من بكاءٍ حار، كُنّا نبكي وطناً تفنن في تعدينا بكينا أحلامنا بكينا حالنا في الغربة. حاول أسعد التماسك قابضاً على كفي مواصلاً سرد ما به من وجعٍ بصوت مبحوح من وراء دموعه السخية:

- صدقني يا أحمد أنا بالفعل أخوض صراعات يومية كي لا أتحطم، من أجل أن أبقى إنساناً.. أحاول بقدر الإمكان أن أتجنب حقيقيتي التعيسة، أصارع مخاوفي كل ليلة عند وضع رأسي على وسادتي، أقاوم هلعي كل صباح دون رغبة في مغادرة فراشي، أحارب تلك الأفكار التي تقودني إلى الانتحار وهمسات الكثيرين تصلني بأني من قدم التنظيم قُرباناً للخروج من المعتقل، أقاوم اضطراباتي النفسية وتلك الذكريات العالقة داخلي تنهشني كل حين.

أقول لنفسي والألم يعتصر قلبي عصراً:

- لقد فهمت تماماً ما تعانيه، فهمت متأخراً جداً.. أعلم بأن الموت ليس ضد الحياة.. بل ضد الألم، الخوف، الخيانة، الغدر، ضد تلك الأسباب التي تجعلك جسداً بلا روح وهذا ما كان عليه أسعد ميت حي، يحاول الوقوف من جديد بعد هذا الارتطام الحاد وتلك الطعنات المتلاحقة، لم يكن هناك من ينتشله إلى أن وصل إلى القاع مستسلماً.. فابتلعته عتمة روحه! بحق ربّ المظلومين كيف لم تقدم على الانتحار يا أسعد...؟ يا لك من قوي!!

لم أكن واثقاً من شعوري في تلك اللحظة بدا الأمر مُلتبساً للغاية.. هل كنت أحد الخونة كيف يتثنى لي أن أنسى تعاطفي مع ناهد التي استمرت في تمثيلها واستمتاعها بدور الضحية التي تخلص عنها الحبيب؟ وتركت التنظيم في سلاسة عجيبة ورسمت الحزن على محياها كل ما تقابلنا!

أعود بذاكرتي لكلمات حنان عندما صادفنا ناهد تمم بالنزول من سيارتها

المظللة على شارع النيل..

- والله يا أحمد أمين البت دي قلبي ما بيها ما عارفه ليه من زمن الجامعة
كُنا مغيوووطين منها طوالي سهتانه كدا وكأها بتفتش في عيوننا على حاجة ...
أضحك ملئ فمي وأقول:

- حنان دا حقد طبقي منك ساي

تتفعل ضاربة بأحدي يديها على كتفي وهي تصيح:

- شكلها كانت عايبك.. إنتوا الرجال أساسا كلكم كدا ويااااا احد ...

يا الله (العرافة) حنان صدق من قال إن قلب الأنثى دليلها ...! كم أشتاق إليك
الآن، كم أشتاق لغضبك وفرحك أشتاق لكل ما فيك لكلماتك وقت الشدة
والأم، أشتاق لتطميناتك لي بأن الوطن لا دخل له بشظف العيش الذي نعانيه،
وبأنه لا خير في رجل يكره وطنه الذي ترعرع فيه، كنا نطلق عليك لقب العرافة
لكثرة ما تقولي من مواعظ جلييلة.

يقطع أسعد حبل أفكارى المسترسل بعد أن استجمع قوته وتحرك مرة أخرى
صوب المدينة المنورة:

- لم تكن ناهد يا أحمد ... لم تكن ناهد، فقد كنت أنا الذي رميت نفسي
في شبك أنوثتها بملء إرادتي، فالغواية لم تكن التفاحة التي بين يديها في شخصيتها
ولكن كان الجسد حاضراً وشهوتي تتكئ على جدارٍ هش وروح أتعبها كثرة التردد
على المعتقلات.

نظرت إلى أسعد بعينٍ بصيرة لقد كان محقاً فيما قال...!! لقد كانت ناهد أنثى
الأقدار الهائجة ناراً للفتنة.. جسدٌ له ألف بابٍ وبابٍ مرتعاً بحكايا السمر وقصص
العصر العباسي وألف ليلة وليلة، قلت لك هذا من قبل يا صديقي.. أتذكر عندما
سألتك: هل لك طاقة بتحمل عبء هذا الكم من الشهوات وأنت رجل مصاب

بوعكه الغيرة والحنين؟ لقد كان مدخل جهاز الأمن إليك متوقعاً لدى (الأنتى) نقطة ضعفنا جميعاً، لقد كانت أول خطيئة لآدم (فرج) و(نهد) وأنت آدم حياتك وخصر (ناهد) وأرداف (ناهد) وصدر (ناهد) كانت أئفه المقدمات لواقع تعيشه الآن!

في محاولةٍ مني لتبديد تلك الحالة من الفوضى والارتباك التي انتابتني بكلام أسعد عن ناهد رحمت أحاول تغيير مجرى الحديث وسيارة أسعد الكورولا تنهب أسفلت الطريق الرابط بين مكة والمدينة..

- الحياة تختلف كثيراً في السعودية خارج الحرم المكي أو هكذا خيّل لي، يلتف أسعد ناحيتي وكأنه أحسّ بما يجول في خاطري وقال:

- أنا بخير يا أحمد ... أنا بخير اطمئن، لقد شارفت على التوازن أخيراً بعد كل تلك السنوات لقد أصبحت أقوى.

ابتسمتُ له مشجعاً ومؤكداً حديثاً.. رَبْتُ على كئفه مواسٍ له وجوفي يغلي كالبركان! كيف لوطنٍ أن ينتقم من أبناءه كما يفعل السودان بنا...؟ أدرت وجهي للناحية الأخرى أقول في نفسي:

- لا أدري أصحيح ما تقوله أم تحاول مواساة نفسك وبثّ الطمأنينة لي؟ كيف تكون قوياً وأنت تفضحك هشاشتك بهذا الحد؟! لا أعتقد أن التخلي بهذه السهولة ولا أن التجربة قد ولدت لديك تلك القوة التي تدعيها! أنت لم تستطع تجاوز محطة ناهد يا أسعد ففاجعة الخيانة فطرت قلبك ووفاة ووالدتك ثبّط ما تبقى من عزيمتك ولكن دعها تمضي هكذا لا تحاول أن تقاوم تلك التغييرات التي تعترض مسيرة حياتك، عش واقفك عساك تدرك ولو بعد حين أن الجانب الذي كنت عليه أفضل مما هو آتٍ.

ضغط أسعد على مكابح السيارة فجأة بعد أن اتخذ طريقاً جانبياً وتوقف أمام استراحة على الطريق السفري الساعة تشير إلى تمام الخامسة مساءً يلتفت إليّ

قائلاً:

- عذرني فلم تتناول غير وجبة الصباح لابد وأنت تشعر بالجوع.

حاولت أن أعترض بأنني أحتاج إلى النوم أكثر من حاجتي إلى الغذاء الآن، إضافة إلى أن ما تناولناه من (KFC) كان دسماً فما زلت أشعر بالامتلاء. لكنه كان قد حسم الأمر بأن فتح باب السيارة وراح يحنني على النزول قائلاً:

- أنزل يا راجل أنزل عازمك كبسة باللحم السواكني.. أعقبها بضحكة تخفي وجع وألم واضح على محياه.

نزلت مثقلاً بالجراح أحمل خيباتي بين روحي لكن نور الله أبي إلا أن يحيطني ترافقه تلك الذكريات، أنظر إلى الطريق السفري.. القادمين والذهابن إلى بيت الله يتوافدون أمام الاستراحات ذقون وعقالات، جنسيات مختلفة آسيويين وأفارقة وعرب يعلفون مثلما تلعف الماشية، يتوقفون قبالة مطاعم الطريق يتناولون اللحم وأطايب الطعام بعد زيارة بيت الله الحرام سرحت برهةً مع نفسي وأنا استرجع ما قاله أبا يزيد البسطامي عندما سُئل بأي شيء وجدت هذه المعرفة؟ فقال: (بيطن جائع وبدنٍ عار).. تتباطأ خطاي نحو المطعم حاملاً صليب خطاياي وذنوب هفتي في طلب الدنيا وجنازتي أمام ناظري تكفّن بما تحمّل من شهوةٍ إلى قدرٍ من لحم وثرید، أهدا خلقنا رب تراهاقا العظيم؟ بعض زوّار المطعم على أجسادهم ملابس الإحرام يهللون باسم الرب وهم يمضغون لحم طيرٍ مما يشتهون، يتجرعون مياةً غازية لشركاتٍ أمريكية عابرة للقارات بعلاماتها الشهيرة، لم تمض لحظات حتى توقفت سيارة نيسان باترول موديل العام ترجل من عليها رجال تزيّن ذقونهم لحي طويلة، ينطلي على سيماهم ترف الحياة ونعيمها، أجسادهم بضّة ملساء تفوح منهم رائحة عطورٍ باریسية غطت فضاء المكان مثل دعاش الصباح في وطني، وكزني أسعد وهو يشير إلى الرجال ذو اللحي الطويلة.. كانت على وجهه مسحة فرح طفولي بعد أن تناسي ألمه الذي سرده لي قبل قليل، يبدو ان هذه هي طريقة اسعد لتناسي جراحه.. الانغماس في السطحيات! أصبح رجلاً منتصرًا رغم هزائمهم،

تدافع البعض يلتقطون صور سيلفي مع أصحاب الذقون الطويلة وأسعد يسألني:
أندرى من هؤلاء؟

نفيت معرفتي بهم بسؤالي له :-

- هل هم من الأسرة المالكة لهذه البلاد!!!! فقد خُيل لي دائماً أن تلك
الأسرة مثل ممثلي بوليوود الهندية تحوم حولهم الأساطير وتترفف حول قصورهم
قصص الرعب والجنس.

فتح أسعد عيناه في دهشة وهو يهمس لي:

- معقولة ما بتعرف الشخصية دي...؟

قال كلمته تلك وهو يشير إلى أحد الرجال ذوي اللحى الملساء يرتدي الإحرام.

- أبداً والله لا أعرفه.

كان ردي مقتضباً الأمر الذي أثار حفيظة أسعد كثيراً

- ده شيخ أحمد القصيبي أحد أشهر شيوخ الدعوة في الوطن العربي عنده
برنامج على قناة ام بي تي MBT معقولة ما تكون سمعت ليه؟؟

«وليس في نيتي سماعه يا أسعد» قلتها في نفسي وأنا أبحث عني فيها بإيمان صوفي
متجرد وأصناف الطعام تتراص بأنواعٍ شتى أمام الداعية الشهير ومالك بن دينار
يهمس في أذني قائلاً:-

- وددت لو أن رزقي حصة أمصّها فقد ضجرت من كثرة تردادي إلى
الخلاء، وأي خواء أكثر من الذي نحن فيه يا مالك؟؟

جلست على الطريقة العربية داخل المطعم وأسعد يتناول الأرز واللحم بشراهة
ويثرثر كثيراً عن مآثرات وأساطير الداعية وكيف أنه حجب الإسلام لعددٍ كبير من
فنيات الغرب الشقراوات! لم أستوعب ما يرمي إليه لماذا شقراوات...؟ ولماذا نساء

فقط...؟؟ وليس ذكور...؟ لماذا يجتهد هذا الداعية في هدايتهم للإسلام بمفهومه الوهابي وليس الإنساني؟؟ أكثر ما كنت أخافه هو أن أفتن بتلك الشخصيات يوماً ما. أسعد يجثني على تناول الطعام تعففت بشيءٍ من الأنفة، هل أنا زاهدٌ فعلاً أم متقزّز من المكان؟ جال بخاطري ما قرأته يوماً بأن ليس الزهد ألا تملك شيئاً ولكن الزهد ألا يملكك شيء.. وأي كبوة أصابتنا فيما نؤمن به! هل هذا فعلاً هو دين محمد الرسول الذي ربط حجرين على بطنه من الجوع؟؟ أجول بصري في المطعم مُتَحاشٍ النظر إلى يد أسعد وهي تقبض قبضة على كُرّة من الأرز وترمي بها داخل كهف فمه، يقع نظري على الداعية وهو يلتهم طبقاً من الحلوى بتلذذ.. ويردد بصوتٍ عالٍ: اللهم أدمها نعمة واجلب لنا خيراً منها.. وكأني أرى من وراء صفحة زجاج المطعم المبلول برطوبة الهواء البارد المنبعث من المكيفات الشيخ الأكبر ابن عربي وخطاه ما لامست وجه الطريق بمشي فوق غيمة ظني وبهمس في أذني (يجب أن تكون تغذية البدن كعلف الدابة إنما تطعمها لتحملك لا لتقضي شهوته) أسرح فيما قيل، أنادي عليه: يا شيخ محمد يا حفيد الطائي.. تمهل.. أريدك أن تعلمني المزيد. يجاوبني المدى الفاتح مدارج الهم: وصوت العابرين والقادمين لبيت الله الحرام في حب الدنيا طعنة سيف موسّدة في شق السماء الثامنة، مصابيح مرسومة على وسادة دم، وطيف الجنيد البغدادى يزور روعي ويجاورها (والله لم نأخذ الإسلام بالقييل والقال ولكن بالجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسّنات.) يقول تلك الكلمات ويمد رجليه وقد تورمتا، نظرت إليه وخيالي يسوقني ويودي قلت: ما هذا يا أبا القاسم قال لي: هذه نعم الله، يفيض نهر الإيمان ويحيض رجال الدين ونظراتي تتابع الداعية الإسلامي ينهب من نعيم الدنيا غير مبالٍ وصوت الجنيد يتردد داخلي مبوحاً. يتمدد أسعد على الأرض فardاً رجليه ومكوراً (كرشة) إلى أعلى، يسبح بحمد الله على نعمة الطعام. نظر إلي بعينين مثقلتين من النعاس و قتمت:

- لقد تجاوزت كل ما حدث في الماضي أيها الزميل (نطق كلمة الزميل تلك وعلى وجهه ابتسامة ساخرة) لقد تجاوزت الماضي تماماً فكل الأمور السيئة لها وقت صلاحية تتعفن بعد ذلك، حتى الذكريات التي سردتها لك أصبحت منتهية

الصلاحيه أيضا، ولن تصحبي مرة أخرى.

يبتسم أسعد ووجعي به يزداد.. ماذا فعلوا بك؟ لقد قتلوك حياً.. أردت أن أبكي وأنا أشاهد أسعد على تلك الحال من اللاحية، غير مبالٍ بشيء، لم أستطع أن أتحدث معه تجمدت مكاني، فكل ما أرغب فيه أن تنتهي هذه اللحظات!

أعيد تأييث حياتي من جديد يسقط عني عمداً كل ما علق بي منذ سنين من شجن وحنين هل تراجعتم أم وجدت حقيقة نفسي؟ أراقب روحي تتصل مني بعفوية لتصل إلى برزخ إلهي، أراقب حلمي ببناء وطن وحلم أسرتي بستره الحال زيارتي لبيت الله تهمز كياني أقول في نفسي سنة الحياة، تلك التجارب التي نخوضها بانتصاراتها وخساراتها تلك اللحظات التي تستحيل إلى ذكرى قد نسترجعها يوماً ما، وذكرياتي مع أسعد كثيرة هتافاتنا الثورية، المظاهرات ضد النظام، المدارس الفكرية، أركان النقاش، خيبات الحبيبات، مغامراتنا الجنسية وأسعد كادر يؤمن لنا (وكر الحرمان) عند سفر والدته للبلد، غزوات العاشقات العابرات لخطات العاطفة أيام الجامعة نروي ظمأنا من أحضان وقبلات للوطن على هيئة أنثى، نُعيد ترتيب المتطفلين في جلسات الأناج والشرب في الداخلية على أغاني مصطفى سيد أحمد وزيدان إبراهيم بعد احتساء العرقي المغشوش المخلوط بماء الانتشاء كذباً، تلك الذكريات تبقى في داخلك كسحابة تمطر بالحنين، لقد تغير أسعد تماماً وتغيرت أنا كذلك فالمرء وما يؤمن به والإيمان بشيء مرحلة قد تستمر أو تتغير، في طريقي خارج المطعم كانت الأرض قد تغطت بالتعب والحزن باد على ملاحي حتى رأيت بأمر عيني إبراهيم بن أدهم قادماً من بعيد يشير إليه عامل نظافة آسيوي ملوحاً بيده ويقول :

- إلى أين يا إبراهيم؟

توقف إبراهيم وكانت تبدو عليه علامات الأرق والتعب الشديدين.. قال :

- قاصداً بيت الله

تعجب عامل النظافة الآسيوي وقال بعد أن أرخى رأسه:

- ومن أين أتيت؟

رد العاشق الوليه بحب الله:

- من العراق

ارتفع حاجبي دهشة وأنا أتابع حديث الرجلين من بُعد وبني نفحة من شوق
لزهد، يتوكأ العامل الآسيوي على مكنته ناظرًا إلى السماء ويسأله:

- كيف قدمت إلى هنا فالطريق بعيد وشاق؟

يبتسم السلطان إبراهيم ويقول:

- لي مراكب كثيرة.

يقول السائل: وأين المراكب، وما هي؟

يبدو لي أنه من الصعب مجارة رجل فاحش الزهد متطرف في حب الرب لذلك
كانت إجابة إبراهيم توصل وحيًا لروحي التي تشعر بالعجز أمام الرد:

- إذا نزلت المصيبة ركبت مركب الصبر، وإذا نزلت النعمة ركبت
مركب الشكر، وإذا نزل القضاء ركبت مركب الرضى، وإذا دعيت نفسي إلى
شيء علمت أن ما بقي من الأجل أقل مما مضى.

يبتسم السائل ويقول بلسان أعجمي مبين:

يليق بك يا أبو اسحق أن تكون ضوءًا لا ينطفئ، سر ياذن الله فأنت الراكب
وهم الغافلون.

انتهت فجأة إلى إشارة العامل الآسيوي ناحيتنا، نظرت خلفي كان الداعية
الإسلامي على سيارته الفارهة.. عندما رجعت ببصري لم أجد إبراهيم بن

أدهم أخذت عيناى تجولان المكان بحثًا عنه، لم يكن له وجود.. فقط العامل الآسيوي ينظر لي مبتسماً ثم يقول:

- أنت مرهق من وحدتك، ابحث عن ذاتك فنور الله لا يكشف لجاهل!
فتحت فمي دهشةً، لم أكن وحيداً يا هذا! ابتسم العامل مقترباً مني وهو يقول:
- من لم يكن مع الله فهو وحيد، إن لم تدر من أنت لم تفد علماً ولم تكسب عملاً، أنت وحيد.

قال كلماته تلك وتحرك منصرفاً تاركاً إياي غارقاً في حيرتي، مُرهقاً من وحدتي وفرط حنيني لأنس الله، التفت إليّ لمرةٍ أخيرةً قائلاً:
- (كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة).

لم أدر ما مكنون الكلمات لكن أدري الآن أي غريب بما يكفي عن نفسي، انتبهت عند وضع أسعد باب الله يده على كتفي وتسلسل صوته لمسمعي قائلاً:

- يا أخينا مالك بتتلفت زي مروحة الطرابيزة والراجل ده منو بتعرفه؟

أرد على أسعد الذي وقف فاغراً فاه دهشةً من حيرتي:

- لا ما في شيء كنت أبحت عنك.

نظر لي أسعد بريية لكنه لم يتفوه بأي كلمة، فقط توجه إلى السيارة وتربع على مقعد القيادة. أخذت أطيل النظر للعامل الآسيوي وهو يلوح بيده مودعاً.. أيعقل أن يكون ما رايته خيالاً؟ نعم خيال.. كيف يكون حقيقة وكيف لإبراهيم بن أدهم أن يكون في هذا القرن!! جلست على المقعد بجانب السائق ونظري ما زال معلقاً بالعامل الآسيوي من خلف زجاج النافذة لازلت حتى هذه اللحظة غير مدرك ما بي وما كُنه تلك العبارات التي قالها ذلك الآسيوي! تحركت بنا السيارة وأسعد ينظر بدهشة للعامل الآسيوي الذي يودعنا!

على طريق (مكة _ المدينة) القديم، طريق هجرة الرسول تسرع السيارة تحاول لحاق الشمس قبل المغيب، أعيد مقعد السيارة إلى الوراء أكثر وفي بالي أسعد الذي اتخذ الغياب عن الحاضر دواء وطمس الماضي بكل ما فيه بترياق النسيان، كمحاولة منه للتأقلم على العيش بعد أن تجرع خذلان الحياة وتحمل ضرباتها المتتالية، كم هو متعب أن تجد نفسك مدفوناً في الغياب بلا رغبة في الحضور! هكذا أصبح أسعد. لم يعد يثق في الحياة، لقد ماتت الرغبة فيه وهو في أشد الحاجة إليها ليعيد روحه من جديد.

وكانه يعلم ما يجول بداخلي من تساؤلات، ينظر إليّ بطرفٍ خفي ويهمهم بكلماتٍ تصل إلى مسمعي همساً: صدقي يا حميم لم يكن يؤذيني أحد لو أنني اتخذت القرار الصائب في الوقت المناسب لا أنسى أبداً ما حييت تحذيرات حنان لي أيام الجامعة وهي غاضبة تقطب ما بين حاجبيها:

- البت المباريك دي ماا عجباني نهائي يا أسعد!!!!

أصمت لبرهة ثم أنظر إلى حنان مستغرباً حديثها أقول: -

- ماها؟ الما عاجبك فيها شنو؟

ترد بخوف حقيقي: -

- أخاف عليك أن تنتهي تلك التجربة دون رغبتك. أن يسير بك القدر إلى حتفك على حافة الحب، تلك الأنثى لا تناسبك إنها تطفى نار طموحك ووهجك. انظر إلى نفسك يا أسعد هل تعرفها؟ الأرق أصبح وسادة تفتريتها.. الشرود سمه تلازمك منذ أن عرفتها، الظنون والهواجس مرتع تسرح فيه دون عواقب. أرجو أن تفيق منها.. حرّر نفسك من اشتهاها.. تلك الأنثى أجزم بأنها لعوب، ليس لدي ما يؤكد حديثي ولكن نحن النساء نعرف بعضنا البعض.

يا ليتني سمعت حديثك يا حنان يا ليتني توقفت عند كلماتك، كيف لم أع لتلك

النصائح؟ كيف تثني لي عدم التجاوب معك! نعم لقد كان قوام ناهد المشوق لا يترك وقتاً ليهدأ بالي، كنت رقيقاً يعبث بي جسدها كيف شاء، لقد كانت حالة حب مكتوبة عند القدر بالانتحار، لقد اختطفني من نفسي ووجدت قلبي وكل كياني يغادرنى طائراً باتجاهها.

توقف أسعد عن الحديث وأضواء المدينة المنورة تتراءى لنا من بعيد تمدد الصمت بيننا وطريقنا الطويل المظلم يحكي غربتنا ، أغمض عيناى وأحاول التلصص على همومي فيمن تركتهم خلفي، أفيق من غفوتي بين الحين والحين مستعيذاً من شيطان العسكر قابضين على حنان بعد مظاهرة في أحياء أمدرمان تزداد ضربات قلبي ، حياتنا في الوطن مثيرة للشفقة، كلما حاولت جلب السعادة لمن هم حولي وضع الوطن أمامنا أسباباً كثيرة للوجم ، حتى كان انهيارى الكامل مع مجزرة القيادة العامة والدماء تغطي كل الساحة وأصوات المفزوعين يتردد صداها داخلى إلى الآن، أصبحت مطارداً لهواجسى رأيتهم كيف يربطون طوب البلوك على أقدام الثوار ويلقونهم في النيل مكتوفي الأيدي، لم يشعر الشهداء بالخوف .. كانوا يفوضون إلى القاع مثقلين بحب الوطن لا الحجارة! النهر دافئ يحيطهم بعنايتهم .. تختلط العوالق مع ضبابية الرؤية وأعشاب النيل تتراقص أمامهم، أسماك البلطي تطلق زغاريد بداية لموكب أعماق النيل ، تصطدم الجثث بصخور لزجة ويتحرك أمامهم نور يزداد كلما توغلوا للأسفل، قاع النهر أكثر أمناً من الوطن. أطلقت ساقى للريح وهربت .. نعم هربت ولم أتوقف عن الركض إلا بعد أن أنهكت تماماً، تمّت في شوارع العاصمة رثّ الملابس .. قدر كثيف الشعر، أتبول على نفسي أرفض النوم خوف مدامهم الجنجويد وقوات الأمن الشعبي، بحث عني الرفاق يتملكهم خوف موتى بشرقه ثورة، قالوا بأنهم عثروا علي في منطقته الدخينات .. كنت أشبه بالجنون ولولا أمي وحنان لما تعرف عليّ أحدا! ظللت بهذا الحال لمدة ثلاثة أشهر أعاني صدمة ما بعد المجزرة، عشعشت فكرة الهروب كحلّم مؤجل داخل ذهن حنان. فتواصلت مع أسعد لأجل إخراجي من هذا المستنقع أصبحت خائفاً أترقب،

إلى أن قال لي عمار علي: اخرج منها إني لك من الناصحين، كنت أخشى لون الكاكي، أهذي بكلمات غير مفهومة في ذهول تام وشروء، كل ما أعيه هو الجزرة، القتل، الدم، هول المشهد جعلني صامتاً حيناً من الدهر إلا من الهديان و صرخات مفاجئة أردد فيها بأسماء: قصي ... مطر ... كشة رأيت بأم عيني كيف تمت تصفيهم وأنا أركض مع آخرين، كانت أمي تحتويني تضميني في حضنها وحنان تجهش ببكاء متواصل، وصغيري يطالعني بنظراتٍ خائفة. كنت أتساءل من هذا الصغير؟ فقدت كل شيء.. لم أعد أعرف من أنا؟؟ أفقت على اهتزاز السيارة بصورة عنيفة، يبدو أن أسعد يقاوم النعاس بعد أن ارتطم بمطب على الطريق لم يلاحظه. نظرت إلى الخريطة المرفقة على طبلون السيارة يبدو أننا قطعنا مسافة 385 كيلو متر في حوالي 3 ساعات ونصف، وقطعها الرسول صلوات الله عليه بعد أن خرج من ظلم أهل مكة مع صحبه أبو بكر في ثمانية أيام مطارداً من مناهضي دعوته بقريش، وأنا قطعت المسافة من وسط الخرطوم إلى الدخينات بذهول الصدمة لا أعني شيئاً، ويأتي هروبي متأخراً أهرب من ظلم بني جلدتي محملاً بالهموم.. أعاني من إرهاق الحياة، مطارد بالتزامات يجب إيفاءها كي تكفينا شر الذل، التفت إلى أسعد.. مازال يقاوم الوقوع في سلطان النوم، الرهق بادياً على ملامحه وعجلات السيارة تلتهم إمتداد السواد الاسفلي بنهم في جو يسوده الصمت وحزن الذكريات، ينظر إليّ ثم يتسم قائلاً:

- لقد وصلنا مدينة الرسول

الساعة تشير إلى السابعة والنصف مساء، نتوقف عند تخوم المدينة في نقطة التفتيش، تتزاحم السيارات على الطريق يشرع الجندي السعودي في أخذ إجراءات روتينية بفحص وثائق العابرين أغمض عيني وأحمد الله في سري على سلامة الوصول يشير إلينا ضابط سعودي أن نترجل عن السيارة بعد إفساح الطريق، أسعد يتوقف عند باركن معد خصيصاً لتلك الحالات وفي باله تساؤلات عدّه عن الخطأ الذي ارتكبناه؟

يشير الضابط لي ويسألني:

- قادم أنت اليوم إلى المملكة؟

أشير بالإيجاب، يتفحص ملاحني ويقارنها بجواز السفر، الضابط مثل شباب تلك البلاد وسيم التقاطيع ملاحه ساكنه وصافية لم يمسه غدر الزمان، منتشي الأماني ومستمتع بالنعم التي حطت عليهم، يحف شفثيه شارب أنيق وذقن خفيف.. كلماته حاسمة وباردة ناولني جواز السفر قائلاً:

- تفضل يا زول، عمرة مقبولة إن شاء الله.

تمتم أسعد ببعض الكلمات تدل على شكره للضابط الذي أشار إلى الجندي أن يفسح لنا المجال لدخول يثرب، مساء المدينة بارد يحفظ أسرارنا من التعفن كنت أريد أن أتوجه إلى أي مكان لنيل قسط من النوم ولكن شيء داخلي ينبهني، إنها لهفتي لرؤية قبر الرسول تمنع عني تعب الرحلة، وددت لو أستطيع أن أدلف إلى حجرته في روضته الشريفة لأحكي له ظلم من بكى شوقاً لرؤيتهم أقصص له حكايات الرعب وشظف العيش في بلدي باسم شريعته، أسرح في تفاصيل المكان يثرب الصعود من أسفل قاع المدينة يصل إلي صوت دف وقرع طبول شاهدت عزة الميلاء* مغنية المدينة تتمايل في مشيتها محركة أردافها بطرب ومن خلفها يظهر مساعدها عون* يحمل بيده عصا طويلة يهزي بها مع أنغام الدفوف التي كانت في أيادي مغنيات المدينة الأخريات جميلة وتلامذتها معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وعقيلة العيقية والشمسيتان خُليدة وُرَيْحَة، و سيرين جارية حسان بن ثابت، وطرية وزرنب ورائقة وخولة¹ استقبلنا كل هذا الفوج وصحبي يهمس في أذني:

- لا تحزن إن الوطن في كل مكان

١- الأسماء المذكورة أعلاه حقيقية كانت في المدينة المنورة... عزة لميلاء مولاة لأروى بنت كريز أم عثمان بن عفان، وقيل بل كانت مولاة لحسان بن ثابت، وهي أقدم من غني بالحجاز، المساعد عون هو صبي عزة يحمل بيده عصا طويلة، فمن تحدث أو تلفت في مجلسها كان عون يشير إليه بالعصا، وربما نقر رأسه بما حتى يضمن جو الاستماع والإصغاء والوقار، معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة... الخ كلهن أسماء لمغنيات في صدر الإسلام الأول

ترتفع حناجرهن تصدح قائلة: -
طلع الفقر علينا بعد ما اشتد الصراع
وجب الموت علينا في منازلنا جياع
أيها الكيزان شتتوا فلم يعد الأمر مطاع
أنتم أغرقتم السفينة أنتم مزقتم الشراع
فقد شرب الوطن كأس ذل حين دمرتم البلاد
أيها الكاكي يكفي فالوطن اليوم ضاع
موتنا حق، ولكن أمريكا روسيا قد دنا عذابها شعارات وخداع

ضد الحياة الخوف وليس الموت، الخوف من هدم الأحلام، الخوف من تبيد الأمل، الخوف من مستقبل واهٍ في دولة تتفنن في تعذيبك بالحرمان، الخوف... الخوف الذي تم غرسه فينا كان أسوأ أنواع التعذيب الذي تلقيناه، لم نُصالحنا الحياة يوماً هل تدرك معنى أن نعيش في متاهة زمنية لا نهاية لها، الحاكم في وطني يدرك تماماً مدي غواية السلطة فزرع جذورنا في مستنقع آسن بالخلافات العرقية والإثنية، أشعر بالأسى فنحن جيل التعاسة أضعنا شبابنا في أكبر كذبة باسم الرب فتملصنا عن حب الوطن... لا يا صديقي.... لا نكرهه فنيقض الحب ليست الكراهية نقيض الحب السطحية تجاه كل شيء أو سمها اللامبالاة أو قل التبلد، تبلد المشاعر، الوطن شيء داخلنا لا نحبه ولا نكرهه، كلمة تسمعها هكذا تظل على موقف الحياد منها لا تتخلل مشاعرك ولا تشعر ناحيتها بشيء سألت الشلة التي كانت تسهر معي قبل سفري بيوم هل تحبون السودان...؟

التفت إلي عمار علي وتشاغل معتصم سليمان بهاتفه أخذ يكتب علي صفحته بالفيس بعد أن قام بتحميل صورة تجمعنا (وداع أحمد أمين الصادق في رحلته الأخيرة نحو المهلكة) لا أدري هل قصد الاسم أم هو خطأ إملائي؟ أما طارق دفع الله فسرحت بعيداً بعد أن مال إلى الأمام محاولاً استيعاب ما قلت كنت أحضن ابني عندما رميت بهذا السؤال علي حين غفلة من حين.. ضحك عمار علي ساخراً وقال:

- ياخ عليك الله أنسانا من الوطن والسياسة الما جابية حقها دي، أحمد

ربك إنك اتخارجت من البلد دي وشوف لنا معاك طريقة في أقرب فرصة.

(عمار علي) هو الأخ الأكبر لحنان وصديقنا برغم فارق السن فهو يتقدمنا بخمس سنواتٍ حزينة، له شجاعة هاشم العطا الذي قاد انقلاب عسكري في وضح النهار، ملاحظة أقرب لملامح مصطفى سيد أحمد بذات الشارب المميز والتسريحة الخنفس، ظل رغم ذلك يبغض أغاني أبو السيد يقول أنها تبث الملل و الكآبة وتبعث على الحزن ، كفر بالسياسة تماماً بعد موت الخاتم عدلان كان أحد الملازمين له والمؤيدين لفكره، هرب إلى الكُرة والأدب والشعر والرواية، هلالاي شرس يحفظ تواريخ المباريات وأسماء لعبيبة كرة القدم من جكسا وماجد وإبراهيم وزه والسد العالي خُذل في حبه للهلال أيضاً بعد الهزائم المتكررة التي أصابتنا حتى في الرياضة، أخذ يرشف من فنجان القهوة أمامه ومعتصم يضحك بعد أن ترك تجواله على الت وتقول له :

- انت عايز تغترب بعد عمرك ده يا عمار!؟

يخرج عمار حُقه التمباك يخبط عليها عدة خبطات بباطن كفه ويسكب ربع كميتها داخل فمه يحرك لسانه لتجميع فتات العماري تحت شفته وهو يقول:

- والله الليلة دي ألقى لي طريقة أطلع من البلد دي بطلع

أعيد له نفس سؤالي القديم:

- لا بالجد يا عمار.. آخر مرة حسيت بالسودان ده متين؟

يغمض عينية كأنه يستدعي الذاكرة ويقول ضاحكاً يبدو عليه الصدق من خلال تلك القهقهات التي خرجت منه:

- والله يوم مباراة الهلال مع الأهلي المصري لمن غلبنا الأهلي 3 شفت اليوم داك أنا حسيت

إني بعانخي ياخ رجعت من استاد الهلال لحد البيت كدّاري نحنا شله معانا

عمك عباس ولع وود الماحي وأشرف بطة وأمين السُّكري ياخ كنا بنردد نشيد العلم بأعلى صوت ودموعنا جارية كلنا شفنا السودان ده كبير خلاص!

عم الصمت فجاء وهمهمات ابني سكنت عن الحركة خيم الوجوم على محيا طارق الذي اسند ظهرة على المقعد وسرح مرة أخرى وكأن الجميع استندركوا لتوهم فخ سؤالي. مشكلة جيلنا تكمن في روح المغامرة نبحت دائماً عن أسهل الحلول نرفض التضحية أو الموت في سبيل الفكرة نعلم في حياتنا على تجارب مضمونة من الآخرين، الأبطال الحقيقيون وحدهم يخلقون تجاربهم مثل أبطال ثورة ديسمبر وهم جيل يختلف عنا تماماً فنحن جيل الندرة في كل شيء، أرخي معتصم بصره إلى الأرض، وغصت أنا في رحم تلك الأيام. الهلال والأهلي المصري المرارة تتداخل مع خوفاً المبهم من يوم غدٍ لرحلة سفر للمجهول، * إعلام النظام يوجب الحماس الوطني ويصور المباراة كأنها حرب مقدسة للوطن.

* منقول بتصرف من مقال على النت باسم

لقد قلت لكم من قبل أي أشعر بالأسى فنحن جيل النعاسة الذي كتب عليه أن يتحمل تحبطات ونظريات الحزب الحاكم، * كُنَّا نصبح مع إشراقة كل شمس على سماء الخرطوم المنهكة من كذب الكيزان بموسيقى القوات المسلحة على أجهزة الراديو لنسمع في نشرة السادسة والنصف صباحاً (وقد استطاعت قواتكم الباسلة تسندها كتائب المجاهدين تحرير مدينة ... سمعت أسماء مدن لم أتيقن أنها كانت من ضمن بلدنا الحبيب، سمعت بكبويتا وتوريت وبور، سمعت بتلك المدن ودماء الشباب تغطيها ليحيا مشروع أحذب مهزوم، لم تطرق مسمعي أسماء تلك المدن مرة أخرى إلى أن رحل الجنوب بأكمله عنا، نحن جيل مريض نفسياً ومحطم الإرادة يبحث عن ذاته في أحلام اليقظة وأوهام الإعلام الحكومي وساحات الفداء! لا تندعش كثيراً إذا كنت من جيل النص الثاني من السبعينات إلى النصف الأول من الثمانينات نعم نحن الجيل المشوه عن عمد، نتقاذف بين قداواتنا ومثلنا العليا، فلم نجد من ينتشلنا من إضراباتنا النفسية فعشنا مع أدهم صبري رجل المستحيل ومنى توفيق، كرهنا سونيا

جراهام والموساد. لقد شكّلنا دكتور نبيل فاروق والضابط يونس وهو يردح شامئاً بأقبح الألفاظ لكل الدنيا عند السادسة صباحاً في الإذاعة القومية، لفظنا الوطن لتنتقنا الأفلام الهندية ليخرج لنا اميتاب باتشان وجيمي و مثلاً لنا عشقاً أبدياً، حفظنا كل أغاني فيلم ديسكو دانس أكثر من حفظنا لنشيدنا القومي، عشنا الحنين والشجن مع الألحان والموسيقى دون أن نعي معنى الكلمات التي تمجّد «كريشنا» تأثرنا بموت معلم البطل أكثر مما تأثرنا بموت عبيد ختم أو وداعة الله إبراهيم ، ويحي على وطنٍ لم يعد مريحاً لأبنائه فنزوي على حافظه كأننا متأهبون للقفز منه لجرّف هالك! جيل أصيب شعوره بالتبلد تجاه كل القيم والعادات أصبح مثل بركة راكدة من الماء، تلك فترة حالكة السواد بدّدت أحلامنا وفرطتها كحبيبات مسبحةٍ مقطوعة، ذاكرتنا علبلة مترفة بالخذلان أيها الأصحاب. كانوا يتابعون حديثي بأسى وكلّ سارح في الكلمات، نحن الجيل الذي لازمته أزمة حنينٍ قاسيةٍ لماضٍ لم يعيشه ولكن سمع عنه من حكاوي الآباء والأمهات، حدثونا عن الازهري والمحبوب ومبارك زروق استمعنا بفرح عن الخرطوم بالليل وجمال النيل، تلاشى كل هذا بانكسار الآباء ودموع الأمهات من شظف العيش.

* معالج من مقال على النت اجهل اسم الكاتب
* كريشنا أحد آلهة الديانة الهندوسية الكبار، تعبدته طائفة من الهندوسية. يرسم عادة على شكل ولد راعي بقر يعزف الناي

كُنّا نسمع دعوات أمهاتنا مكتومة بحرقه حشا في منتصف الليل بعد أن تم القبض على أحد إخوتنا في الشارع لِيُساق إلى معسكرات الجهاد، كانت عيون الأهالي في حالة هلع دائم بمجرد خروجك من المنزل خشية ألا تعود مُجدِّدًا، تنزل دموع القهر على خدود الأصحاب.. دموع ترى في الهروب حلاً للخلاص، أم أنها تكشف ما يجول في الخواطر؟ طارق دفع الله أخذ في الانتحاب وهو يلعن في سره كل خيباته وفشله حتى بلغت روح الوطن الحلقوم، طارق يعي مرارة الذكريات وذكرى والده المُحال للصالح العام تضرب من جديد، فاختلط نحيبه بالكلمات:

- كيف بالله تريدون منا أن نحب الوطن أن نردّد نشيدنا القومي بحماس ونحن جيل الانهزامات المتكررة! لا ندري ما النشيد القومي هل هو..

نحن جند الله جند الوطن إن دعا داعي الفداء لم نحن؟

أم هو ذلك النشيد الجهادي الذي أجبرنا على ترديده في الطابور المدرسي الصباحي

شعارنا العالي برفع العالم كلو بسمع فلناكل مما نزرع ولنلبس مما نصنع!

لقد مرّوا فينا كل نظرياتهم، جيلنا عبارة عن فتران للتجارب بدءًا بالسلم التعليمي وحتى ثورة التعليم العالي وصندوق دعم الطلاب وتساؤلي هل تحبه؟ أليس من قام بكل هذا هو نفسه الوطن؟؟ ليس لجيلنا اختيارات في حياته هكذا تعلمنا من الحاكم، تسير بنا الحياة من محطة إلى أخرى.. يعث بنا الزمان حتى طال ترحالنا غرباء في كل محطة جديدة، جيل بلون نزيف الدم...

قطع معتصم حديث طارق معكّر الوجه:

- سافر يا أحمد ... سافر ... ومن هنالك هاجر إلى بلدٍ آخر يعرف قيمة الإنسان، صار الحلم لأغلب جيلنا الخروج والهرب! سافر ياخ وأنساك من القصص المؤلمة دي تشريح الواقع ما ح يعيد الحلم.. انت على الأقل

عارف وجهتك ومسافر وين، في كتاباار بطلعوا ما عارفين متوجهين على أي بلد (السُمبِك)* أصبح قرار وهدف في حد ذاته

*السُمبِك مصطلح سوداني يستخدم لوصف نوع من أنواع السفن صغيرة أو متوسطة الحجم يستخدم أساسا للصيد وأصبح يستخدم لنقل البشر على البحر الأبيض المتوسط لسواحل الدول الاوربية في المهجرة غير الشرعية.

يخرج عمار علي من عبادة الصمت التي اتخذها بعد آخر حديث له وقال بفلسفته المعهودة:

- يا حبيبنا ما تتعب نفسك ساي ما في حاجة اسمها وطن.. دي شجون ما قبل الرحيل، سافر سفرك ساي وخذ في بالك إن الوطن القاعد تتكلم عنه ده حاله ذهنية ممكن نجمع عليها في حالات محددة ذي مباراة الهلال الفاز فيها 3 القلتها ليك قبيل، وممكن تنتح عليك فكرة الوطنية دي لمن تسافر وتشوف (شراميط سودانيات في بعض المدن الخليجية بيعوا شرف الوطن بأقل سعر معروض في سوق الدعارة) صدقني ح تنقح عليك نفس الحالة الذهنية دي وتستنكر الفعلة هناك وانت هنا لوقت قريب كنت جزء أساسي من العالم ده!

انطلقت ضحكة عمار علي مُبددة حاله الوجوم التي سادت، وارتفعت فناجين القهوة يُرشف منها صدى الكلمات، وطارق يلتفت يُمنه ويسرى محاولاً التأكد من أن تلك الكلمات لم يصل صداها إلى حنان والوالدة داخل المنزل.

إني أشعر ببرد روحي كيف نجير برد الروح بغطاء الجسد؟ لا أدري كيف تُغطى الروح عندما تبرد؟ لم أشعر بهذا البرد منذ أن عرفت الله في سري، يثرب يليق بها أن تكون وردة لا تذببل أو ماء لا يجف ، هي من غطى جسدي محتضناً إياه، هي من غسل جسمي الذي أعياه الشوق وكأن ما ينقصه ثورة، على مشارف الروضة الشريفة غرقت في غيبوبة عشق لم أفق منها إلا وأنا أشكو للرسول ظلم الحياة من بعد رحيله، عطر النبي يتغلغل ثيابي يضرب عصب عيني، ما زلت قائماً بجانب الحُجرة والعممة مظلمة جداً داخلي، أسمع صوت شيءٍ يتحرك فيني لعلها روحي التي فترت من النضال وشعارات التغيير .(إبحث عن نفسك أولاً فالله لا يسكن البيوت .. الله يسكن القلوب) قال صوتٌ داخلي، اللهفة تفضحني ودموعي تبلل خدي ورسول الله يعاتب أمته فيني، ألا يكفي أننا هذا الجيل الذي ارتدى عباءة الدين بتفسير الحاكم خوفاً، فكان التضاد بين شعارات الحاكم والواقع يسير بنا قدراً إلى حد فاصل بين الشك واليقين حتى في ذات الله، بكى طويلاً قلبي الملتاع من لقاء الحبيب، أفف ساعات من غياب ميرير لتلك الروح التي أتعبتها تفاصيل الحياة وأنا رجلٌ مهزومٌ بحب ولا يملك إلا الانتظار على محطات الإيمان، يضع أمنياته بحياة بسيطة لا يدري كيف الوصول إليها، ولكنه عوضاً عن هذا يحمل في داخله إيماناً بالرب عسى أن يساعده فلا يسقط في هاوية لا عودة منها، صوته يتجلى في المكان قائلاً :

يا عبد قيمة كل امرئ حديث قلبه

يا عبد إذا رأيتني فالحل عندي وما سواه حرام

يا عبد إذا رأيتني فاهدم أوطارك وأخطارك

وعزتي لا يزول الخطر حتى يزول الوطر

وقفت مشدوه البال وال خاطر عبرت الكلمات ذاكرتي في لحظة ولادة جديدة
بزيارتي الروضة الشريفة ينتهي بردي القارص فتفيض روحي دون حياء من وجل
وخوف، أخذت أقيم صلاتي وأنا ممتلىء بالفرح هائمٌ أسير في معراجي صعوداً
إليه، كنت كالمجذوب أتخبط طريق الوصول، كنت أعلم يقيناً بأني على موعد
بقدرٍ جديد، تمتمت ببني وبين قلبي وأنا في إسرائي إليه بصلاة أتذوق حلاوتها
(اللهم يا حبيب جميع غريب و يا أنيس جميع كئيب أي منقطع إليك لم تكفه
وأي طالب لم تكفه برحمتك أم أي مهاجر هجر الخلق إليك فلم تقبله أم أي
حبيب خلا بذكرك فلم تؤنسه أم أي داع دعاك فلم تجبه) قضينا ليلتنا تلك في
حرم المدينة، تمدد أسعد بجاني مكوماً جسده الضخم ، تبدو عليه علامات
الأرق والتعب أغمض عينية في رحله موت مؤقت باسم النوم، و أنا بقلبٍ
واجف ووقفت أناجي ربي أنقمص هدوء مترنح مفضوح، عاجز أن أداري آثار
جروح نفسي الصاخبة، هذه يثرب مدينة الرسول عليه السلام و أي سلام
بينك وبين نفسك هذا الذي تبعته فيك تلك الزيارة؟ ململت أطراف روحي
وغزلت حيي لمعتدي في الرسول وسادةً أحط عليها تعبي، وجدت أن الحب
الذي ليس للحبيب ما هو إلا شعوذة قلب مجنون، نور الحب ما سطع كرهاً
للظلم وظلم حكامنا واقعٌ لا نُنكره، على مقربة مني ظهر خيال رجلٍ مُسن
شديداً بياض الثياب شديداً بياض الشعر، لا ترى عليه أثرَ نعمة الدنيا.. جلس
قبالي فأسند ركبته إلى ركبتي ووضع كفيه على كتفي ثم قال:

- النور المتسلسل من شقوق عتمك لا يكفي لإضاءة كامل روحك،
صمت المُسن قليلاً ثم

أخذ بيدي مبتسماً وهمهم يقول:

- نور الله داخلك لا يتوافق ورؤيتك الظلم على العباد فالإنسان يهتدي

بالنور عندما يجده، انهض مناهضاً بسيف الحق.

حاولت فهم ما يريد الشيخ أن يوصله لي إلا أن خياله تلاشى على حدود
حجرة الرسول كدخانٍ تسربل بين الشوق واللهفة، وقفت مشدوهاً بما أرى
وأسعد يتقلب نائماً، تذكرت حينها ما قرأته في كتاب أخبار الحلاج ما سطره
هادي العلوي الصوفي الماركسي عن إبراهيم بن أدهم استرجعت مقولته في
ذهني كأن حروف كلماتها أمامي.

«ومناهضة المتصوفة للعسكريين لا تصدر عن هواجس مثقفين ينشدون الراحة
من المعامع بل هي حركة مناضل ضد العسكرة والقمع الحكومي ضد
الظلم».

تذكرت تلك الكلمات وصوت آذن الفجر بحرم المدينة ضوء يتسرب بين
طيات الألم يقول أن بعد كل خيبة أمل، وبعد كل محنة رجاء، وبعد كل نزوة
مغفرة، ملم أجزاء أجزائك وسر نحو هدفك فالظلم ظلمات والصمت على
الظلم معاهدة صامتة مع الظالم.

سواء السودان عاجزة عقيمة لا تُمطر سوى النحيب مطراً مالحاً بطعم الدموع، ينزل على أرض جرداء لصحراء باهتة سقيمة من كثرة ما مرت به من إجهاض متكرر لحلم الشعب، المواطنون في بلدي بين عاجز وسقيم أصبحت الحياة مشوهة مثل وجوه الكثيرين في بلدي، لقد نقر الفقر مساحات من وجم وعبث بمعالم وجوههم ضحك العيش بمساحة مليون جرح نازف، ظل السؤال ينخر قلبي هل يفتقدني الوطن الآن؟ هل يبادلني نفس الشعور ونفس ذلك الأنين الذي أعيشه؟ اتصال حنان صباح يومي الثاني يأخذني كلي إليها. بعد سؤالي هذا

تجاوبني حنان عبر الأثير:

- إنفا حاله حنين عادية يا أحمد انت عارف إنك وأصحابك لم تروا بعضكم منذ زمن إلا في المواكب والمظاهرات من شدة قتامة الليل ورعشة الفقر المخيمة على الأجواء، لقد رحلت يا حبيبي عن بلد مسها كيد الأيام وعاث بها الفساد ألا يكفي أن تم قتل الحلم عن عمد ورمية في النيل؟ ألا يكفي قتل المحتجين السلميين في رمضان وأمام قيادة الجيش؟

أرد عليها وكابوس مجزرة القيادة العامة مازال أمامي:

- هل تعنين أني هربت في الوقت المناسب؟

تصمت حنان لبرهة وكأنه سرحت في الفراغ يكسو صوتها حسرة وهي تقول :

- لا أدري بالضبط. هل هو هروب أم رحيل من سوء، عمومًا هو لم

يكن اختيارنا، لم نكن بتلك القوة الكافية لنحدد قراراتنا في وطن على شفا حفرة من جنون.. جلوسك كان أولى محطات الوداع بموت أو باعتقال لا أدري ماذا يرمى لنا القدر إذا فضلت المكوث هنا!

تنهمر دموع حنان على خدي وأنا أعاني من إرهاق وحدي بغياها عني،
فقلت:

- كأنك كفرت به.. أليس هو نفس الجغرافيا التي شهدت حبنا يا حنان ولنا فيها مالنا من حنين وشجن، هل تذكرين أيام الاعتصام ومواكب تجمع المهنيين؟

صوت تنهدا يصل إلي حاراً مصحوباً بوجع:

- الوطن الآن لا يشبهنا، يلتحف سواداً قائماً أكثر من المعتاد، كل أيامه ليل لا فجر فيه أوقاته دامية تنزف مع كل شهيق، مشكلتنا يا أحمد أننا في وطننا غرباء.. نعم هو نفسه الذي شهد عفويتنا وحبنا للحياة وحرانا ومحاولاتنا للانعقاد من ظلم جثم علينا ولكن صدقني ليس هنالك من يرغب فيه الآن.

جذبني حديث حنان في كلماتها الصريحة عدلت من جلستي وتساءلت بيني وبين نفسي هل حقاً أحن له أم لذكرياتي فيه، أم هي حنان وست البنات وأسعد ابني الصغير من يشعلون في الشوق؟ نعم نحن هكذا دائماً ما نُغلف الأشياء بورق الحنين، نكذب على أنفسنا بحبه في غربتنا التي لا تبقي لنا شيء ندد به قسوتها سوى شوق كاذب، هي حنان من يعيدني إلى نفسي دائماً، كسبت نفسي بجوارها، علمتني حنان أن الحياة ليس مكاناً مناسباً للعيش إلا في وجودها، كانت الأيام في غيابها تمضي ببطء شديد لا ينقضي يوم حتى يضع فيني من الهم أثقالاً همست حنان في أذني:

- الوطن لم يعد كما كان لا تعد أبداً إليه.. فهو لا يشترق للمناضلين

والباحثين عن الحرية، قد أكون تحاملت عليه يا أحمد ولكن أليس من الصعب والمؤلم أن يكون كل ما تتذكره عن السودان هي تلك الأحداث المملوطة بالدماء؟ فض الاعتصام يا أحمد كارثة بحق.. جريمة لن تغتفر، جرائم الترويع والقتل العمد ومحاولة التخلص من جنث الذين خرجوا منادين فقط بحقهم في حياة كريمة ورميها في النيل أكبر من جريمة، الذكري هي كل ما تبقي لنا في الوطن.

تذكرت تلك الأحداث فبعد أن تعب الوطن من التغيير عبر الإصلاحات عديمة الفائدة مع ضيق رؤية الحاكم وتجبره وتبلد أحاسيسه وصل الوضع الدرك الأسفل، الحالة المتأزمة تُفجر ينبوع الرفض مياه تغذي المحرومين بضرورة الفعل، فلم يعد أحد يقوى على تحمل ذلك الضنك والهمل المتخمل، لا بد من حل جذري فخرجت الجموع منددة في عام الرمادة الثاني ديسمبر 2018، صوب الوطن فوهات بنادقه تجاه اليقّع من أبنائه، تذكرت الشهداء وأمهاهم الأصحاب والحبيبات، لقد لفظنا الوطن من جوفة لنبحث عن حرضن جديد، كم تمنيت أن يصمت الضجيج المتراكم داخلي والذي يخبرني بأن وطننا يذبح أبنائه هكذا تعيس، يصل صوت حنان قاطعا شريط الذكرى الأليم:

- القتل في السودان هو الشئ الوحيد الذي على نفقة الدولة، لا أحد يحس بوجع أمهات المغدورين يا أحمد. لا أحد يشعر بحرقه حشا من فقدت ابنها غدراً، فلجنة النظام الأمنية تؤمن بأن الحياة ملك لا يزول ونعمة السلطة لا تفنى بثورة، لذلك كانوا معاتبه يسكبون الدماء دون مراعاة لصرخات المسحوقين ولا لغمة حشا المغبونين

أقول في أسى: ولكني على أمل بأن التغيير

قاطعتني قاتلة بانكسار يشوب نبرتها:

- حبيبي انت عارف إنه وضع البؤس اللي بنعيشه الآن في السودان بتلاءم طردياً مع قهر المتسلط والنتيجة حاله الفقر والجهل المتجذرين أساسا في

الشعب، الاختناق السياسي، العمالة، الارتزاق، قلة حيلة المواطن كل الأمور دي بتدعو للحسرة والاكنتاب و.. وللهرب!

رمت كلامها بعد أن ضغطت على أحرف الكلمة الأخيرة، كنت أعرف حنان عندما يتسلل الإحباط مع صوتها فتصيبي عدوى البقاء وأعدو على شفا حفرة من اكنتاب، هي تريد أن تربط على قلبي بحديثٍ مُنمق، وأن تقطع علي فكرة الرجوع هي لا تريد من غربتي مألًا لوجهة اجتماعية مثل سائر النساء، كانت تبث حزنها لي وهي خائفة أن تفقدني مرة أخرى إذا قررت الرجوع تخاف أن تترمل وتموت بشوق حبيب، تخاف أن تضمني رصاصة جاهل في قبر، أو أسكن في معتقل دون رجوع، أذكر حديثها عن الاختفاء القسري والمصائر المعلقة في يد العدم كانت تخاف أن أغيب في غياهب الجب فلا تعرف مصيري في رحلة انتظار قد تطول، غلب على حديثها في الفترة الأخيرة قبل أن أقرر الحرب ذكر المغدورين والمختفين بعد المجزرة، تحدثت بحرقه عن كادر مؤتمر الطلاب المستقلين أحمد ضو البيت الذي طال غيابه حتى بعد الثورة وكسر صنم الحزب الحاكم، مر علي خيال مخلوط بذعر أحمد ضو البيت بشاربه الكث وقامته المتوسطة في تلك المداخلة بركن نقاش بساحة الجامعة، كان المتحدث باسم التنظيم أسعد باب الله يومها عندما عقب عليه ضو البيت بمداخلة خلاقة كانت نموذجًا بديعًا لإعمال العقل في كل شيء، يا إلهي لقد فقد الوطن إسهامات فكرية مقدره، لقد فقد رجل بمرته خبير، اختفى أحمد ضو البيت وترك غضه في قلوب الجميع، إلا أن أكبر فاجعة كان لأمه التي كانت بانتظاره لأكثر من عامين، لم تصدق غيابه وحلمت طيلة تلك السنوات بعودته حتى غادرت هي الأخرى الحياة على أمل أن تلتقي به هناك، إذ ربما وعلى الأرجح أنه قد سبقها إلى هناك، أفقت من تلك الخاطرة على صوت حنان:

- أحمد انت سامعني؟

- نعم حنان سرحت شوية أيوة كنت بتقولي شنو؟

- كنت أقول أن السودانيون تقضمهم خيبة الأمل من وطن يلوكون فيه الانكسار ممزوجاً بالصبر كل يوم، من شدة الهزائم المتتالية القهر يتكالب عليهم من كل حذب وصوب قهر ديني، قهر سياسي، قهر اجتماعي التسلط يا أحمد التسلط مهنة يمارسها كل الوطن كبار وصغار حتى من كنا نظنهم شركاء نضال ونبغتهم بحركات الكفاح المسلح الآن تمارس نفس القهر بل أسوأ، لا تفكر في الرجوع ابقى مكانك.

- انتِ بتحاولي تشويش الرؤية أمامي يا حنان.. لم أفارق البلد إلا منذ 24 ساعة لم كل هذا الحديث؟؟

ران صمت على سماعه المحمول بدّده صوت نجيب حنان في الجانب الآخر

- أخاف فقدك يا حبيبي أرجو ألا تفكر اطلاقاً في الرجوع، لجنة البشير الأمنية الآن لا تحسن سوى البطش والرقص على أشلاء المقهورين ولا تتورع عن إشهار سيف التهديد لكل من يهدد وجودها وتحقيق حلم والد رئيس اللجنة بتولي عرش السودان، هذه صفاتهم التي تشربوها بعضهم من بعض وسوف يورثوها لكل عضويتهم، يريدون أن يحكموا بالحديد والنار يقطفون الهامات قبل أن تينع، لقد كانت أعينهم عليك وعلى بقية الثوار ألا ترى كيف فتحوا المنافذ للمغادرين والقبور لمن رفض؟

دخل أسعد الغرفة بعد أن طرق عدة طرقات قاطعاً المكالمة

- يا حبيبتنا حاول نوم حبه وبعدين نتحرك لي جدة انت ما نمت مما وصلت

أشرت إليه بالإيجاب وصدى كلماته يصل إلى حنان التي قالت:

- انت ما نمت يا أحمد... لي كده؟

أجبت:

- والله يا حنان ما جاني نوم!! تعبان أبوة لكن ما قادر أنوم.
 - لا حاول نوم حبيبي الساعة عندكم كم؟ هنا الساعة 9:30 صباحاً
 - الفرق ساعة تقريبا هنا 10:30
 - حاول نوم حبيبي انت بتعاني ليك فترة طويلة من الأرق الأحلام المزعجة من أيام فض الاعتصام.
- ختمت حنان المكاملة وهي تمني النفس بلقاء قريب، وأسعد يتناول علبه دواء كتب عليها راملتيون (Rozerem) بيتسم لي ابتسامة ذات مغزى وهو يسكب ماء من القارورة البلاستيكية على الكأس، ثم وضعها على الطاولة التي في المنتصف قذف بقرصين في فمه وتجرع الماء مدّ إليّ علبة الدواء ابتسمت له مستوضحاً!

- أخذ ليك حبه ده منوم قوي

- قصدك مخدر قوي

قهقهة بصوت عالي وبدون أي كلمات تمدد على الفراش الذي بجاني في هذا الفندق المتواضع بعد أن رفضت قضاء بقية اليوم بشقة أحد أبناء الجالية السودانية خوف أن أشق عليه في الضيافة ، نظرت إلى أسعد الممدد أمامي وقلت في نفسي يبدو أن الحبوب المخدرة هي سلاح أسعد الأخير الذي تبقى له في هذه الدنيا لمحاربة الاكتئاب والأرق اللذان لازماه مذ فقد لأمه وناهد، يستخدم تلك الحبوب ليصرع سلطان النوم ويلتهم ظلمته ليُحلق بعيداً عن ذكرياته ، حاولت أن أغمض جفني مستدعيماً ملك النوم عسى ولعل أن أجد بعض الراحة لبدني، تمددت مستسلماً لعبث الغياب عن حالة اليقظة التي تتاب عقلي، محاولاً حجب الذكريات من أن تطرق رأسي، الجنجويد ومرترقه النظام يتوافدون أفواجاً و يحيطون بساحة الاعتصام لم تمض لحظات حتى نهضت مفزوعاً أردد هامساً:

- بسم الله لا حول ولا قوة إلا بالله ودموعي تنهمر بغزارة عاد الكابوس من جديد، الأرق يضرب بعنف على جدار الذكرى يمنعني من النوم، التمرد والرفض على حاله الظلم يزدادان داخلي، وأرى نفسي كأني جندي هارب خان عهده في معركة مصيرية وترك أصدقاءه هناك على خط المواجهة، أستغفر ربي.. أحاول بقدر الإمكان أن أسكن إلى نفسي من تلك التأويلات ونصيحة حنان يتردد صداها في الغرفة.

- لا تعد أبداً لا تفكر في الرجوع أبقي مكانك.

لم تُفلح الأدعية ولا قراءة القرآن في تثبيط نزيف الذكريات الحاد الذي أدمى روحي، الحزن أكبر من تراتيل مقدسة تردد على مكان الجرح ليُشفى، لا أدري لماذا تفرض الأقدار دائماً خط الهروب خلاصاً للألم كما رسمته من قبل لأسعد؟ تهمت في التفكير وأنا مستلقٍ على فراشي وشخير أسعد يضح في الغرفة وذكرى محمد الخاتم جار طارق دفع الله، تعيد سيناريو مخيف لحنان، وجدت نفسي أمد يدي متناولاً نفس عليه الدواء سكبت الماء من نفس القارورة على الكأس قذفت بقرصين داخل فمي وتجرعت من الكأس نفسة المرار ، نظرت إلى أسعد الذي راح في ثباتٍ عميق، وضعت رأسي على الوسادة وروحي تحلق في مساحات لا متناهية إلى تخوم مجهولة التفاصيل.

لقد أطلنا السجود نسيح بحمد الثورة ثلاثة وثلاثون ونكبر باسم الوطن أربعة وثلاثون ولكننا لا نحصد إلا الدماء التي تسيل في الشوارع، يبدو الصباح في بداياته وكأنه ينازع قتامة الليل ويستنكر مكوته الطويل، الظلام يتقهقر مجبوراً بين دفقات الضياء، نسمات الصباح طافية على سطح الأرض تغسل درن وذرائل الليل في هذه البلاد المعطوبة بفساد المسؤولين.

كان مساء أمس غارقاً في الخيال لم يعد محمد الخاتم للمنزل إلى الآن، بحثنا عليه في كل أقسام الشرطة والمستشفيات ولكن لا أثر له! تركت والده عم موسى وأخوة وائل الآن على مشارف الحي متوجهين إلى منزلهم، وتحركت صوب عوضيه ست الشاي التي تجلس عند رأس الشارع وفي داخلي هم ثقيل، صادقت محمد الخاتم بحكم الجيرة والانتماء لنفس قلعة العلم جامعة الخرطوم، إلا أنه كان هنالك ثمة اختلاف كبير في شخصية كل منا، انتماء محمد للحركة الإسلامية في اعتقادي كان أسري، إلا ان شخصيته تحمل كثير تسامح وفي نقاشاتنا الكثيرة التي كانت تجمعنا مع شلة الحي لم يكن متشدداً حزبياً بقدر ما كان مبدئي تجاه ما يؤمن به في فهمه للدين، اختفى فجأة كما خرج من عباءة تنظيمه فجاءة!

في بدايات نقاشتنا علمت منه أنه ذهب إلى الجنوب أكثر من مرة مجاهداً حسب تعبيره، وأنه ابن الحركة الإسلامية التي سوف تعيد للإسلام مجده من قلب أفريقيا، كان يتحدث وكأنه تلميذ من تلاميذ «يوسف بن تاشفين» أحد حكام دولة المرابطين في أفريقيا الغربية، هكذا خيل لي إلى أن تفاجأت به ذات

يوم في كلية الطب جامعة الخرطوم يقوم بتوزيع منشور يحمل اسم (هذا بيان للناس) توقفت قليلاً غير مستوعب ما تقع عليه عيني، أخذ محمد الخاتم يخطب في ساحة نشاط الكلية مقدماً انتقادات حادة للتنظيم الحاكم لم أكن أعرف إطلاقاً أن لمحمد موقعاً تنظيمياً مهم في حزب الكيزان، ولكن ما أدلى به من معلومات في البيان وفي حديثه الآن يوحي بأنه يتقلد موقعاً متميزاً، عرفت فيما بعد أنه كان يشغل منصب رئيس مجلس شورى الإسلاميين الوطنيين «حزب القصر» ويعمل أيضاً بمركز الشهيد الزبير ومنظمة الطلاب الوافدين ، كل ما كنت ألم به بحكم الجيرة وصداقة الحي بأنه ملتزم دينياً، حديثه في نشاط الكلية وكم المعلومات الهائل عن تنظيم الجهة الإسلامية أثار دهشتي، لم أنتهي إلى حزب سياسي ولكن مثلي ومثل أغلب أبناء جيلي الذين قاموا في كنف الإنقاذ وممارستها القمعية كرهنا هذا التنظيم لارتباطه فينا بالقهر الذي قمنا فيه .

في نهار أمدرماني منتصف شهر أغسطس كنت عائداً من عمل بالخرطوم، الشوارع خاليه من وسيلة ركوب واحدة ففضلت وكسباً للزمن أن أتحرك نحو المنزل راجلاً وكلي خيبة من وطن يمارس هوايته في تعذيب أبناءه، توقفت على مقربة مني سيارة اتوس سوداء أطل من زجاجها وجه مألوف لي كان محمد الخاتم الذي أنقذني من هيب شمس أم درمان القادم من الجحيم.

- أبو حميد كيف الأحوال كيف صحتك إن شاء الله بخير؟

كنت قد علمت من همسات قاع الحي أن محمد الخاتم يعاني من بعض الضغوط النفسية بسبب خيبات عاطفية متكررة، إلا أن الذي لا يعلمه أكثرهم أن الخيبة الأكبر كانت فيما آمن به من مبادئ، فأخوان الأمس هم الأشد عداً لمحمد الخاتم اليوم!

من خلف ابتسامة غارقة في المرارة أجاب:

- الحمد لله والشكر لله ماشي الحال.

- أخبار مشروعك شنو آخر مرة قلت لي إنك ح تراسل الوابيو في جنيف ؟

بدأت على ملاحظه بعض علامات الارتياح بهذا الحديث الذي يخلو من السياسة على ما يبدو، بالرغم من أن محمد الخاتم خريج علوم سياسية إلا أن اهتمامه بمجال الطيران كان واضحًا في كل مناقشاته معنا على قلتها فقد عمل على مشروع على ما أذكر في وقود الطائرات فللرجل نبوغ وذكاء لا يخفى على أحد.

- نعم أرسلت للمنظمة لإثبات براءة اختراعي الذي عملت عليه وأعتقد أن الموافقة سوف تكون بعد شهرين بمجرد ذهابي إلى سويسرا.

تناولت كوب الشاي من خاله عوضيه وأنا شارد بتلك التفاصيل، أشعلت سيجارة أخفف بها توتري مع نسومات الصباح تلك، أخذت قطعة من الزلاية التي تجيد صنعها صاحبة المكان وأنا أسترجع بعض الأحداث من الذاكرة لم أستوعبها حينها، فقد كانت هنالك سيارة كورولا تتبعنا لم أنتبه لها إلا بعد أن أطل محمد الخاتم النظر في مرآة السيارة الوسط وهو يقول:

- الناس ديل ما ح يجيبوها البر وأنا ما ح أسكت نهائي

نظرت إليه بفضول ماذا تقصد بقولك؟

انعطف محمد الخاتم بالسيارة داخل الحي وهو يقول:

- كوادر الأمن الطلابي منذ أن هاجمت التنظيم في الجامعة وفضحت علاقتهم مع المخابرات الأمريكية وإسرائيل وأنا تحت المراقبة.

ارتفعت دقات قلبي وانا ابتلع ريقى الجاف من حرارة الشمس التي كنت فيها قبل قليل وأخذت أتمتم ببعض الكلمات فهذا حديث ليس لي فيه شأن، صحيح أن عدد من أصدقائي في جامعات أخرى لهم ميول سياسية مناهضين

للنظام، إلا أنني وبسبب ظرف أسرى حاد قطعت عهداً مع والدي أنه لن يكون لي شأن بأي عمل سياسي في الجامعة، فيكفي ما وجد والدي من ضيق في العيش و إحالته للصالح العام في بدايات حكم البشير والتراخي بسبب هذا الانتماء إلى أن توفي حسرةً وهوان، مما سبب فوبيا لوالدي من العمل السياسي والعمل العام ، فضلت الصمت وأنا أتابع تلك السيارة التي أخذت نفس المنحى الجانبي الذي اتخذناه، كان صوت التنبيه (البوري) يقتل الصمت في هذا النهار الحار.. زاد محمد الخاتم من سرعة السيارة داخل الحي و خلفنا الكورولا تطلق تنبيهاتها لنا، توقفنا أمام دكان البرقاوي في الحي ومن خلفنا السيارة الأخرى تشق عاصفة الغبار التي خلفناها بسبب السرعة الزائدة، فضلت النزول بسرعة وأنا أشكر محمد على فضل الظهر في نفس اللحظة التي أطل منها وجه شاب من نافذة الكورولا وهو يقول:

- مالك يا محمد الخاتم ما عاوز تقيف لنا ولا شنو؟

- لا أبداً... ليه في شنو ما أقيف يا منتصر؟ حبابك.

تقدمت الخطى وأنا أحاول بقدر الإمكان إخفاء وجهي من الشاب الذي خاطبه محمد الخاتم باسم منتصر، أرخي سمعي وأسرع في التقدم ناحية مظلة دكان البرقاوي.. لم أستطع أن أسمع بقية ما كان بينهم من سجال إلى أن تحركت سيارة محمد الخاتم في اتجاه منزله وبقيت سيارة منتصر ومن بداخلها يطيل النظر إلى داخل الدكان الذي تحصنت به خوفاً وطمعاً.

انتهت على صوت خالتي عوضيه وهي تقول:

- شايك ده برد يا ولدي سارح وين؟

- لا ما في شيء.. أبتسم لها في ضيق أحاسبها على الشاي الذي لم أشرب منه سوى رشفتين وعلى صحن الزلايية الذي تناولت منه قطعة وحيدة.. ورحلت.

تذكرت تلك القصة التي كانت على لسان طارق دفع الله وأنا بشقة أسعد باب الله في جدة بعد مرور أسبوع من قدومي إلى المملكة، تذكرت حكايات الاختفاء القسري وخوف حنان علي من نفس المصير، فالنتيجة الحتمية كانت هي موت والدتي قهراً بفقدي بعد أن فقدت والدي في رمضان 1990 بسبب مشاركته في انقلاب عرف فيما بعد بحركة الخلاص الوطني، كان قد شارك فيها وأعدم رمياً بالرصاص مع آخرين وإلى الآن تتمنى أمي لو تعرف فقط مكان قبرة! والدتي لم تكن كوالده طارق برغم من أني وحيدها وجئت إلى الدنيا في سن متأخر بعد زواجها عملت والدتي على ضرب مناطق الألم فيّ وهيأتني لأكون في نفس مسار والدي. نظرت من بلكونة الشقة إلى الخارج سارحاً في مدينة جدة التي تقع غرب المملكة العربية السعودية على ساحل البحر الأحمر. كنت قد قرأت عن المدينة بأنها العاصمة الاقتصادية والسياحية للسعودية، وتعدّ الوجهة الأولى في المملكة للسياحة ومن خلال جولتي في الأيام القليلة الماضية بدى واضحاً أن هناك إجماعاً شديداً من مختلف الجاليات التي تقطن تلك المدينة أن يكون أفرادها قريبين من بعضهم البعض مما يسهل التواصل بينهم، ويخفف عنهم آثار الابتعاد عن الوطن الأم، أو هكذا خُيل لي، (لا شيء يضاهي الوطن) قلت في نفسي ومع فرط هذا الإحساس المتنامي لدى الجاليات الوافدة تم تقسيم المدينة إلى أحياء يتميز كل حي فيها بأسلوب حياة وثقافة في المأكل والملبس والمسكن، مذ الوهلة الأولى التي حطت فيها قدمي على بعض أحياء تلك المدينة أدركت أن جدة مزيج خالص لأغلب الوافدين من دول أخرى، فلم يتمكن سكانها من الجاليات المتنوعة من صهر ثقافتهم في بوتقة واحدة فكانت بعض الأحياء نموذجاً مُصغراً لبلدان بعينها، كانت شقة أسعد بحي غليل لا أدري لماذا اختار أن يسكن في هذا الحي المتواضع برغم أنه يعمل في وظيفة جيدة حسب علمي، ولكن عندما تجولت في الحي اتضح لي أن أسعد كان يبحث عن نفسه لا أكثر، حي غليل يقع جنوب المدينة أشار لي أسعد في أول يوم إلى مكان إقامته، ملامح الحي تدل على ساكنيه، الشبه بين الحي و بعض مدن السودان كبير، انتشار المطاعم

السودانية واللحم السواكني (شية الضأن) والطباخ السودانية هو السمه السائدة فيه، تجولت في محلات بيع العطور السودانية كانت ابتسامه الفتيات العاملات في الحنه تحاصرني من كل صوب وتساؤلات بعضهن تطاردني: شكلك جديد .. اتفضل ... شغال وين ...؟ داخل تلك الأماكن راجت تجارة العماري التمباك السوداني والعرقى بصورة سرية خوف السلطات، ساقطني قدمي مع أسعد صوب تجمع لترزبه الجلاليب السودانية وبجانها تراصت بقالات ودكاكين صغيرة لبيع المنتجات السودانية وخارج البقالة أو الدكان تراصت عدد من البضائع فول السليم بجباته المميزة، الكركدي، القضي، الشطة، وأنواع عديدة من البلح، والقونقليز، وجركانات زيت السمسم والفول، نفس الملامح لسوق أم درمان القديم، المنطقة تعطيك انطباع كاذب أنك في الوطن، تخفف عنك شعور الغربة مثل بنج موضعي تحتاجه لعملية كبيرة لا أكثر، جلست في صالة الشقة التي يسكن فيها أسعد وحيداً التقطت الريموت و أخذت أقلب قنوات التلفزيون بملل في انتظار عبد الباقي السيد المحاسب قريب أسعد من جهة والده، سياسي قديم هاجر إلى السعودية في أواخر الثمانينات فقد كان يعمل بوزارة التجارة في فترة رئاسة الصادق المهدي الأخيرة إبان تولي أبو حريرة لها، استرجعت ذكريات ليلة أمس ، حين التقينا به في مطعم العم بشير .. قال لي ونحن نتحلق حول الطاولة نتناول فول وكوارع مطبوخة على الطريقة السودانية:

- انت عارف يا أستاذ أحمد أنا بمجرد ما تم التضييق على محمد يوسف أبو حريرة وأجبر على تقديم الاستقالة بمكايادات سياسية، قنعت من خيراً في السودان وطوالي طلعت جيت السعودية دي.

نظرت إليه مستفسراً وأنا أرتشف من شوربة الكوارع

- بالمناسبة موضوع أبو حريرة ده شنو؟ عرفت من أسعد إنك كنت شغال في الوزارة في نفس الفترة.

أطرق الرجل للحظات ثم قال:

- في فترة حكم الصادق مرت على السودان أزمة سلعة السكر كانت بدايات أزمة لم تنفقم بعد وفي الغالب كانت أزمة مُفتعله، كنا في وزارة التجارة على علم بممارسات بعض رجال الأحزاب المشبوهة وبالأخص المحسوبين على الجهة الإسلامية القومية، فجأة وقريب مناسبة المولد النبوي الشريف جاء عدد مقدر من التجار للوزارة ومن بين التجار ديل كان في بعض من منسوي الحزب الاتحادي الديمقراطي حزب أبو حريرة نفسه، الجماعة ديل طالبوا بكميات كبيرة من السكر لصناعة حلوى المولد اجتمعنا معاهم وقلنا ليهم اكتبوا طلباتكم في خطابات مع تحديد الكمية العايزنها لكل واحد فيكم ونحن نرفعه للوزير

انطلقت ضحكة حسرة من عبد الباقي وهو يقول:

- والله دي كانت محاوله تكويش عديل كان احتيال، احتيال باسم مناسبه دينيه، ياخ في تجار أنا بعرفهم عديل تجار سوق سوداء ما عندهم مصانع خلي مصنع حلوى للمولد كان واضح إنهم عايزين يشيلوا السكر لتخزينه والتحكم في سعر بيعه بالغاللي!

فتحت عيني في دهشة انطلق تساؤل من أحد السودانيين الجالسين بالقرب منا والجميع يرخي سمعه للمتحدث بفضول كواحدة من أهم عادات وتقاليدهم الشعب السوداني المشاركة في كل شيء يخصك رغم أنفك.

- الكلام ده زمن الديمقراطية يا شيخنا

- أيوة

- طيب وتقولوا لينا الكيزان خربوا البلد!

لم يرد عليه عبد الباقي السيد فقط رمقه بنظرة استخفاف وواصل في سرد بقية القصة وبقية الأذان تنصت في صمت.

- لمن قعدنا مع الوزير أبو حريرة وافق على كل الطلبات وبالكميات المكتوبة لكل شخص طبعاً نحن احترنا خالص، لكن الوزير قال أدوهم ، بس طلب مننا إننا نوجه جميع التجار بإيداع مبالغهم المالية في حساب الوزارة ثم يتم تسليم البضاعة، وفعلاً الجماعة ما صدقوا من صباح الرحمن مكتب المحاسبين ده شغال يستلم المبالغ ويسلم التجار وصل استلام البضاعة بعد ثلاثة أيام. وانطلقت ضحكة تهكم قوية من فم عبد الباقي وهو يقول:

- الراجل ركبهم ليك ماسورة ست بوضة لمن مشوا يستلموا السكر وجدوه سكر سائل يصلح فقط لصناعة الحلوى ولا يباع في السوق الأسود!! انطلقت ضحكات الجميع وصيحات الحماس تتعالي بفرح حقيقي وكأن الحدث في الوقت الحالي وليس حكي لتاريخ حياة شعب مثل النرد واعتقد ان ابو حريرة تم التصديق عليه لهذا السبب وأسباب اخري تتمثل في تصدير الضان. انقطع حبل الذكرى على صوت رنين الجرس وطرقات على باب الشقة

- اتفضل الباب فاتح..

يدلف أستاذ عبد الباقي السيد بقامته النحيفة وطوله البارز يرتدي بنطلون بني محروق شارلستون وقميص أقرب للون الشمام البلدي عليه خطوط ذهبية، ذو لياقة كبيرة

(تخمني منك) مع حذاء بني أنيق لامع كانت تسريحة شعرة خنفس منفوش وشاربه كأنه رك على وجهه فجاءة، نقطتين فقط أمام فتحتي الأنف، عندما تشاهده للوهلة الأولى يتتابك إحساس بأنه سقط فجأة من سبعينات القرن الماضي في هذه الألفية، وقف أمام الباب وقال بحركة درامية قبل حتى أن يلقي التحية..

- عندي ليك مفاجأة

وقفت أنظر إليه مستفسراً فاتحاً فمي غير مستوعب حديثة ومستغرباً أين وجد تلك الملابس في هذا العصر؟! من خلف الباب ظهر جسد رياضي ممشوق وسيم التقاطيع يبدو على وجهه بعض الحزن، غطت لحية كثة ذقنه الأسفل توزع عليها بياض خفيف مما أضفى نحة وقار على الحيا، زيتت ابتسامته كامل حضورنا من خلفها ظهرت أسنان ناصعة البياض نظر إلي فاتحاً ذراعيه ... وصوت فخيم يخرج منهأحمد أمين الصادق

وجدت نفسي أصرخ بأعلى صوت

- لا حولاً!!!!!!!!!!!!!!!!!!!! معقولة، أخطو مترنحاً من المفاجأة أستقبله بأحضان ودموع، جمال عبد الرحيم يا!!!! ربي الدنيا دي ضيقة خلاص ...

جمال عبد الرحيم جارنا في الحي خريج مدرسة العلوم الرياضية جامعة الخرطوم، يكبرنا بحوالي 3 سنوات مثقف ولاعب كرة قدم بارع، تزوج من أجمل بنات الكلية سحر أدهم أنثى يتعثر القدر أمام جمالها، فارهه لها غنج ودلال، لم يكن جمال عبد الرحيم بأقل منها وسامة وحضور أنيق طيب الحديث مهذب، هاجر بعد زواجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية لا زلت أذكر حديثه

- أمريكا أرض الفرص المتاحة للجميع، تقع حيث تغيب شمس الشمولية والقمع، مشوقة ومثيرة مثل أنثى ناضجة الأمريكان الشعب الذي رضي الله عنهم.

اندفع جمال ناحيتي بالأحضان والدموع تبلبل خده

- أحمد أحمد أمين الصادق يا!!!! ربي، والله لمن كلمني أسعد ما صدقت، أحمد طلع من السودان معناته نقنع من خيراً فهو تب.

في لحظة شعرت أي في أشد الحاجة لعاداتنا كسودانيين حيث زرع فينا الحنين والحزن الدائم وراثه حتى في عز حالاتنا طرباً. نطرب بالمواويل الحزينة وفي لقاءتنا في أفراحنا تنهمر دموعنا تنسكب مالحة على خدودنا أتذكر جيداً يوم عُرسى

و بُكاء والدتي الذي أبكي كل نساء الحي، وهي تحتضني وتهمس لوالدي بأني صرت عريساً ، نحن شعب يتلذذ بالألم ولا يكتمل الفرح عندنا إلا بالدموع ، كان احتضاننا أنا وجمال قاسياً له نجيب، ترجع بنا ساعة القدر لتتجرع شجون الذكرى وأحلاماً تركناها على حين أمل ، خلفنا وقف أستاذ عبدالباقي السيد يُغالب دموعه من السقوط و تتجسد له سنوات غربته شبحاً يطارده ، جلس جمال على الأريكة التي خلفه يمسح وجهه بديه ويقول:

- والله لمن عرفتك في المملكة قلت لازم أصلك آخذ إجازة عديـل وجيت من الرياض

جمال رجل بمعنى الكلمة لا أنسى إطلاقاً مواقفه مع الكثيرين، جلست بجواره وأنا أربت على كتفه هممت بسؤاله عن أولاده، إلا أن عبد الباقي قاطعني مُستفسراً عن أسعد فقلت:

- أسعد مشى الشغل قال عنده اجتماع هام مع الكفيل.

قلت تلك الجملة وأطلقت ضحكة عالية محاولاً تبديد جو الحزن الذي غشيننا، عقبته ضحكتي قائلاً:

- والله كلمة كفيلي دي (شينه) عديل تديك إحساس ما كويس نهائي ذي صقري كدا.

قهقهة جمال بمرح وعبد الباقي يكتم الضحكة بانته على ملامحه، لازال جمال بنفس المرح القديم ونفس الضحكة وحب الحياة برغم هذا التغيير الذي طرأ عليه من لحية وجلباب أبيض مرفوع إلى منتصف الساق، لم أحاول أن أستفسر ماهية ذلك الآن، إلا أنني سألته:

سحر كيف بالله يا جمال معاك هنا موش؟

من خلف ضحكة مريرة كان جوابه:

- لا أنا انفصلت يا أحمد ما عارف

فتحت عيني في دهشة.. رد بضحكة ساخرة كعادته دائما السخرية من كل شيء

- ده موضوع طويل ح أبقى أحكي ليك قريب إن شاء الله، المهم انت كيف صحتك والحاجة كيف ست البنات؟ وسمعتك إنك تزوجت وعندك ولد ياخ ده كلام جميل خالص بسم الله ما شاء الله.

أجمتني الصدمة بخبر انفصالي عن سحر وقصة حبهم الوردية ظللت شمس القهر في الوطن، كانت حديث الجميع قلت بأسى وأنا أحاول أن أداري الخيبة التي أملت بي بما سمعت:

- أيوة والله إتزوجت حنان بتكون شفتها يا جمال أعتقد إنك صادفتها في أواخر أيامك بالسودان.

- أيوة بتذكر كنت بتجينا السنتر معاك بت صغيرونة كده، قال كلامه هذا وعلى شفته ابتسامه وديعة نظر إلى أعلى ثم أردف قائلاً: لكن شكلك كنت بتحبها شديد.

- وإلى الآن يا جمال إلى الآن.

- ربنا يحفظكم يا رب العالمين

وقف أستاذ عبد الباقي وتحرك إلى الخارج قائلاً:

- يا جماعة خلونا نحصل المدرسة الماشين ليها دي الناس ديل عندنا معاهم مواعيد الساعة 10 يا أحمد للمعاينة ومقابلة المديرية.

- يا مسهل..... خبط خالد على ركبتيه بكلتا يديه ووقف قائلاً بإذن الله ح تعدي وتكون بداية موافقة يا أحمد.

- قلت في سري: يسمع منك الله

أغلقت باب الشقة خلفي ووضعت المفتاح أسفل السجادة وتحركنا، وخلفنا نهر جار من الحين لا ينضب وسحابه مطر ملبدة بالهم والارق هطلت علينا مخلّفة ندوب وجروح متباينة، غدر ناهد وانفصال جمال وتخبط الحكام، عندما وضعت جسدي على الكرسي الخلفي لسيارة عبد الباقي المرسيديس 124 بادري جمال بسؤال:

- متذكر آخر مرة إتقابلنا فيها يا أحمد؟

لم تسعفني الذاكرة ظللت أنقب فيها عسى أن أجد تلك اللحظة متدثره تحت طي من الأحداث أسعفني السائل قائلاً:

- آخر مرة تقابلنا في بيت طارق دفع الله في امدرمان مدينه النيل لو تتذكر ...؟

هل هي صدفة أم أن القدر يمارس هوايته القديمة معي في لعب النرد؟ فقد كنت على موعد في الذاكرة بطارق قبل لحظات، لقد تعلمت من الحياة على بطشها أن قانون الصدفة ليس له وجود وأن ما يخطر ببالك ما هو إلا ترجمه للذات.

- تصدق قبل شوية كنت بتذكر في طارق سبحان الله.

رد عبد الباقي مع اهتزاز لرأسه وهو ينحرف بالسيارة إلى الشارع الرئيسي:

- كان تتذكر ليك قروش، أعقبها بضحكة كان أقرب لمهرج من شخص خفيف الدم

فتحت فمي في دهشة وأخذت أردد في نفسي:

- لاحول ولا قوة إلا بالله هذ ليس موضع المقولة المناسب! يبدو أن الغربة أو الكبسة قد أثرت على عقلية المقيمين هنا، غربة الخليج تغييرك كثيراً، تغيير مزاجك وشخصيتك يمكن أن تضيف لك أمان كاذب ولحظي ولكنها

تأخذ منك عمرك شبابك حتى أحلامك الكبرى، تعيش بشخصيتين لا أنت سعيد قادر على العيش فيها ولا أنت تستطيع الرجوع لوطنك، إنها دائرة لعينه تفقدك نفسك، ابتسمت لهم دون رد وجمال يتحاشى ذكر اسم سحر في حديثه ويحجب تلك الأحداث التي كانت تجمعنا بها، إلى أن ذكر اسم محمد الخاتم جار طارق دفع الله الذي كان أمر اختفاؤه المفاجئ مسار حديثنا يومها!

مشكلتنا أن النسيان محض خيال وأن قلوبنا أصبحت مليئة بالندوب التي تسرد محطات فشلنا الكبير ، وما بين محطة وأخرى نجد أنفسنا نقفز على صراط مقطوع وتحت حفرة من تيه في رحم الوطن ، نلح بالمغادرة خوف الوقوع في الجُـب و دول الخليج فرصة مثاليه للهروب من وطن يتفنن في إوجاعنا ، أكثر ما يؤرقني الآن هو حنان وابني ووالدي الذين تركتهم هناك مع نبي آخر دفن كتابة على مقربة من مَجْمَع النهرين ومضى لاحقاً حسابه بعد أن تنازل عن رسالته طوعاً ، أتذكر وجه حنان في ذاك اللقاء الذي جمعنا في البدايات مع آخرين في ساحة النشاط بالجامعة، كان شتاءً مختلفاً في قسوته تذررت أنا بكتاب شيخ انتا ديوب الأصول الزنجية للحضارة المصرية عسى ولعل أن يبعث داخلي جذوة من نار تعيدني لسيرة أجدادي الأولى ، حنان ابنه التاسعة عشر ربيعاً قمحية تميل إلى القصر قليلاً مقسمة الجسد من تحت عباءة سوداء، لها وجه مستدير وأنف شامخ وعينان واسعتان في توافق تام مع ملامحها الرقيقة يهطل شعرها أسفل غطاء الرأس شلال من ليل، تزلت بابتسامه رائعة وروح مرحة نفتت من روحها تلك في جسدي فاستيقظ حلم آدمي سجدت له الأفكار بأمرها ، تلك الأنتى البركان فاتنة حد الذوبان منذ هذا اليوم وقلبي لا يهدأ من التفكير —ها وهي تعثرت بنظرات حبي لها ، أتذكر دائماً حديثها عن المجتمع والتخلف يومها نظرت إلي بطرفٍ خفي وهي تعلن تمردا الأخير، عضت على شفيتها السفلى ورسمت ابتسامه التي أظهرت وجنات خدها بجعل وهي تقول :

- انت عارف يا أحمد الذكورية الانت قاعد تنكلم عنها دي في مجتمعنا

ما مرتبطة بالذكر فالوعي الذكوري ووعي جمعي، لذلك يكون عند الطرفين مقدار منه يختلف حسب خصوصية الأدوار.

نظرت إليها وداخلي رغبة في معرفة ما يدور في عقل تلك الأنثى النبيل، نظرت لي بتحدٍ وهي تقول:

- يا عزيزي الذكر والأنثى في مثل مجتمعنا محاطون بظروف موضوعية ضاغطة متعلقة بدورهم في المجتمع، وضعت رجل على الأخرى ثم استرسلت قائلة:

- علاقات مجتمعنا شائكة بفعل الكبت وغموض الجنس، وبالنسبة للكثيرين فإن التوصل إلى صيغة تكافؤ نفسي وجنسي في العلاقات أمر في غاية الصعوبة.

كانت عيناها تشع بفرح طفولي بحق لم أناقش أنثى في مثل رجاحة عقلها حتى وهي ترسم على ملامحها الجدية كانت تبدو لي طفلة حاملة، واصلت حديثها ضاحكة وكأنها تعرف ما يجول في خاطري من حب بدأ يتدفق قطرات مع سيل كلامها:

- عشان كذا علاقات الحب والزواج بتكون مليئة بكثير من الفخاخ والخلافات البتساهم في اخراج المكتسب الذكوري، بالمناسبة المكتسب الذكوري من الطرفين ما من ناحية الولد بس كما ذكرت لك.

لقد نثرت حنان حولي تساؤلات كبيره، أنثى الرسالة دين من فكر وجدل لم أتمالك نفسي وأنا أرى فاتنة بتلك اللغة، أنثى بفكر وطعم المعرفة وأنا رجل الأفكار الراديكالية أعيش منذ زمن بعقلٍ معطوب وحنين للماضي وصراع الطبقات، أرخت حنان أجفانها تناجي الرب من وحي الفكرة شاردة في ملكوت الصلوات، ترسم خارطة وطن لنساء القهر والحرمان فجأة قالت:

انت عارف ذكورية المجتمع بتتساوى بين الرجل والأنثى، فازدواجية المعايير عند

المرأة السودانية والشرقية عموماً بتتمثل في موضوع امتيازاتها كأنثى في مجتمعنا لحظة الارتباط والحب، وتتكون عايزة حبيبها يشتريها بمهر وصاله وعرس وفستان وكل الطقوس المعروفة دي والتكافؤ والمساواة ممكن يكون طبيعي من ناحية الشعارات لكن في أول محك بتظهر كلمة انت موش راجل اتصرف.

أعجبتني حنان بجدة ذكائها وبابتسامتها وتلك الوجنات التي رُثمت على خدها، عينها تشع ذكاء تبهر الشمس هناك ، كانت تمسك بكفها على قضيتها كأنها تخاف عليها من التوهان في تلك الجموع من الأفكار الغبية التي سيطرت على الجميع ، وضعتني حنان في وطن آخر غير تلك الأرض التي آتيت إليها منذ زمن، ومن تلك اللحظة عرفت أن حنان شريكة المشاوير والعذابات في هذه البلاد ، ذكرى حنان تتكاثر وحمي التفكير توجع الأطراف أنا رجل الاحباط الداخلي جنت من عامة الشعب لدي كل شيء سوى الحلم بوطن، نهار السادس من أبريل 2019 الخرطوم تتربص بنا من كل صوب، كُنّا مجموعته أمام مكتب معتصم سليمان بالسوق العربي الخرطوم همس عمار علي مبدداً لحظات الانتظار ومعاتباً تجمع المهنيين الذي أشار في بيانه الأخير بضرورة توجه الجموع إلى القيادة العامة قال: إذا عبرنا إلى القيادة هل نعد هذا انتصاراً لنا؟

نظرنا إليه مستفسرين، قلت محاولاً تبديد مخاوف عمار:

- لم يعد أمامنا خيار، المواكب لها أكثر من ست أشهر وآلة القتل تشهر في وجوهنا يومياً إذا لم ينحاز الجيش للشعب فإن الثورة سوف تكون دوامة لا نهاية لها.

أشاح عمار بوجهه عني وقال:

- صدقوني إنها القارعة التي ضربت الوطن من قبل ذلك مرتان مجهضةً الحُلم والتضحية قيادات الجيش لهم تقاطعات واضحة مع النظام ومخابرات دول أخرى، صدقوني لن يكون انتصاراً، وحده الشعب يعلم دوماً ما داخل غيب الاوطان ويعلم ما بأرحام الثورات ألم يُلَقَّح الوطن مرتان قبل هذه؟ فكان جينياً

مشوهاً بفعل نفس الانحياز، يجب أن تعلم هذا أنه ليس انتصاراً.

عم الصمت على الجميع ومخاوف عمار علي تتخلل الوجدان، وجدت نفسي أطرّد تلك الهواجس وأجلس بالقرب من حنان أستفسر منها هل اتصلت على والدي لتطمئن على أسعد ابننا الصغير جاويتي:

- هو بخير المهم أن يكون الوطن بخير لينعم أسعد وجيله بإنسانيتهم.

لدقائق ظللت أتمعن وجهها الأسمر بنور الطين ألعن الظلام وأجتر مرارة الحرمان أخبئ فضيحة خوفاً من القادم بيدي، تتسربل كلماتها مثل أشعة الشمس كاشفة عورتي واختلافاً، عمار علي هذا اللئيم لقد فتح داخلي طاقة من شك بلجوننا للعسكر وإجبارهم على الانحياز خيار الشعب، كنا في انتظار زغرودة البداية وحنان تتقرص أمامي أنثى من حب ورائحة إيمان بقضية، أخذت أتمتم في نفسي محاولاً بث الطمأنينة فيها:

- الشعب وحده يعلم ببواطن الأمور فلا الجيش ولا الحاكم يحدد ما يريد، الشعب فقط من ينفذ عنه الرجس ويتوسد صلاة التحرير.

تبسّمت حنان في دلال يتنافى مع الموقف بعد أن سمعت مناجاتي تلك وشدّت على يدي، صمت رهيب يطبق على الجميع وكأن الوطن حبس أنفاسه في توتر يتربص مع المتربصين، تزداد ابتسامة حنان مع مضي الوقت والخوف من الجهول كابوس يتجسد أمام الجميع، أهم أن أقرأ حركة الثوار المتربصين أمام برندات السوق العربي، الصمت المرعب هو العنوان الأبرز وسط الخرطوم مع قلة الحركة، بعض السيارات والراجلين "توقفت عقارب الساعة لم يستطيع الوطن الآن أن يتمالك أعصابه، فأخذ يشد ما تبقى من شعبه نحو الخروج.. الأمر الذي دفع عددًا من الثوار لتهدئته ومساندته، تبقت لحظات ونصيح بالهتاف اتجاه القيادة العامة مطالبين الكاكي بالانحياز.

- صدقني لن يكون هذا انتصار ولكنه مسار المبور*....

عاد صوت (عمار علي) مرةً أخرى ينخر ما تبقى من صبر، هرولت بوجع قلبي إلى صور الشهداء التي تراصت على جدران السوق العربي تحكي مسيرة الثورة منذ اندلاعها الأخير، لهفي عليكم لهفة تلقفنا بعدكم، ما زلنا ننتظر في المكان ساعة الصفر، ها هي أوها منا تتجسد أمامنا نحن العُراة كما الفضيحة، الآن نلوذ بالجيش نطلب الستر لدمائنا التي روت أرض الوطن*، ومع أول زغرودة همست حنان في أذني وهي تقبض على يدي وتعابير وجهها تدل على ما يكمن داخلها من شك:

- صدقني يا أحمد المتغطي بالكاكي عريان، ولكن من يدري لعل الثورة تُحدث بعد ذلك أمرا*

نظرت إليها بحيرة ودهشة خاصة وأنا رجل لا يملك من تلك الاجابات القاطعة شيء، أظن أن القادم مبني على حكمة مقولة حنان وتخوفات الأخ الأكبر عمار علي، من يدري ربما هذا أول الخيط لما بدأناه وله آخر سنبلغه ولو بعد حين، في نهاية الأمر رميت دهشتي تلك وهتفت مع البقية المتوجهين صوب القيادة العامة:

حرية سلام ... وعدالة ... الثورة خيار الشعب

- مقال لمعاوية بشري (ماو) معالج

الثورة كامنة فينا تخدم ثم تتفجّر ولكنها لا تموت. تمامًا كالحب، هو كامن وإن لم تشعر به، يومًا ما يحيا فيك وتحيا به، الحب يجعلك تقوم بأشياء لم تكن تتخيل أن تقوم بها في يوم من الأيام، تمامًا مثل الثورة، بين الحب والثورة قواسم مشتركة، منها أن كليهما ينهض على توقٍ لتجاوز حالٍ قائم إلى حالٍ مُشتهى. إن أصحاب الثورة غالباً ما يُداسون تحت أقدام تلك الثورات التي تصيبهم بإحباطات لا نهائية.. وقاصمة أيضاً! كما يُداس العاشق تحت أقدام الحبيب ونار المهجر، الحب والثورة وجهان لحلم واحد. وهذا كان حالنا أنا وأسعد وجمال كنا نتجرع مرارة الخذلان معاً كلاً على شاكلته دوساً تحت أقدام الحلم إن كان بوطن أو أنثى. ثلاثتنا يواجه الوطن بانفعالاته المختلفة، كنت مُعبأً بالمرارة تجاه السودان أما أسعد فقد أوصلته تجربته للخوف من اسم الوطن وأما جمال تجاوز مرحلة التردد إلى الشك في قيمة الوطن. صوت رنين تلفوني يقطع سيل ذكري الأحداث وسيارة عبد الباقي تندرج على الطريق بمهل.

- أيوة يا أسعد، نعم نحن بخير

- اتحركتوا على المدرسة

- أيوة في الطريق

- طيب ممتاز ح أقابلكم هناك قريبوا ولا لسه

- والله ما عارف لحظات

أبعد التلفون عني قليلاً وأسأل السائق

- فاضل لبنا ككبر؟ أسعد عاوز يقابلنا هناك.
- برء عبء الباقى بعء أن أفسح المبال لسىارة كانت مسرعة خلفه وصوت تنببها المزعب ىخفى صوتى
- قربنا قول لبه 5 ءقائق ونكون فى المءرسة
- أوصلء المعلومء لأسعد الذى أغلق الءط سربعاً ءون ءعقب ببءو أنه فى الطربق وبخاف أن ءسجل ضءه مءالفه اسءءءام المءمول بببما هو سائق؁ ءءء إلبى بمال مواصلاً ءءبءة عن مءمء الءاءم:
- بعء سافءء أمربكا وفى زءمة ءءألم وبءابءة ءبءة ءبءة هناك؁ بالصبءة على مواقع الأخبار السوءانبءة صاءءء ءبءر اءءفاء مءمء الءاءم ببا أءمء وعرفء إنه ءءى اللءظة مءءفى وكنء قابءءه فى آخر لقاء ببعبنا بمبزل طارق ءءع الله كنء ءء ءعرفء علىه معرفه عابره و.....
- ءءء إلبنا عبء الباقى السر مقاطعاً ءءبء ببال:
- مءمء الءاءم ءه مبو
- عءءء مب بلسءبى على المققء الءلفى وقلء:
- ءه كاءر مب كواءر الكببزان ءرس فى بامعة الءرطوم كان بار لصاءبنا طارق اءءفى فجأة بعء ءلاف مءهم فى البامعة وما زال مءءفى.
- رء عبء الباقى بسرعة:
- بكونوا قءلوه.
- وارد طبعاً
- الءرف عبء الباقى بالسبارة مرة أخرى ءبءه شارع فرعى وهو برء على ببال:

- لا ما وارد ده أكيد

حاولت أن أخرج الحوار من مغالطات لا أدري ما أبعادها بين جمال وعبد الباقي:

- من الواضح إنه محمد الخاتم مات تحت تأثير التعذيب الأمر الذي أدى إلى تمويه اختفاؤه

أكد حديثي جمال هذه المرة وهو يقول: -

- ما في تفسير منطقي خلاف كده لقد تابعت كل ما كتب عن قصة الشاب وما سرده فتحي الضو في كتابه (بيت العنكبوت) أعتقد إنه موته هو أصح استنتاج

قلت:

- واضح اغتيال محمد الخاتم بيد اخوانه في التنظيم، وهذا ليس استنتاج لكن من خلال ربط الأحداث مع بعضها، قضية محمد الخاتم وصلت إلى نائب الرئيس يومها علي عثمان وإلى عمر البشير شخصياً، وتم تكوين لجنه لمتابعه أمر اختفاؤه وتم قفل القضية بعد صمت الأسرة تماماً أليس هذا الأمر يدعو للشك في

هذه المرة قطع عبد الباقي حديثي رافعاً حاجبيه قائلاً:

- يا أستاذ شك شنو ... الناس ديل قتلوا الشاب ده ما في كلام، بس الحاجة المفترض نوصل ليها في الموضوع ده إنه الكيزان ديل ما عندهم خوّة، هم في نفسهم أعداء أي تهديد لمصالحهم.. ولو جاء من أقرب الأقربين بصقّوه. ده ما تنظيم دي مافيا وانت شفت عملوا شنو في الشباب ده لمن يختلف معاهم!

لقد صدق عبد الباقي تماماً فيما قال ديل مافيا كانت تحكم البلد بعقلية

العصابات، لقد فتح عبد الباقي بحديثه هذا قريحة جرح أحاول بقدر الإمكان تضميده وذكرى فض الاعتصام تناورني من جديد.

- وصلنا

أشار السائق إلى مبنى كبير من ثلاث طوابق عليه سارية طويلة ربط بها علم المملكة العربية السعودية، رفعت على سطح المبنى لافتة كبيرة كتب على أحد أطرافها المملكة العربية السعودية _ وزارة التربية والتعليم. وبالأسود العريض تم خط مدرسة المنار الابتدائية الخاصة تأسست 1438 هجرية. ترجلنا من السيارة بعد وقف

المبنى فخم بحق وكأنك أمام وزارة وليست مدرسة ابتدائية، ترتيب الفصول، ساحات المناشط الرياضية، الزي الموحد للتلاميذ، نظافة الممرات والتكيف المركزي، انتابني إحساس بالقهر و أنا أتذكر مدارس بلدي.. أفتقد الآن وطناً أخجل منه، نتحجج بقله الإمكانيات كم أكره أنانية الساسة في السودان! سرحت في لوحة كبيرة موضوعه داخل صالة الانتظار التي جلسنا فيها كانت زخرفة الكلمات بالخط السوداني

إِهْمِي لَا تُعَدِّبْنِي ... فَإِنِّي مُقِرٌّ بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنِّي

وَمَا لِي حَيْلَةٌ إِلَّا رَجَائِي ... وَعَفْوُكَ إِن عَفَوْتَ وَحَسُنَ ظَنِّي

فَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ لِي فِي الْبَرَايَا ... وَأَنْتَ عَلَيَّ ذُو فَضْلٍ وَمَنْ

وقفت أنظر إلى اللوحة بتمعن أستمتع بجمال الخط المكتوبة به تمتت في نفسي: إنها آخر كلمات أبي العتاهية «شاعر الزهد العربي» في مرضة، ولكن من كتبها بهذا الخط؟ الخط السوداني خط نادر الكتابة به في اللوحات بالأخص في الخليج فقد اشتهر هذا الخط في أفريقيا تحديداً غربها في مالي ...

- ما تجلس يا أستاذ أحمد

كان صوت عبد الباقي السر من خلفي يأتي محرّجاً انتبهت أنني واقف أمام الحائط الغربي للصالة الواسعة، وقد تراصت عليها كراسي جلوس أنيقة بلون أسود لامع وسجاد إيراني يمتاز ببساطة رسومه وحرارة ألوانه، وضعت قدمي عليه فإذا به مخملي الصوف.. قلت بدهشة:

- يا إلهي!! هذا استقبال مدرسة ابتدائية فكيف قصور الأمراء إذن؟؟

- اخفض صوتك.. فضحتنا!

عبد الباقي قال كلماته تلك وأعقبها بصحكة ساخرة، جلس جمال مولياً ظهره للباب الذي كتب عليه الإدارة، فيما كان عبد الباقي مقابل اللوحة التي كنت مشدوهاً أمامها قبل قليل، جلست بالقرب منه في نفس اللحظة التي فتح فيها باب الإدارة على حين غرة، خرجت منه فتاة في مُقتبل العمر وقالت بنبرة مهذّبة:

- المديرية في انتظاركم.

ولم تزد. ثم أفسحت المجال لنا و رمقتني بطرف عين، تصلب كياني كله وفتحت فمي في بلاهه لم أعتدها في مثل هذه المواقف، ومرة أخرى يتلاعب بي القدر ليقيس مدى صلابتي، يرسم لي خطوطاً غير تلك التي أتوقعها وأنا رجل لا يسهب في أحلامه بأنثى فقضيتي كانت واضحة.

- يا أستاذ أحمد تحرك معاهم.

دفعني جمال من كتفي منبّهًا، وقفت بعد أن أشاحت الفتاة بصرها عني وتقدمت ناحية المكتب ونحن من خلفها، بينما بقي جمال في صالة الانتظار. كانت تتقدمنا بخطوات هادئة ونحن نتبعها بينما أردد في نفسي: يا الله! أيعقل أن تكون هي...؟؟

- مالك يا زول في شنو انت بتعرف البنت دي ولا شنو؟

عبد الباقي السر يهمس متسائلاً بحيرة، لم أجابه فقط تبعته خطاي المتباطئة نحو المكتب وهو يضرب يد بيد ويقول:-

- رينا يجيب العواقب سليمة شكلك ح تتعبنا

داخل مكتب المديرية الذي يضاهاى مكاتب الوزراء في بلدي كانت الفتاة تنظر الى بطرف عينها ، والعامل الاسيوي يقدم لنا ضيافة من قهوة وتمر لم اتذوق طعم مثل حلاوته حاولت ان اتجاوب مع نظرات الفتاه ولكنها ابتعدت عن مستوي نظري باسمه ، نعم كانت هي الفتاة الشامية التي قابلتها اولي ايامي بالمملكة على الحجر الأسود بصحبه مرأة مسنه وشاب يومها سميتها نظام هل يلعب معي القدر لعبة الاحتمالات ويدخلني متاهات الصبر، اقبلت الينا المديرية السعودية من باب اخر وقف أستاذ عبد الباقي الذي كان على معرفه سابقة بها يمد كلمات الثناء والترحيب بها في مكتبها وقفت انا بدوري ماداً يدي التي وقفت في منتصف الطريق بعد ان تجاوزتها السيدة المديرية وكأنها لم تكن، ونظرات عبد الباقي السيد تحاول ان تمنعني من فعل المزيد، جلست ممتلى الاحراج و ابتسامه نظام تواسيني تصببت عرقاً جلست السيدة على مكتبها بينما رجعنا الى اماكن جلوسنا على المقاعد التي امام مكتبها الانيق ، استجمعت بعض ما تبقي لي من ماء وجهي ونظرت اليها بعد ان قالت لنظام اريد أستاذ عباس ، اطلت النظر بطرف خفي اليها وجدت أمامي امرأة اواخر الأربعين ولا وجود فيها غير الانوثة لم اري فيها مديرة او مسؤولة عن مدرسة اما كانت انوثتها تتفجر بالغواية بالرغم من ذلك اللبس الأسود الفضفاض الذي ترتديه ، لا تحمل ملامح نساء تلك البلد الى أي جنسية تنتمي اعتقد انها خليط بين جنسين مختلفين ، كانت تتربع خلف مكتبها بوجه مستدير مضيء تضع غطاء راسها بإهمال يخرج من تحته شعر فاحم السواد ناعم ينسدل جزء منه على وجهها ، ابتلعت ريقى في حزن وشجن حقيقي وانا انظر الى ذلك الصدر النافر الذي بانت تضاريسه واضحة خلف العباءة صدر له جبروت يبسط قوته امام اعني الرجال كان قلبي يخفق بعنف وان اتفقد انوثتها

المتدثرة خلف المكتب خالج قلبي ارتعاشه صغيرة عندما وقع بصري على رخام صدرها كنت أتأمل تلك المنطقة بطرف عين محاولا أن اصل ببصري لرؤية مفترق القبتان فاستحالت تلك الرؤية بسبب العباءة التي احكمت القبض على الاستدارتين بأحكام ، جاء صوتها عندما تكلمت مخاطبه أستاذ عبدالباقي وهي تتطلع للأوراق امامها ، اعتقدت انها اوراقي التي سوف تتلى منها حيشيات اعدامي بنزوة ، اكمل صوتها مؤامرة الغواية مع ملامح وجهها ومفاتن جسمها

- كم خبرته في مجال التدريس

تمنيت ان تسال عن خبرتي في الحيات والخذلان بوطني، تذكرت حنان وما كانت فاعله امام ذلك الطغيان الانثوي اعتقد انها كانت سوف تضحك وتقول: -

- تمنع في خلق الرب وجمال ما خلق، الا اياك ان تشتتها فهنا يغضب من له حق جمالها وصنعها، ابتسمت وقلت: -

-أكثر من عشر سنوات يا مدام

رفعت اهدابها موس تجرح بها ما تبقي لي من كيان نظرت الى وعلى شفيتها ابتسامه لها ألف معني ومعني ارخت جفون عينيها وهي تطيل النظر لي وقالت

- ممتاز كم بلغت من العمر

تمتت بشي من خجل

- 45 خيبة تلو خيبه

- يبدو أنك أصغر بكثير من عمرك، هل تمارس الرياضي

شارفت على قول كنت امارس الركض خوف الاعتقال، الا انني عدلت عن هذا وقلت مع ابتسامه بكامل وجهي

يقدم اعتذاراته محرجا من ذكر المناسبة امام السيدة المديرة ، عرفت ان عباس سوداني متسعود لم تمضي سنوات معدودات على وجوده في المملكة وهو الان يشغل المشرف التنفيذي في المدرسة ، التفت فجاءة ناحية الباب ، كانت نظام تنظر لى وعلى وجهها وحوم يبدو انها كانت تتابع حديثي مع المدام من اوله او هكذا خمنت ، استلم عباس اوراقي بعد ان ناولتها له المديرة وهي تقول :-

- يبدو لي ان أستاذ احمد يتمتع بخبرة جيدة، يا ريت ينضم لمدرستنا ويكون من ضمن اساتذتها

قالت كلماتها تلك وهي تنظر الى مبتسمه كأنها تـوصي عباس بالإسراع في اكمال إجراءات تعيني وعقبت بقولها:-

- عليك بكل الإجراءات الحكومية وموضوع الراتب دع النقاش يكون بيني وبينه

نظرت الى عبد الباقي والهلع يعتليني اتصبب عرقاً بغزارة برغم برودة الجو في المكتب صحت في سري بخوف حقيقي هل اجلس مع تلك الأنثى التي تتفجر بنداءات الاغراء والشهوة لوحدا يا اللهي ، ظهر لي خيال حنان غاضباً منى حاولت ان افسر لها اني لم اجلس معها بعد ولن اجلس معها لوحدا وان برهان ربي سيحميني ، اخذ عباس بيدي خارج المكتب يتبعنا عبد الباقي بعد ان ودعنا المديرة التي مدت هذه المرة يدها ناحيتي فقبضت على راحة يدي للحظة وعينها مثبتة على عيني فصقني تيار انوثتها فتحركت سريعا لاحقا عباس وعبد الباقي وعندما نظرت خلفي كانت تلك الفتاة الشامية التي اسميها نظام تتبعتني مسرعة، في الصالة صافح عباس جمال يبدو من حديثهم أنهم على تعارف قديم جلس عبد الباقي في الصالة رفقه جمال وعباس مازال يثرثر في عدة مواضيع اشارت الى نظام ان اتبعها الى مكتب اخر بعد ان استلمت فايل اوراقي من عباس ، دلفنا الى ممر طويل ومنه الى صاله اخري اشبه بمكتب كبير توزعت فيها عدد من الطاولات والدواليب التي تعج بكراريس التلاميذ

مرتبة ومنظمة وعلى الحائط وضعت صورة لمؤسس المملكة وصورة أكبر لخريطة السعودية ،أنهمك عدد من المدرسين في جانب اخر بعيد نسبياً على الأوراق التي بين أيديهم لم يرفع احد منهم راسه لرؤية من القادم اشارت لى نظام بالجلوس قالت بلهجة شامية واضحة

- اجلس

جلست على المقعد بالقرب من مكتبها في نفس الوقت الذي وضع عامل اسبوي كوب شاي صغير مع كوب ماء امامي قالت

- اسمي روز، وانا المشرف الأكاديمي هنا

نظرت اليها بشوق ظمآن وقلت: -سورية انتِ واسم روز أجنبي غير عربي على ما اعتقد

قالت وهي تفتح الفائل الذي يحتوي على اوراقي: -

- لا لست سوريه

- لهجتك تقول إنك من الشام

اخذت تقلب في اوراقي التي امامها وتقول

- وانت ملاحك تقول إنك سوداني... سوداني من يراك اول مرة يذهب الى أنك من ارض السودان بحق نفس تقاطيع اهل شمال السودان ونفس طولهم و.....

قلت بصرامة: -

- لماذا ...؟ لان لويني اسودا انها عقدة اللون ليست الا، اللون لا يعبر عن الانتماء

نظرت لي مندهشة من ردة فعلى تلك خفضت عينيها قائلة: -

- اسفة لم اقصد

- لا عادي ما في شيء انا سوداني ابا عن جد وأحب وطني وأحب لون بشرتي، وانت من أي بلد اذا لم تكن سوريا ..؟

حاولت ان اخفف من حده ردي بهذا السؤال

- انا سودانية من اب سوداني وام لبنانية.

قالت كلماتها تلك وهي تنظر الى عيني متفحصة مدي ثباتي، عقدت المفاجأة لساني اصبت بذهول حقيقي ها هي عقدة اللون التي انكرتها عليها تخرج مني، او كانت العقد موجودة داخلي لا أدري، اخذت اتمم بكلام غير مفهوم لا اع ما أقول ابتسمت لها وجيبي ينزف عرق اصبت باضطراب لحظي هممت بالمغادرة. الا انها عاجلتني بسؤال أريك ما تبقى من ثباتي.

- هل تقابلنا قبل ذلك أستاذ احمد

لا أدري ما أقول للمرة الثانية تعطلت لغة الكلام (روز) كانت نموذج لأنثى عصرية خلطة كوشيه رومية فيها كل الارث الشعبي للعرقين الأسود والأبيض اخذت انظر فقط الى عينيها كانت النسخة الأخرى من حنان بشكل مختلف وطعم ممزوج بنكهتين، نفس الطول نفس العنقوان نفس الحضور وهذه الخصائص كانت نقطة ضعفي امام النساء عموماً، حنان نفسها كانت خليط ساللتان جدتها لامها من نسل اكسوم الاثيوبية ووالدها كوشي (محسي) نوبي ظللت (متنح) اري تلك المقاربة بينهم الى ان ردت هي

- اعتقد اننا تقابلنا في الحرم المكي ملامحك ذكرتني وجه ابي الذي توفي وانا في الثانية عشر من عمري، عندما طلبت منك جدتي لأمي تقبيل الحجر الأسود كنت ادعو له، تفاجات بك امامي للحظات لم استوعب هل حقيقي ما اري ام خيال كنت انظر اليك باحثة عن شيء مفقود داخلي منذ زمن، الشبه كبير بينك وبينه

فجاءةً أخرجت (روز) من حقيبتها صورة صغيرة نظرت الى والدها المتسم شعرت بدهشة عجيبة سخرت من الدنيا ومن طرافة الموقف وتناقضه كيف للقدر ان يمارس طقوسه الغربية في لحظات حاسمة كنتك فيفرض إملاءاته علينا دون انتظار، كان وجه الشبه واضحاً جداً لو لم أكن مقنعاً بان من في الصورة والدها لقلت انه احمد امين الصادق نفسه ها هو أحد اشباهي الاربعون ضاحكا في صورة يسخر من شبيهه، أي اب هذا الذي يترك تلك الزهرة وحيدة بين نيران العدم ويذهب الى حتفه الأخير

- تمكنت يومها ان ارتقي في حضنك اشكي لك وحدتي من بعدك، ولكنك لم تكن هو.

نظرت اليها مبلل العين فلم أكن أظن اني في يوماً يلتبس بي الحال لهذه الدرجة حتى أصبحت ضئيل في نظر نفسي، لم يدر في خاطري ان اقع في شباك الشبه ببني وبين اخر لهذا الحد من اليقين وما حيله لي سوي الاستسلام ، لا احب لعبه الاقدار التي تجعلني في مثل ما انا عليه الان ، ولكني اجد نفسي مجبراً على المغادرة دون أي كلمه فقد احسست بوضاعتي بسبب احساسي السابق اتجاهها، توقفت فجأة على الباب اعيد النظر الى روز التي وضعت راسها على راحة يديها المسندة على ظهر المكتب تخفي المأ من حنين ، تائهة دون وطن ، هممت بالرجوع اليها ان اسكب أبوتي التي عرفتھا مع ابني ذو العام النصف ان أقول لها ان من جنس ابيك وعرق ابيك وحضارة ابيك وتاريخ يمتد ل8 الف عام من الحب واذا بهاتفني يرن ويكسر زوايا شجن تلك اللحظة يثقب حائط الفقد في اعماقها فينتشلها وينتشلني مما كانت اهم به ، احسست بما تنتفض تتردد في الحديث معي وانا على بعد خطوات منها، ابتسامتها الباهتة كانت على صباح وجهها المنكسر بالفقد، وضعت الهاتف على اذني يبدو ان اسعد وصل الى المدرسة بادرني قائلاً :-

- يا حبيبتنا انت وين، أستاذ عباس وصلك

- لا انا في مكتب الأساتذة لتصوير الأوراق لحظات وبجي عليكم

أغلقت الخط وروز تتقدم ناحيتي نفضت عنها ضعفها وانكسارها بالفقد القديم
الا ان ندوب جروحها كانت واضحة تأن تحت ثبات انفعالها

- لازم نتعارف أستاذ احمد فانا لا اعرف عن موطن والدي الا القليل

كنت أحس باني أغرق في بحر ازلي يحيط بي من كل جانب اتلوي من حرقة
السقوط اتوجع من الم خيبياتي، الآهات تنخر قلبي المثلث بالجروح، من الذي
سوف يخبرك عن وطن ابيك ...؟

من يحدثك عن بلد والدك يا صغبرتي ...؟

..... انا

انا الهارب من قضية

انا رامي رايه مبادئي

كيف يحق لي ان احكي لك عنه، فقد تركته مفقوع العينين يعاني ما يعاني
من حرقة والم، كيف يحق لي ان اتحدث عنه وقد خذلته مرات عديدة، ويحي
عليك ايتها الاميرة الصغيرة تعشمين في رجل يحمل من اثقال الحزن الون
والوان، تعشمين ان أعينك على تحمل اوجاعك، انت تريدين مني ان البس
ثوب بطوله زائفه واقص لك عن الوطن الذي لم تطأ قدميك ارضه، ولكن
مهلاً هل تعتقدين بان الوطن رحيم هكذا ليغطي احزانك بالحكي عنه ويخفف
عليك الم الفقد بسرد قصص وهمية عن نشأة ابيك فيه، لا يا (روز) لاااااا
لقد اتخذ الوطن قرارات سابقة. قرارات شديدة البشاعة سكنت على قلب
والدك بإقامه دائمة بعد ان لفظه خارجاً يبحث عن حياة اخري في بلد العام
سام حيث التقى بوالدتك.

وقفت قبالتها صفحتها على يدها هذا أكثر ما أستطيع فعله قلت لها :-

- نعم....لازم نتعرف بالتأكيد ح نتعرف أكثر إذا كُتب لي العمل هنا

قالت واثقه :-

- غداء بأذن الله سوف اضحك في جدول حصص التلاميذ للصف الخامس والسادس ابتداء من الأسبوع القادم الى حين اكمال اجراءاتك واستخراج بطاقة الإقامة وهذه سوف يتكفل بها أستاذ عباس مع أستاذ فهد النشمي .

- اذن الى يوم غدا

- في رعاية الله

قالت جملتها الأخيرة مع ابتسامه صافية اعتقد انها رسالة لي لا أدى كنهها خطوط خارجا الا اننى توقفت والتفت اليها مرة اخري وقفت تنظر الى متسائلة قلت بشيء من خجل :-

- آآآآآ كنت اسال هل السيدة المديرية هي صاحبه المدرسة

ابتسمت في خبث

- تقصد مدام انزوت كنت متوقعه سؤالك عنها سوف اخبرك.

وكتمت ضحكة كانت في طريقها الى قلبي

لا أدري لماذا تفرض على الاقدار ادواراً بطوليه دون ان يكون لي خياراً فيها كيف لرجل مثلي اسلم رايته منذ زمن ان يحكي عن وطن، ان يحمل هم الاصحاب ان يواسي من هم حوله ، تغور في جدار الصمت تنبت على سيارة اسعد الكورلا يتبدد شيء من سكون الرب بخيال حنان الغاضب منى ، اسرح حيناً معها اهمس لها لقد وظفت أخيراً يا حنان مدرساً بأحدي مدارس المملكة لم يكن هذا هدفاً للخروج (الهروب) لم تتجاوب معي ظلت صامتة مثل صنم غاضبه كأنها تعاتبني على اعجابي بروز وشهوتي تجاه مديرة المدرسة أتخشى خيالها فانا أخاف غضب حنان وان كان توهماً مني فقلبي يضخ الدماء باسمها، تستمر رحلة الرجوع الى شقة اسعد بعد ان فارقتنا أستاذ عبد الباقي وهو يدعو لي بالتوفيق في عملي الجديد ، جلست على نفس المقعد الخلفي ارمم ما تبقي لي من قوة وجمال على المقعد الامامي بجانب السائق يتمتم بأدعية كثيرة ، اسعد يغالب حظة العاثر بعد دفعه لغرامة استخدام المحمول وهو سائق فقد كان تخميني صحيحاً ، ، تمر بجانبنا سيارات مسرعة هاربه من الطريق لمثل قريب بوصول سائقها الى محطته الأخيرة تذكرت حديث روز عن السيدة انزوت بأنها من أصول فارسية تزوجت رجل سعودي وورثت منه ثروة طائلة بعد وفاته بددت جزء كبير منها على الرجال والزواج فقد تزوجت بأكثر من أربعة زيجات انتهت اما بطلاق او بموت احدهم هذا خلاف عدد من الزيجات التي لا يعرف لها شكل شرعي محدد، لم تعرف روز الى الان هل المدام شيعة ام سنيه بالرغم من انها تعمل معها منذ فترة ليست بالقصيرة منذ أتت قادمة مع اخيها وجدتها من الولايات المتحدة الامريكية .

قلت: - وماذا يهم ان كانت المدام شيعة او سنية ..؟

قالت روز: -

- ان القانون هنا يحرم المذهب الشيعي، ولكن لم اري منها شيء يذكر فقط كثيرة الزواج وما تبقي لها من ثروة استثمارته في تلك المدرسة.

تعجبت من التضيق على الشيعة كنت اعلم ان مذهبهم قائم على منهج الامام جعفر الصادق الذي تم اسقاط اسمه عن عمد عند السنه فالمذاهب عند اهل السنه والجماعة أربعة الخنفيه و المالكية، والمذهب الشافعي، والمذهب الحنبلي ، ومذهب الامام جعفر الصادق كان من المفترض ان يكون خامسهم بل لقد تتلمذ شيوخ المذاهب على يديه، هو الذي وضع القواعد الأساسية للمذهب الشيعي وفيه فقه التقية قلت لروز وانا اخطو معها الى الممر الخارجي لمقابله اسعد وجمال وعبدالباقي ان فقه التقيه احد مميزاته التعايش بسلام تحت ظلال أي دولة وحتى اذا كانت مدام انزوت شيعة فان مذهبها لا يبحثها على مواجهه العنف بالعنف واساس عقيدة جعفر الصادق قائمة على فصل الدين عن الدولة

نظرت الى بتعجب ووقفت قبل ان ندلف الى الباب المفضي الى الصالة وهمست:

- ولكن إيران.....

قاطعت حديثها :-

- قبل ان نحوض فيما يخص الدولة الإيرانية لك ان تعلمي ان أساس المذهب الشيعي هو الايمان بان جميع الارض ستكون يوماً ما تحت راية الامام الثاني عشر الملقب بالمهدي

نظرات الاعجاب تزداد في عين روز بما اسرد نسيت نفسها ووضعت يدها على

بان لا تحرك لسماع المزيد احسست ببرود راحة يدها فقلت في عجله خوف ان يمر أحدهم بالممر ويرى وقفنا تلك هواجس تربيتنا التي قمت معوج عليها، قلت وانا انظر الى نهاية الممر:-

- المهدي المنتظر بالنسبة للشيعة مثل المسيح عند المؤمنين بالنصرانية غائب عن الدنيا ولكنه سوف يعود ليعمل على أقامه دوله العدالة والإنسانية ونفس الرؤية متوحدة بين الشيعة والمسيحيين في اعتقادهم المتوارث الممزوج بإحساس الذنب بمقتل يسوع والامام الحسين بن علي فالمسيح في رؤيتهم ضحي بنفسه من اجل الحواريين والإنسانية كلها هي فكرة الخلاص بالألم وهو عين ما فعله الحسين بن علي بعد ان تنازل من حقه في الحكم من اجل خلاص اتباعه وتم ذبحه وعائلته في كربلاء.

كانت ابتسامه روز تتسع مع كل كلمه وعينها تضيق وبانت على خديها وجنتان صغيرتان متوردتان وهي تنظر الى شبه مغمي عليها من لذه الحديث سمعت صوت أستاذ عباس ينده باسمي خلف الباب ختمت حديثي لها بان الدولة الإيرانية بقيادة الخميني عرابها الأول نسف الفكر الشيعي تماما من موروثه الأساسي بابتداع فكرة جديدة تسمى ولاية الفقيه او المرشد الأعلى الذي يمثل روح الله وظل المهدي المنتظر على الأرض الى ان يأتي وقت خروجه وهذه الفكرة ليس لها وجود في مذهب الامام جعفر الصادق بتاتا

ظهر علامات ارتياح على روز وقالت: -

- اذن فالصراع السني الشيعي قائم على التضاد

- لا أدري ربما

ودعتها بعد ان تبادلنا ارقام الهواتف بطلب منها بحجة ارسال جدول الحصص ومتابعه اجراءات الإقامة، افقت من ذكري روز وحديثها على صوت مكابح السيارة بعد ان ضغط عليها اسعد بقوة محاولاً تفادي الارتطام بسيارة دخلت في

مسارة، كان صوت جمال وهو يحوقل أقوى من صوت المكابح على الاسفلت
شممت رائحة الإطارات التي ذكرتني بالمواكب عند حرق

(اللساتك) على المتاريس التي يصنعها الثوار على الطرق في السودان، توقفت
السيارة على بعد سنتمترات قبل الاصطدام بسيارة اخرى كان الموقف لا
يخسد عليها ، اسعد أصابه هبوط حاد في الدورة الدموية جمال حديثة مخلوط
ما بين ادعية وتوجهات للسائق ، ظللت بارد اتابع الاحداث في صمت وترقب
وكأنني اشاهد مطاردة بين سيارات في فيلم ، وفجأة فتحت الباب ونزلت
للسيارة الأخرى بعد ان ارتطمت بعامود الانارة على جانب الطريق كان
الحادث كبير على ما يبدو هرولت الى حيث الاصطدام لحقني اسعد وجمال
بعد ان استفاقا من الذهول الذي حل بهم ، للوهلة الاولي لم ادري ما بي لقد
كان سائق السيارة انثي سعودية ظلت ترتجف جاحظة العينان (مخلوغة) من
الحادث حاولت انزلها بان احملها سمعت أصوات استهجان رفعت راسي كان
جمع من أصحاب السيارات الأخرى التي توقفت على جانب الطريق سحبي
جمال من يدي وهو يقول :-

- اتقي الله هذه حرمة

عقدت الدهشة لساني وانا اري البنت تلوذ بي بعد ان تقدمت لإنقاذها ولكنها
العادات والتقاليد يا هذا ليس الدين ، مهممات بعض الوافدين والسعوديين
تندد بان هذا ما جنينا من سواقه النساء والحريم لم افهم كثير من هتافات
السخط التي طالت المسكينة التي تربعت على سيارتها في حاله الم و ذهول
تام ، تراجعت الى حيث وقفنا فتحت الباب الخلفي لسيارة اسعد و اخذت
اطيل النظر في الجموع اسمع صوت سيرينه الشرطة تقترب وعدد من العمال
الاسيويين يتوافدون لمنطقة الحادث وبعض السيارات تتحرك مبتعدة عن المكان
لم تمضي لحظات حتى كانت الشرطة حاضرة تحاصر منطقه الحادث وتحرك
المتجمهرين وتفتح الطريق ، تحرك بنا اسعد وجمال يلعن القرار الذي سمح
للساء بالقيادة ، شعرت بانني في امس الحاجة للبكاء والنحيب وانا اشاهد

سيارة الإسعاف تحمل المصابة وجمال يسترسل في اللوم وحرمانه قيادة النساء ، نحن السودانيون زرع في داخلنا قريحة متأججة للنقد والفضول والقاء التهم دون قيد او شرط بالأخص تجاه النساء لم استطع الصمت وحديث جمال يستفز كل كياني قلت بصبر ومودة :-

- ولكن قرار قيادة النساء ليس وليد المملكة العربية السعودية فحسب ما اعرف ان اغلب نساء اسرتك لديهن سيارات في السودان هل تغيرت نظرتك اما ماذا حدث ...؟

تراجع جمال الى الوراء قليلاً بعد ان تفاجا بحديثي ظهر الضيق على محياه اخذ يتمتم بكلام مبهم عن الدين والمرأة والإسلام، في الوقت الذي تشاغل به اسعد بالطريق خوف الدخول في النقاش قلت بلطف: -

- لا تحدثني باسم الدين يا جمال فالدين واضح التعاليم وبالأخص تجاه النساء، مشكلتنا الحقيقية في الوهابية التي اتخذت اجتهادات محمد بن عبد الوهاب نبراسا تضيء به طريقها فكانت عتمه لكامل الامة.

نظر الى جمال وكأنني أقول شيء من كفر لكنني واصلت حديثي رغم الضيق الذي ظهر عليه لم اجامله مثل اسعد فانحرف جمال للتدين الشكلي واضح انه سلوك تعويضي لحدث اثر عليه تماما، أستطيع تخمينه بانفصاله عن سحر

- الدين عزيزي جمال منظومة متكاملة تجمع بين اليقين والعمل الإسلام ليس لحيه وعدم اسبال للثوب او غطاء راس وفتنة انثي لماذا تم حصر وحشر المفهوم الديني العميق في تلك القوالب كثوابت لماذا...؟

كانت نظرات اسعد تتابعني من على مرآة الوسط يغمز لي من حين لأخر وجمال متكوم على نفسه أصابه وجم عظيم ظل صامتا مغمض العينين لم اعر اسعد، لقد خمنت حقيقة ما حل بجمال لا بد ان يعي انه في الطريق الخطاء انشق وجهي عن ابتسامه اسي ضيقة أقرب للارتياب واصلت حديثي بهمس

راجيا من جمال ان يستوعب ما أقول

- الدين ليس صفقة تجارية بين الرب والعباد تقاس بمعادلة حسابية بين الحسنات و السيئات الدين سلوك وعمل لذلك كانت امانة الأذى عن الطريق صدقة وتبسمك في وجه اخيك صدقة ، والقرآن يشرح ما بعد الموت علي لسان العبد في حوارهِ مع ربه فيقول ربي لولا اخترني الي اجل قريب فاصدق واكن من الصالحين فلم يذكر الحج او الصوم او الصلاة ولكن ذكرت الصدقة والبسمة. هذه هي معاني الآيات والفهم الحقيقي للدين الانسانية تتمثل في سماحة رجل اذا باع واذا اشترى وإذ اقتضى ، وبسبب تلك الأفكار التي ترددها تفاقم الثوران الديني ، فعصف باستقرار المجتمعات والدول، وانتشر العنف وبسبب هذا الفهم المغلوط للدين ظهرت الإسلام وفويا

صمّت استجمع انفاسي واتحسس وقع كلماتي على جمال واصلت حديثي بعد ان رأيت انصاته لما أقول.-

- لهذا انا مع تلك الإصلاحات التي تقودها المؤسسة السياسية على المؤسسة الدينية في المملكة الان انظر لتلك الإصلاحات بانها طوق النجاة الأخير لنا من تدنس التدين بآراء ليست من الدين

تحدث جمال لأول مرة بعد ان ظلت عيناه تدوران في محجرهما بحثنا عن شهيق قال: -

- انظر كيف أصبحت ديار الرسول عليه السلام مرتع للأغاني و.....
المهرجانات

قاطعته قائلاً:-

- هذا امر طبيعي يا صديقي الخروج من شرنقة الإسلام الوهابي الي مفهوم الحياة العادية يحتاج لوقت للتأقلم فالذي يحدث ليس ثورة على الدين في حد نفسه ولكنه اصلاح وتعديل وترميم مدعم بالتأصيل فكل الذي حدث

من وجه نظري في هذا البلد تم اعادة فتح باب الاجتهاد بعد انسداده لفترة طويلة من الزمان وبالاجتهاد سوف تحققت إنجازاتٌ تعود علينا كمسلمين بنهضة مؤكدة فيها ، صدقني عزيزي جمال لقد اضر الإسلام الوهابي الدين نفسه وأخر تطور العقلية التي تحتكم عليه بل قد اضر كثير من دول العالم الإسلامي والعربي ، واني اري في التوجه الجديد بداية حقيقة للدين ولوطننا في السودان الذي تضرر كثيرا بفكر الإسلام السياسي .

قلت حديثي هذا واسعد يأخذ طريقة على المخرج الذي يقودنا الى حي (غليل) ملت الى الامام ناحية جمال لكزته بيدي وانا ابتسم سألته بود : -

- الحصل عليك شنوا مالك التغيير الفيك دا كبير . انا اسف ما عايز اتدخل في خصوصياتك لكن بالجد تفاجات من شكلك لمن شففتك مسح جمال على لحيته بطريقة شيوخ البرامج الدينية سرح قليلاً ثم قال : -

- سوف اخبرك

الدنيا شبكة من الهموم وما انا الا غريق للماسي و الشجن ، خرج لي الماضي جملة من بين طيات الألم خرجت اجمل واسواء الذكريات ، اغوص في زحام وضوضاء وغبار الثوار تحت سقف الاعتصام امام قيادة الجيش السوداني جنود مثل مطرة الخريف يرفعون أيديهم بعلامه النصر لنا كل شيء يلبس في عيني ثوب الخوف ، الخوف من القادم المجهول وماذا بعد ان انجياز الجيش للشعب وعزل الديكتاتور شبح مطامع الدول الأخرى يفرد جراحة على ساحة الاعتصام ، اقبلت على حنان تحمل اسعد الصغير بين يديها وعلى شفيتها ابتسامه عذبه بانث وجنتين على خدها ،عينها تشع ذكاء تبهر الشمس هناك جلست امام صورتها أتكلم معها عن الثورة والاعتصام والهزائم المتتالية التي ركت على الوطن وانا مثل ابني الصغير تعلقت بطرف ثوبها الأبيض ، اخذت اسعد الى حضني نتجول حيث تجول نتبعها حيثما تريد ، كثيرا ما كانت تمسك بكف يدي قابضة عليها كأنها تخاف على التوهان في تلك الجموع ، ميدان الاعتصام امام القيادة العامة وطناً اخر غير تلك الأرض التي عرفت من ان وعيت كنت في داخل نفسي مقتنعا بان الثورة حدث خارج مقاييس الجغرافيا والمكان والتاريخ على الرغم من بقاءهم معا الا ان ما يحدث امامي يؤكد قناعتي بهبوط وحي الأخلاق فجاءة علينا بميدان الاعتصام فاصبح كل ثائرا رسول ، صيحات بعض الصبية تنادي في لهفة وحب فاتحة أحضان البلد بنكاً للجميع .

- لو عندك خت لو ما عندك شيل

حنان تحثني على المضي وهي راسمة تلك الابتسامة العذبة على شفثيها رفعة
حاجب عينها اليسرى بدلال قائلة: -

- احمد حبيبي ما تسرع

تتعالى امامنا أصوات المعتصمين

سقطت ما سقطت

صابنها

حتى لو سقطت

صابنها.

تتجه اقدام حنان نحو العيادة الميدانية وانا وصغيري الذي بين يدي خلفها اجول
ببصري في هذا الوطن الذي اعيد اكتشافه من جديد هل هذا هو السودان
هل تلك فعلا شخصيتنا ، على الحائط المقابل تضع إحدى التشكيليات
لمساتها الأخيرة لاحد شهداء الثورة رافعاً يده وتحتها كلمات
«تعبنا يا صديقي ولكن لا أحد يمكنه الاستلقاء أثناء المعركة»

تتهاوي حنان انثي بجسد منهك على أقرب مقعد لها تتابع بوجهها الصبوح
تفاصيل اللوحة التي على الحائط والفنانة التشكيلية منهمكة بحب عليها اجلس
ضاماً ابنا الى صدري ومعطى بصري وكامل احساسي متمعنا تلك الأنثى
وطني، ينبض قلبي شوقاً لها وللثورة.

نظرت ناحية لوحة عبد العظيم رافعا يده اليميني بعلامة النصر امام عصبة من
العسكر وجمع من الثوار تنهمر الدموع من اعينهم احياء لذكر الشهيد

حنان تغطي نصف عينيها المأ وتهمس قائلة: -

- الوطن يقف على مفترق طرق بين عهدين اما ان يكون، او تتشتت

الفكرة والاجماع بين الثوار.

رفعت حاجبي مستفسراً، حنان تعرفني جيداً في تلك الحالة من الغباء وعدم الادراك تمد يدها ماسحة من على راسي بعض ذرات الغبار العالقة تقبض على راحة يدي بكفيها

تسرح قليلاً ثم تقول: -

- اجماعنا في ديسمبر كان على هدف واحد هو اسقاط نظام الجبهة الإسلامية القومية تبلور هذا الاجماع الى عقيدة بعد ان كانت فكرة تراود المناهضين للحركة الإسلامية منذ التسعينات.

تصل الى مسامعنا بعض الهتافات الحماسية من بعض الثوار

- الصوت هناك مسموع؟

ثورة!

دم الشهيد بكم؟

ثورة!

ولاً السؤال ممنوع؟

ثورة!

من حقّي أغني لشعبي

ومن حقّ الشعب عليّ

يخفت صوت الجموع انظر اليها متسائلاً وكأن ما بي من خوف وترقب يمتلكني:

-

- البخليك تقولي ان الوطن على مفترق طرق شنوا؟؟!!!

ترد حنان مبتسمة كعادتها حتى راودتني فكرة ان اقطف ابتسامتها ثمرة من على شفتيها اخفت حياءها خافضه بصرها بعد ان رات نظراتي الحانية ناحيتها اخذت مني طفلها وقالت محاولة إخراجي من حالتي تلك: -

- احمد اقعد ساي ما تعين لي كدا

حبي لحنان لم يكن حباً عنيفا متهور بقدر ما كان هياماً سماوياً شفيفاً لذلك كنت انظر لحنان كقدسية تضاهي قدسية ايماني بالدين فعيون حنان وروح حنان وابتسامة حنان أكبر دليل على ان هنالك نعيم مقيم في الاخرة، لقد وجت نفسي بقرها وسكن الله روحي بعشقها.

رسمت حنان الجديدة على ملامحها مرة اخري وقالت بعد ان رفعت ذقنها الى اعلى قليلاً تعقد عليه غطاء راسها: -

- لقد تبلورت فكرة اسقاط النظام يا حبيبي الى عقيدة وتلك العقيدة هي من حلت مكان القيادة المركزية للجميع وهي التي أملت علينا تصرفاتنا وهي التي حملتنا جميعا في الشهور الماضية ان نخرج في المواكب، نعم لم يكن هنالك قائدا واضح ولم يكن هنالك تنظيماً سياسي يأمر الجموع بالانتفاض والتظاهر ضد النظام، وتجمع المهنيين لم يكن الا بلوره لفكرة القيادة الجماعية صممت حنان ناظرة الى تلك الجموع الغفيرة بميدان الاعتصام امام القيادة العامة ارتفع اذان العشاء من الناحية الجنوبية وكأنها وجدت ضالتها في الحديث قالت لي: -

- تعرف ان فكرة اسقاط النظام وجملة (تسقط بس) هي من وحد الجميع، لقد كانت الثورة مثل الصلاة يا احمد نظرت اليها بدهشة ...!

- لا تفتح فمك هكذا نعم الثورة مثل الصلاة كانت مواعيد المواكب

محددة يؤديها الجميع باقتناع تام وفي زمان محدد بعد زغرودة تطلق بمثابة تنبيه الاذان

قالت جملتها تلك وهي تنظر لي ضامه طفلها الصغير الى صدرها اعرف حنان فهي تتفاءل مثل ما تتنفس قالت: -

- الفكرة كانت في مبدأ الايمان بالتغيير ... فكرة اسقاط النظام هي من أملت علينا الفعل وتنفيذ التفاصيل الدقيقة حتى في تحديد المسارات للثوار لقد كانت الفكرة واضحة وجمع عليها الجميع، تنظر الى بعض الثوار محتفلين بأناشيد وطنية ثم تقول: -

- تشبيه الثورة بالصلاة ليس من فراغ ولكن من ايمان الروح التي تؤدي معراجها لله، ومن ايمان بالثورة التي تؤدي دورها بالتغيير، لقد ثرنا ضد الطغيان متففين لا مأمورين مختارين في الخروج وسط رصاصات الامن الشعبي وقناصة النظام وبمبان الشرطة واعتقالات رباطة قوش، لم نكن مجبرين على خوض تلك الملحمة لم نكن مجبرين اطلاقاً ولكنه الايمان بالتغيير، وحدة الايمان بالتغيير من رفع عنا صلاة الخوف.

تنظر الي مبتسمة وتقول: -الان عرفت عزيزي لماذا لم ينكسر الثوار ...؟ لان قيادتهم لم تكن مرئية كانت جماعية، لقد تعلم السودانيون بان أي قيادة واضحة او حزبية او شخصية لأحداث التغيير قد تنكسر وبالتالي ينكسر الثوار بانكسار القيادة، هل فهمت ما أقول

هزرت راسي موافقاً حديثها وانا اتحسر على بلدي ويحي عليك من وطن يسكت أبنائه بالرصاص، تنغمس تفاصيل المكان في الكدر والدماء وخوفي من عدم اكنمال القمر، فحنن شعب اشتهرنا بضياح الفرص، نجهل الوصول الى الخاتمة وكل فصول حكاياتنا لها نهايات مأساوية خوفي من عبث الاقدار وتراجيديا المؤامرة، حنان انثي الامل في وطن الخذلان، وانا رجل غارق في ازمة وجودي اتحاشي الموت في حزن ثورة، لا أدري كيف عدت تلك الأيام سريعة،

وفود دول وسفراء سفارات تركوا كل شيء وتفرقوا لقراءة الاعتصام، هل يتكونا نصل لما نريد...؟ لا اعتقد ولكن اجزم بان جميع الثوار يدركون بان حياة الذل ليست جديدة بان تعاش، الموت واحد ان كان برصاص قناص او بالجوع، لجنه البشير الأمنية هم أبناء الزمن الذي صنع المأساة والان يريدون استثمارها، همسات أسفل قاع المدينة تتحدث عن وصول ممثلي دولتي التحالف العربي حاملي خارطة طريق لمصلحة رب الامبريالية هناك.

احداث اليوم كانت حافله بالكثير امطرنا رباطة النظام مع اولي تباشير الصباح برصاص منهمم فتصدي لهم نفر من ضباط الجيش برصاص من سجيل جعلهم كعصف مأكول، لمع اسم الضابط حامد وفرقتة، حكي لنا عمار علي بعد ان جلسنا داخل مجمع العيادات مع بعض الثوار عن اجتماع ليلة أمس الذي جمع الصادق المهدي بصلاح قوش واحمد هارون سألته بجزر: -

- كيف عرفت بأمر هذا الاجتماع وانت ليس لك عشق في السياسة منذ امد

قال غير مبالي: -

- لدي مصادري ثم ضحك بجنث

كنت قد علمت من الحزب بان هنالك لقاء تم بمنزل عبد الرحمن الصادق بنمرة 2 فقد تمت دعوة صديق يوسف اليه ولكنه لم يذهب لا أدري لماذا، جمع اللقاء المذكورين بالإضافة محمد وداعة مهندس اللقاء ويجبي الحسين وصلاح قوش واحمد هارون والصادق المهدي سرحت مع سرد عمار لحيشيات الاجتماع وكأنه شريط سينمائي امامي.

كل ما احمله عن الوطن هو متتاليات من الغلظة، الوطن ليس قدراً ربانياً مكتوب علينا نحن السودانيين بقدر ما هو ظاهرة تاريخية تبرز في فترة معينه ، وكان ديسمبر وما بعده الطرف الموضوعي لظهوره فينا، الفضاء يعج بأصوات الثوار حول محيط القيادة العامة للجيش بقية مدن العاصمة تشهد حركة كبيرة لاعتصامات مماثلة امام حاميات الجيش ، بعض شوارع الخرطوم شبه صامتة من كل شيء الا الاهتاف بسقوط النظام ، يستجمع الجنرال قوش بعض من رباط جأشه وهو يعد في ذهنه صخب احمد هارون الماجن بتهديد الشعب امام الصادق المهدي يخرج قوش من تلك اللحظات التي يسترجعها بصوت احمد هارون نفسه وهو يخرج تلفونه النقال يتصل على رقم معين وصلاح صامتاً يتابع اضاءة شاشة تلفونه المحمول التي حملت ارقام سفارة جمهورية الفرعون القديم ، أشعل الجنرال سيجارته وهو يرسل رسالة سريعة الى الرقم بانه قادم اليهم ، فقط عليهم ترتيب امر الاستقبال بالمطار ، لم يشاء صلاح قوش ان يرد على المنتصل في وجود احمد هارون لعل هنالك أمور اخري يريد الجنرال ان يحسمها

وصل الي مسامعة وهو ينفث دخان سيجارة المارلبورو ويفتح نافذة البرادو صوت احمد هارون وهو يطمئن على قرب وصول باصات قادمة من مدينة الأبيض بها حوالي 350 فردا من مؤيدي الحزب في محاولة لفض الاعتصام بالقوة وان ادي ذلك لحريق كامل للمدينة الكبيرة.

- الحقد يتكوم ارتئالاً في قلبه المريض الم يكف هذا الارعن عن تلك

الاعمال الصبانية كيف لنا ان نقوم بمثل هكذا عمل بتلك الصورة الواضحة العبية، ان للسياسة رجاها. قال قوش تلك الكلمات في نفسه وأغمض عينه يسترجع حديث احمد هارون مع الصادق المهدي قبل قليل بصالون عبد الرحمن الصادق بالخرطوم 2 ، كانت تلك لحظات حرجة ويبدو ان زمام الأمور قد انفلتت من ايدي الجميع وأصبحت القوي الثورية هي الحركة للأحداث، جلس احمد هارون وعلى وجهه ارق وتعب، جاف اغبش الجسد يرتدي بزلة سفاري رمادية متسخة الاكمام يتطاير الشرر من عينية جلس على مبعدة من الصادق الذي ظل يتطلع فيه لبرهه على شفته ابتسامة باهته كأنما يريد الشماتة الا ان مكانته الدينية والاجتماعية وسنه يمنعه من هذا، حاول صاحب الشقة ان تتم استضافة ضيوفه بتقديم مشروبات سودانية متنوعة بين الكركدي والعريدي والقونقليز وبعض التمور الا ان أحد لم يقرب الزاد بل تنحج احمد هارون وهو يخاطب الصادق المهدي بصوت يحمل تهديدا أكثر من خبر

- أمبارح انا شفت المؤتمر الصحفي بتاعتك كله انت بتقصد شنوا بالتنحي دي

ينظر اليه الصادق المهدي نظرة استنكار وتلوح على شفته ابتسامة ساخرة هذه المرة قال ونظرة مثبت على عيني احمد هارون

- اقصد بان النظام يتنحي وتتكون حكومة قومية

يضرب احمد هارون يديه على بعض ويضحك بصورة غريبة تتسع عيناه في غضب أقرب الى العبط يقول وتفل ابيض يتطاير من فمه: -

- كده ساي تنحي كده لوجه الله يعني عقد اذعان .. عقد اذعان يعني؟
انحنا بقينا هينين كدي .. بقينا هنائي خلاص كده انتهينا للدرجة اليعني هنائي

...

انتفض فيه أحد الحضور يدعي يحيي الحسين كان يجلس بالقرب من احمد

وداعة متوهطاً في المساحة بينه وبين صلاح قوش

- بتقصد شنوا انت يعني ..؟

ينظر احمد هارون لصحاب السؤال بدا عليه التحفز وكأنه يريد ان يدخل معركة شمر عن اكمامه وقال

- يعني كدا لا حوار ولا مفاوضات ولا.....

قاطععه يحيي الحسين مره اخري

- حوار شنوا تأني الحكومة نمت الحوار... أي باب للحوار هي سدته الحكومة ذالته ،

قال كلمته الأخيرة تلك وهو يشير الى صلاح قوش الذي تغافل عن الدخول في الحوار فهو لم يكن يريد مجي احمد هارون معه لهذا الاجتماع الذي طلب هو شخصيا من احمد ودعة التنسيق له، ودعوة عدد من قيادات الأحزاب، ولكن عمر البشير أصر على وجود هارون في الاجتماع على ما يبدو لعدم ثقته فيه.

- حاول احمد هارون الرد على يحيي ولكن رد عليه الأخير قائلاً: -

- انت بعيد عن ملف التفاوض والحوار ليك زمن يا احمد هارون ما عارف الحاصل فيهو شنوا

قفز احمد هارون على قدمية مع اهتزاز لكامل جسده اخذت عيناه تتطاير شرراً وهو يضرب بقدمه اليمنى على الأرض مثل ثور الخنزرف رفع سبابته عاليا في وجه يحيي الحسين قال والزبد يتطاير من فمه :-

- انا جوة الملف دا... انا ما بعيد من الملف دا .. انا جوه الملف ده جُوّه ... جُوّه ... رفع الصادق المهدي عصاه عاليا واخذ ينظر باستغراب لا حمد هارون وقال

- انت ح تضرب الزول دا ولا ايه يا احمد

يستدرك احمد غضبة ويجلس منفِعلاً ينظر الى صلاح قوش الذي مدَّ رجليه واخذ يتلاعب بكورة مطاطية صغيرة كانت على يديه غير مبالي بالجدال الحاصل

رد يحيى الحسين بانفعال: -

- طيب يا أحمد هارون هسة الشعب قرر انه ما في حوار الشعب هسه في ثورته دي قال مافي حوار وقرر يدخل المواجهة

ضرب احمد هارون برجة اليمى على الأرض ثلاث مرات وعض بأسنانه على سبابته بعد ان ضمها الى الداخل وفردها سريعاً بدا منظره كأنه معتوه خارج حديثاً من جلسة للكهرباء قال :-

- قرر يدخل شنوا.... قرر يدخل شنوا قرر يدخل المواجهة .. الشعب يتاوا,؟ ديل .. ديل

لم يتمالك احمد هارون نفسه فقفز واقفاً مرة اخرى في منتصف الصالون دار على نفسه بحركة بملوانية موجهها حديثه للصادق المهدي: -

- سويغات بس ... سويغات وأشار بأصابعه الأربعة ما حتلقوا اعتصام وما حتلقي يا الامام زول تصلي بيهو .. ايوة ما حتلقي زول تصلي بيهو لأنك ما حتلقي زول موجود.

بدأت ملامح الصادق المهدي تتحول لاستياء واضح ونظر الجميع لهارون باستغراب ماعدا صلاح قوش الذي استكان أكثر على مقعدة وأغمض عينيه كأنه يحاول تحاشي النظر اليه صرخ احمد وداعه في وجهه احمد هارون: -

- ياخ اسلوبك دا ما محترم انت بتتكلم بطريقة ما محترمة مع رجل يعني يكبرك سنا وعلمنا انت قائل نفسك شنو..؟

واصل احمد هارون غيه والشرر يتطاير من عينيه

- الما محترم شنو .. يعني انا بتكلم في كلام في وقائع يعني شنو طبيعي الناس جاين يقولوا لبعضهم انت كتر خيرك امشي وبتاع، يجوا يقعدوا مع بعض وبتاع وهناي

من الواضح ان احمد هارون وصل مرحلة متأخرة من الحقد الذي اعمى بصره وبصيرته فأصبح يتحدث دون وعي الامر الذي جعل يحيى الحسين يستفسر حديثه الأخير قائلاً -- يقعدوا مع بعض شنو ما الناس قعدت قبل كده جوة وبرأ

لأول مرة منذ بداية الاجتماع يتحدث قوش الذي استعدل في مقعدة أشار الى احمد هارون بالجلوس جلس الأخير منهك يلهث من الانفعال في الوقت الذي التفت صلاح قوش ناحية الصادق المهدي وقال: -

- يا جماعة القصة دي نحنا بنفتكر ان الحالة بتاعه الاعتصام دي وصلت درجة يعني ممكن تؤدي لانفجار والانفجار دا والله لا نحنا ولا انتو بنقدر نعرف العواقب بتاعته

رد اليه الصادق المهدي محاولا بث بعض من الحوار العقلاني في جو موثر بانفعالات احمد هارون وخبث صلاح قوش

- - ياخي العواقب بتاعته مفروض انتو بتكون بتعرفوها لأنه دي تخلوها، الاعتصامات دي في الدنيا كلها قعدت بالشهور يعني ما في عنف مسح صلاح قوش على عدسات نظارته الطبية بعد ان نفخ فيها مكونا ضباب رطباً عليها وقال:

- لا .. بالنسبة لقواتي انا بقولة ليكم .. ما قاعدين نصراف ليهم زخيرة زاتو ما قاعدين نصرافه ليهم عشان ما تحصل مواجهة موت.

قال صلاح قوش جملة الأخيرة ثم وضع منظاره الطبي على عينيه والتفت الى

احمد هارون الذي كان سارحا في شاشة جواله قال قوش وهو ينظر باستخفاف الى هارون: -

- لكن الموت بيحصل .. الموت بيحصل وح يحصل يعني لو ديل ما قتلوا في ناس بقتلوا .. بس انا ملتزم ليكم انا ملتزم ما حيحصل فض نهائي للاعتصام وان شاء الله ما يحصل موت من جهات ثانية ولا كده الى ان تقرروا وتقولوا رأيكم في القصة دي

لم يكن احمد هارون في وعيه اخذ يرتجف من الانفعال وتصتك اسنانه مطلقة صرير عالي غير قادرا على الكلام من كثرة الغضب رفع صلاح قوش تلفونه يتطلع الى رسالة sms على هاتفه المحمول (لم ندخل في أي اتفاق بفض الاعتصام دعهم لقد قاربت ساعة الصفر .)

تغيرت ملامح صلاح قوش كثيرا لم يشاء ان يفكر فيما سوف تكون عليه الساعات القادمة ولكنه حسم الجلسة قائلاً: -

- نعم لن نفرض الاعتصام بالقوة

قال جملته تلك ووقف مودعا الامام والبقية تقدمت خطوات قوش سابقة لهارون الذي لاحقة وهو يقول

- اذا لن نفرض الاعتصاملماذا اذن جئنا الى الصادق ..؟

توقف صلاح لبرهة وعلى شفثيه ابتسامة ساخرة وقال: -

- انت الجيت معاي ما في زول قال ليك تعال الاجتماع دا من الاساس ...؟

لم يجاوبه احمد بل استبقه الى داخل السيارة البرادو وهو يطنطن بكلمات فيها كثير من الإساءة والوعيد .

افاق صلاح قوش من سرحانه هذا وهو يتطلع الى احمد هارون الذي ظل

ممسكا على هاتفة المحمول يتحدث مع بعض عناصره كان قوش يعلم جيدا بان احمد هارون يتحدث مع قوات ظل المنظومة الحاكمة التي تسمى درع الصحراء فهي قوات يعلم كنهها ومدي عقديتها للنظام تدين بالولاء لعلی عثمان واحمد هارون، صلاح قوش بحكم عمله كمدير لجهاز الامن والاستخبارات يدرك تماما ان اللعبة الان لعبته كان يهيئ نفسه لقدام يجعله على رئاسة السودان وكان هذا الاجتماع الذي افشله احمد هارون بمجنية بمثابة عرض لمقترح اتفاق مع القوي السياسية بدخوله في لعبة التغيير بان يتحول من خادم للنظام الى شاهد ملك ومن ثم الى بطل قومي ساعد في اجهاض المنظومة ، على ما يبدو ان هنالك كثير تعقيدات طرأت على المشهد اذن لا بد مما ليس منه بد .

شوارع الخرطوم قرب القيادة العامة أقرب الى يوم عيد في هذا التوقيت بالذات ، يسمح الجنرال بالمنديل على عينه المعطوبة وهو يشاهد حركة الشارع التي دبت فيها الروح في تلك الساعات يسترجع ذاكرته قليلاً اجتماع السبت الماضي كان اجتماعاً في غاية السوء مع الرئيس عمر البشير الذي استشعر الخطر القادم بحسه الأمني فاخذ يستشيط غضباً في وجوة المجتمعين ، لقد كان هذا الاجتماع هو الاجتماع الحاسم بالنسبة للكثيرين طلب الرئيس أعضاء لجنته الأمنية العليا الفريق اول عوض ابن عوف والفريق اول كمال بالمعروف رئيس هيئة الأركان المشتركة والفريق ركن مصطفى محمد مصطفى مدير المخابرات العسكرية والفريق امن صلاح عبدالله قوش مدير جهاز المخابرات والفريق امن جلال الشيخ نائب مدير المخابرات العامة والفريق الطيب بابكر مدير الشرطة والفريق اول محمد حمدان دقلو قائد قوات الدعم السريع والفريق ركن عمر زين العابدين مدير عام منظومة الصناعات الدفاعية والدرديري محمد احمد وزير الخارجية وبشارة ارو وزير الداخلية بالحضور فوراً الى مباني بيت الضيافة

كان البشير في حاله يرثي لها داخل الاجتماع يتوعد ويثور صاح قائلاً: -

- انا لو وقعت ما بقع براي والله بجر المركب كلها معاي

أصوات المعتصمين في الساحة امام القيادة العامة يصل صداها الى الاجتماع
تزيد من توتر الرئيس الذي يحذر ان يوصف بالمخلوع

اسند المشير ظهرة الى المقعد بعد زيادة الهتافات التي تنادي بسقوط نظامه
تطلع في الجميع زائغ العينين وهو يقول: -

- اسمعوني هنا في اجتماعنا الأخير للمؤتمر الوطني قررنا نفض الاعتصام
دا بالقوة

كان البشير يجلس على مقعد مواجه لابن عوف، وبعد ان قل صدي الهتاف
من ناحية بوابة البحرية طلب الفريق اول جلال الدين الحديث

- طيب يا سعادتك رؤيتنا في اللجنة المشتركة جاهزة وتم عرضها عليكم
كانت مخرج جيد من حاله الفوضى والسيولة دي .

يواصل قوش ذكرياته فقد كونت لجنة برئاسة الفريق جلال الشيخ وعضوية
نائب مدير عام الشرطة ومدير هيئة الاستخبارات العسكرية وضباط يمثلون
وحدات عسكرية مختلفة وضباط من الامن والدعم السريع وكان ان خلصت
لرؤية تحمل حلولاً سياسية واقتصادية وامنية، وضعت مقترحات لجنة جلال
الدين الشيخ امام الرئيس البشير الذي اطلع عليها وقال امام وزير دفاعه
عوض ابن عوف ورئيس جهاز الامن والمخابرات ابتسم قوش في اسي وهو
يسترجع حديث البشير له يومها يعد ان قدموا له مقترحات اللجنة: -

- لازم يكون في فعل حقيقي ومرحلي لازم نقدم تضحيات المقترحات
دي انا ح ابصم عليها بال عشرة

انطلقت من صلاح قوش تهيدة حارة وهو يتذكر ما قام به المشير مساء الثاني
والعشرون من شهر فبراير 2019 عندما تحدث لجموع الشعب بخطاب مختلف
تماماً عما توافقوا بعد ان وافق على كل مقترحات اللجنة، الان وبعد مضي
شهرين يجتمع به للبحث عن مخرج

كانت انظار المجتمعين تتابع البشير صامته وكأنها تدرك النهاية الحتمية، نظرات وزير الخارجية تحمل الكثير من الالاسي فقد كان واضحاً ان المجتمع الإقليمي والدولي قد قال كلمته الأخيرة، وواصلت بعض السفارات العربية اجتماعاتها مع قيادة اللجنة الأمنية، قائد قوات الدعم السريع تغيب عن عمد من الاجتماع سحب قواته خارج العاصمة الخرطوم يبدو ان السفارة العربية قد أخبرته ما يجب فعله، صوت رسالة واتساب تصل لتلفون أحد مكونات اللجنة الأمنية.

وقف البشير معلنا انتهاء الاجتماع وهو يقول: -

- لو ما فضيتوا الاعتصام دا الساعات الجاية انا بفضيه بنفسي
.....

تسربت تفاصيل الاجتماع لتصل الى سفارة تلك الدولة التي بها بيت الرب حيث يرباط طة على الحسين هناك في ترتيب ما تبقي من ساعات.

اخذ الجنرال يرتب ذكرياته تلك كما كان يرتب ملفاته التي كتب عليها سري للغاية أرتفع رنين الهاتف للجنرال صلاح عبد الله قوش وهو يودع احمد هارون امام البوابة الغربية للقيادة العامة استقل الأخير سيارة كانت في انتظاره لنقله ناحية بيت الضيافة بلغ توتر هارون مرحلة جعلت يرتجف وهو يسب حائناً على ال دقلو اخذ يصفهم بأقبح الالفاظ فقد وصل اليه ان قوة من الدعم السريع حاصرت الباصات القادمة من مدينة الأبيض لفض الاعتصام كانت ابتسامه صلاح قوش تتفاعل طردياً مع غضب هارون الى ان وصلت الى القهقهة بصوت عالي، اهتز جسده بعنف مع القهقهات مع اهتزاز هاتفه الثريا على الشاشة وميض يحمل اسم و رقم خاص ، ضغط قوش على اللون الأخضر مرحباً بالمتصل ظل يؤمي برأسه كل حين فقد شارفت ساعات الرحيل .

أحزان الوطن لا تعلموها العسكر فقط من يعلمها ، الا تعلمون ان العسكر

في بلدي يري ما لا ترون لم يكن مساء التاسع من ابريل عادياً مساء استثنائي استفرغ فيه الوطن كل امل حمله على قارعه الطريق واخذ ينتحب مما يتيح له الحزن من وجع ،وقف المشير رئيس بلاد ملتقي النيلين وسط مكتبة بيت الضيافة ينظر الى صورة له في اولي أيامه على سده الحكم معلقة على الحائط الغربي للمكتب تحرك المشير ببط ذهاباً وأياباً يحاول يقدر المستطاع أن يستجمع رباطة جأشه وسط هدير هتافات المعتصمين حول محيط القيادة العامة تنهال أصوات المحتجين على راسه تضرب بقوة مثل مسامير صلب تظهر علامات الغضب مزوجة مع الغيظ وهممات الوعيد، تخرج تنهيدة حارة من قلب الرئيس الذي وضع يديه على اذنه محاولاً حجب الأصوات من التوغل داخله ، صوت طرقات على باب المكتب لم تمضي لحظات حتى دلف قائد الحرس عبدالحميد ادي التحية العسكرية بقوة وقال بأدب جم مخاطبا الرئيس :-

- تمام سعادتك ... بالخارج الفريق أول محمد حمدان دقلو والفريق عبد الرحيم دقلو و.....

لم يكمل قائد حرس حماية الرئيس حديثة حتى انفرجت اسارير الجنرال كأنه خرج أخيراً من متاهته الأخيرة وقال محاولاً إخفاء فرحة طفولية ظهرت عليه: -
- خليهم يدخلوا بسرعه

لحظات ودخل الى المكتب قائد قوات الدعم السريع ومن خلفه يتبعه مثل ظله شقيقة الأصغر عبد الرحيم ادي الاخوان التحية العسكرية التي اختلفت في توقيت ضرب الأرجل على الأرض فكانت مثل قطرات مطر تتساقط على سقف (زنك) الفتور بادياً على وجه دقلو الكبير لم يلحظ البشير الامتعاط على وجوههم للحظات ، وهو يخطو الخطوة نحوهم فقد ركز الجنرال جُل تركيزه على الأصوات الهادرة التي تصم الاذان ، صافح حميدي البشير بلهفه مصطنعة واخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة ، أشار اليهم المشير بالجلوس جلس

الاخوان متلاصقين ، ما اقسي امتحان الحياة ان يجبرك القدر على التوسل لمن خلقت يداك لإنقاذك خرج صوت العشم من البشير مبتلاً

- انتو منتظرين شنوا ...؟

نظر الاخوان لبعضهم البعض بعبط فطري غير مقصود وكأن السؤال لأخرين، حاول البشير ان يبدوا متماسكا وهدير المعتصمين يدك كيانه دكاً اخذ يتحدث بأوداج منتفخة ينز منها القلق والجزع والهلع: -

- سامعين وشايفين طبعاً

أومي دقلو الصغير برأسه مجيباً في الوقت الذي نظر فيه حميدي الى الأرض وقال بأسي مصطنع: -

- أوامرك سعادتك نحنا من يدك دي لي يدك دي

واصل البشير نحيبه الغاضب لم ييقي له الا ان يرتقي في حجر دقلو طالبا الأمان او يترجئه ان يفرض الاعتصام، استدرك نفسه في اللحظة الأخيرة هب واقفاً من على المقعد وتحرك نصف دائرة في المساحة الخالية بين المقاعد وقال بصوت عالي محاولاً إيصال جملته الى دقلو اخوان

- اقتلوهم انتو مخلينهم لهسه لي..؟

جرت عيون دقلوا اخوان في اتجاهات متعددة بلا معني ، اخذ حميدي ينظر الى صورة البشير المعلقة على الحائط الغربي للمكتب ويغمغم بكلمات كأنه ينقل وشاية انتقل بصره الى المشير الواقف امامه ينظر اليه وهو يحاول إخفاء لحظة انكساره خوفاً من نظراته التي اخذت تتابعه بقلق ، جلس البشير على المقعد المقابل للأخوين وخذ ينظر اليهم دون كلام بعد ان تماسك نوعاً اطال النظر في وجه قائد الدعم السريع الذي تحركت عيناه في محجريهما واخفض بصره الى الأرض ، تحول بصر الرئيس الى الأعلى كأنه يستمطر وحي من السماء مضت

فترة من الوقت حسبها ال دقلو دهرًا كاملاً حتى ان أصوات المحتجين حول القيادة تواطأت مع الحدث صمت عم الكون للحظات ، هب البشير مرة اخري واقفاً وقال بصوت متحجرش قاطعاً حاله الصمت التي غطت على المكتب :-

- الدين زانوا بقول كدا...

التقت عيون الاخوين مرة اخري بصورة عفوية، اغمض البشير عينه للحظات كانت كافية لتخيل اسواء المشاهد في حياته هرع الى المكتب امامه واخذ ورقة مروصه من على السطح رفعها عاليا وهو يقول:-

- انا عندي فتوي ايوة عندي فتوة للمالكية بتبيح قتل ثلث الشعب عشان الثلثين يعيشوا

قال جملته تلك واخذ ينظر الى الاخوين الذين لبسوا الصمت جلباباً اطال المشير النظر إليهم محاولاً ان يستشف وقع كلماته عليهم بدأت ربكة صغيرة تظهر على يدي حميدي جراء نظرات الرئيس، فيما استمتع الصغير بغبائه المحكم غير مدرك مراد الحديث

- بل الأكثر تشددا من المالكية يبيح قتل نصف الشعب ليعيش النصف الاخر

قال البشير جملته تلك في نفس اللحظة التي وقع فيها بصر حميدي على مجلة مرمية بإهمال على المنضدة امامهم اخذ يستهزاء الكلمات (حتمًا لن يكسب الانسان استباق ضد القدر) لم يفهم قائد الدعم السريع معنى الجملة وعندما غلبه تفسير الكلمات ترك التركيز ورفع راسه متجاوبا مع حديث الرئيس اخذ يردد:-

- أيوة أيوة سعادتك

بدأت على ملامح المشير بعض علامات الارتياح وهو يري قائد أكبر مليشيا عرقية يؤمى بالإيجاب على مقترحه وقف الاخ الأكبر ومن خلفه الأصغر مودعين الرئيس الذي اخذ تنهيدة حارة وهدير المحتجين يتجدد مرة اخري بشكل أقوى، رائحة الدم تغطي المكان وقائد قوات الدعم السريع يتظاهر بالخنوع يؤدي الاخوان دقلو التحية العسكرية اما البشير بقوة هذه المرة وبانضباط مما ادي الى ان تنبت ابتسامة على تربة فم البشير غير الصالحة.

وبمجرد فراق ال دقلو عن البشير بدأت البغضاء من افواههم، وما تخفي صدورهم أكبر خرج الشقيقان وتوجهوا الى داخل مباني القيادة العامة، دلف الاثنان الى مكتب وزير الدفاع الذي كان يتابع مع اللجنة الأمنية العليا تطورات الاحداث ادي الاخوان التحية العسكرية للمجتمعين صافح عوض ابن عوف حميدتي الذي ظهرت عليه علامات الوجدم جلس الرجل على مقعد بالقرب من وزير الدفاع الذي تسال بدورة عن سبب قلقه في نفس التوقيت الذي دلف فيه كمال عبدالمعرووف الى مكتب الوزير جلس دقلو الصغير في نهاية المكتب فيما قال حميدتي :-

- والله يا ساعاتك طبعنا كنا مع سعادة الرئيس قبل شوية

صمت دقلو الكبير لبرهه ثم واصل حديثه

- طبعا سعادة الرئيس عندوا راي قال لنا في فتوي بتخليه يقتل نفس الشعب عشان النص الثاني يعيش

تبادل عدد من الجنرالات النظر لم يخطر ببال وزير الدفاع بان الرئيس يبشر فتواه هذه صمت لبرهه ثم قال :-

- والله السيد الرئيس قال لنا تقريبا نفس الكلام دا قال اهل السودان مالكية وعندنا فتوي تبيح قتل المتظاهرين ليعيش الثلثين وان المتشددين يفتون بقتل النصف

صمت وزير الدفاع عوض ابن عوف وصمت جنرالات الجيش كأنما حط على رؤوسهم الطير واخذ الجميع ينظر لبعضهم البعض، قطع حبل الصمت الفريق جلال الدين الشيخ الذي تسال باستحياء: -

- وانت قلت ليهو شنو

رد وزير الدفاع بعد ان أرخي بصره قليلاً

- والله قلت ليهو انا شخصياً حنفي ما مالكي

نظر الوطن إليهم للحظات باسئ ولان الاحتقار ما وقر في القلب وصدقة العمل خرج الوطن متوسد احزان ماضية وحاضرة خرج من مبني القيادة العامة حتى دون سلام غادر طائعاً فرائحة الخيانة داخل مباني القيادة تزداد يوماً بعدي يوم نتانة فالقاعدة الشائعة تقول الكوز لعنان وطعان.

شمس ابريل تنخر اقيه الثوار، لا يوجد اسواء من ادعياء المثالية، ادعياء المثالية والحكمة

(رُسل الجودية) مسؤولين وحدهم عن تلك المجازر التي طالت الإنسانية ، في اخر اجتماع ضم البشير مع لجنته الأمنية العليا لم يكن عبد الفتاح البرهان أحد أعضاء تلك اللجنة يا هذا، نسجت المؤامرة بخيوط غليظة وبتؤدة ومرونة، ادعياء الحكمة هم من قدمونا قريباً للعسكر صرخ عمار علي بتلك الكلمات بعد عزل البشير وتعين ابن عوف، كانت ساحة الاعتصام تغلي بالهدير وحناجر الثوار تنادي بشعار تسقط ثاني خرج البرهان يومها الى الساحة يمشي على استحياء وسط الثوار الى ان وصل الى ظل شجرة تربع عليها احد قادة الأحزاب التي شاركت في الحراك همس الجنرال بصوت واطي مثل أخلاقه مخاطباً القيادي :-

- ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ما صنعت لنا

فاض قلبي بالشجن والمرارة ، انتشرت رائحة الموت فاردة اجنحتها باسم التفاوض مع العسكر، السودانيون نوعان يا احمد أمين الصادق ، بشر عاديون بأحلامهم وطموحاتهم و النوع الثاني كيزان بعساكرهم وجنويدهم، اللعنة على ماضي وحاضر هذي البلاد لم أؤمن بالثورة لم أؤمن بها إذا تمت مفاوضة العسكر على شيء ، الساسة والعسكر جميعا تروس في ماكينة هرس الشعب،

يصرخ عمار بهذه الكلمات يُهدي من روعة طارق دفع الله الذي اقسام لوالدته بالرجوع قبل الساعة التاسعة مساء يرفع القيادي بالحرية والتغيير يديه عالياً والبرهان في حجرة يستعرض مآلات الحال، السياسة في السودان يرددون كلاماً فارغاً بخلفية صوتية عميقة هكذا كانوا ، كيف ظهر عبدالفتاح البرهان لاعب أساسي في معسكر الجيش، قل ان العسكر الذين تفرون منهم فانهم ملاقوكم ثم ترزحون تحت وطأة التفاوض سنياً من حزن ، معتصم سليمان تنهمر دموعه بركان ، يقول في جمع من الثوار محاولاً تبديد آمال الاخرين في تفاوض يجي بالهلاك كنت استمع اليه قابضاً بكفي على يد حنان التي ظلت ترتجف من خوازيق السياسة في هذا الوطن اليتيم :-

- يا شباب مواجهتنا مع العسكر ومليشيا الجنجويد ما هي الا مواجهه مع قوي الاستعمار التي تتنازع الان داخل السودان للاستيلاء على ثروتنا او للمحافظة على مصالحها مع جنرالات الجيش واشباههم من المليشيات كل القوي الإقليمية والعالمية لا تري فينا الا مجرد عبيد ورقعه استهلاكية جديدة أي تفاوض مع العسكر سيعود علينا بالموت.

كان معتصم يتحدث بصوت منهك ووفد من قوي الأحزاب يحزم امتعته ويتوجه الى مبني القيادة العامة، من يتفاوضون باسم الشعب الان لم يجربوا فكرة الجوع يوماً، جل وفد الحرية والتغيير ليس من بين أحدهم من هرب من جوعه ليلاً بالنوم، المفاوضات حاملون والشعب وحده هو الثائر.

بعد رجوعنا من المدرسة وانتهاء إثر الصدمة التي اعتلت جمال واسعد في الطريق بسبب الحادث اماننا، تمددنا داخل الغرفة الثانية بشقة اسعد بعد وجبة الغداء نرتشف اكواب الشاي ونتابع الفيلم الأجنبي **Braveheart** الذي يحكي عن ملحمة تحرير اسكتلندا حاولت التلصص على جمال هل يغض بصره من بعض المشاهد ، كم كانت دهشتي عظيمة عندما وجدت استمتاع بائن على عينية في مشهد احتكاك جسدي يجمع بين الممثلة الفرنسية صوفي مارسو وزوجها الأمير ، وبطل الفيلم الأمريكي ميل غيبسون وصلت الى قناعه شبه تامة ان جمال يعاني بشدة ويستخدم الدين كحائط صد لذكري سحر ، تابعنا مشهد للأميرة إليزابيث زوجة الوريث الشرعي الأمير إدوارد تطلب من ملك إنجلترا إدوارد الأول وهو على فرش مرضه الأخير و لا يستطيع الكلام تطلب منه العفو عن وليام والاس وعندما رفض الملك بظهور علامات الامتعاض على وجهه الذي تنحى للجانب الاخر اقسمت له همساً بان ابنه الأمير لن يحكم مملكته وانها تحمل في احشائها طفل هو ابن قائد المقاومة وليام والاس كنت شديد الانتباه لهذا المشهد الى ان قاطع تركيزي صوت ضحكة اعرفها جيداً التفت الى حيث يرقد جمال الذي تربع على الفراش هذه المرة وهو يقول :-

- انت عارف الامريكان ديل بكونوا عملوا سيناريو الفلم مخصوص عشان الرسالة دي عايزين يثبتوا للعالم ان نسل العائلة البريطانية المالكة من اسكتلندا.

ظللت صامتاً اراقب حركات جمال واسعد يضع طبق ملئ بالفواكه اماننا

ويجلس على مقعد بالقرب منى كانت صوفي مارسو شديدة الشبه بسحر او هكذا اعتقدت، هنالك شيء يجمع بينهم في الملامح حاولت ان اعيد النظر في اللقطات التي تظهر فيها الممثلة الفرنسية الى ان قاطعني جمال: -

- البت دي بتشبه سحر شديد

قال جملته تلك بشجن واسي، تذكرت حديثة ونحن في السيارة قبل الرجوع الى السكن بان سبب الخلاف بينه وبين سحر واهي لم يكن يتوقع ان يصل الى الانفصال، ولكنها حياة الغرب يا صديقي هل كنت تتوقع ان تترك سحر تنهل من رحيق تلك الحريات بأنانية شرقية وذكورية مقرضه...؟ هل كنت تتوقع ان تتابعك بتأنيب وعتاب وانت تنظر الى اخريات دونها، تتابع نزواتك وشهواتك غصبا عنها، كان لابد لها من ردة فعل على علاقاتك المتعددة بالجامعة التي تحاول ان تنال منها درجه الماجستير حسب قولك، الأنثى الشرقية يا عزيزي ليس لها من الامر شيء سوي الغيرة عندما خلق الرب الأنثى الشرقية نفخ فيها حب أظهار المفاتن لمن يريد القرب منها.

- اقسام لك لم تكن لي علاقات جسدية معهن كُن صديقات.

- صداقات مع من أيها المهاجر التعس، نساء الشرق وذكورة في هذه المحكات يعرفون لغة الجنس فقط، لا تبرير قلت هذا وانا استرجع رده فعل سحر بعد ان أفرطت في طعن ذكورية جمال بان كان لها نفس الصداقات مع رجال من جنسيات مختلفة

- انا لا اخشي على سحر فتقتي فيها كبيرة ولكن طريقتها في اشعال غيرتي كانت قاسية .

اذن لقد ضربت سحر مكمن الوجدع في ذكورتنا، الم تكن تعلم كم الحزن الذي سببته لها وانت مع اخريات، أكثر ما يثير الشفقة فينا نحن الذكور الشرقيين اننا نُصنف الأُم، نُصنف الحزن ، نُصنف الاسي حسب الجنس ، الذي وقع

على سحر وانت مع غيرها يضاهي ويفوق الألم الذي كنت انت فيه عندما كانت مع غيرك ، ولكن الرجل منا لا يستطيع تحمل ما تتحمله أنثاه، فكانت لغة الهجر والضرب والإساءة ليس هذا ما قلته لي بعظمة لسانك اشتعلت غضباً وانت تراها في مكان عام مع رجل اخر غيرك، الغريب انك في نفس التوقيت كنت مع اخري غيرها اضحك بسخرية او اصل حيثي قائلاً :-

- الأنتى الشرقية لها دراية بعقلية الرجال من بني جنسها أيها الغريب في ثقافة اخري.

تحدث جمال بعد ان تناول فاكهه من الطبق الذي امامه كان متماسك نوعا ما: -

- زوجي من سحر لم يكن استثناء ولكنه في نفس اللحظة لم يكن عادياً جاء بعض علاقة حب امتدت لاكثر من عشر سنوات لقد كنت تعلم بها يا احمد...؟

أؤمي براسي دون حديث فقد كنت انظر الحزن والالم على عيني جمال ، يقطع تساؤله اسعد قائلاً: -

- من الذي لم يكن يعلم بعلاقة جمال وسحر كان معيار العلاقات قائماً عليها

ينظر جمال الى الشاشة كانت صورة الممثلة صوفي مارسو تحتل الجزء الأكبر فيها قال: -

- لم تكن سحر بالنسبة لي زوجه او ام بناقي كانت دينتي كل حلمي الذي نلت، لقد غدرت بنا الحياة بعد ان مهد لنا القدر مشاوير الطريق، يا ليتني لم اغادر السودان ليتني فضلت حبيس وطني

اكثر ما كنت اخافه ان تكون هنالك خيانة من قبل سحر لم يذكرها لنا

جمال خوفا على ذكوريته من المساس تلك الخيانة قلبت تفكيره على كل النساء فضلت عدم البوح بما اظن الى حين سماعي للأجزاء التي يريد ان يقوله عن حياته هذه المرة ، كان كل غرضي من الاستماع هو إعادة اكتشاف العطب الذي طال جمال ومحاولة إصلاحه فانا اعرفه جيدا اعرف طينته التي بني عليها أعرف الوجع داخله ، هذا ليس جمال انه مسخ مشوه نتيجة ردة فعل قاسية ضربت كيانه جعلته يبحث عن نفسه يبحث عن سلام داخلي فلجا للوهابية بهذه الطريقة الفظة ، انا على يقين ان جمال غير مقنع بقرارة نفسه بتلك الآراء التي يتبناها ويدافع عنها ولكن هي من تحميه و تماسكه تجعله يتعايش مع الواقع ، الحياة في الغرب قاسية يا صديقي قاسية لا تعرف كنهها فانا نفسي اخشي المعيشة في دولة مثل **United States of America** ليس من دوافع دينية بل اجتماعية بحته قلت ذلك لجمال الذي اخذ ينظر الى مستغربا واسعد يضحك بتهكم ويقول :-

- تخشي المعيشة في امريكا يا احمد

تناولت من اسعد كوب الشاي شكرته عليه وقلت: -

- لا تنظر الى هكذا يا جمال ارجو ان لا تسخر مني يا اسعد ولكن لي دوافعي كما ذكرت لكم ان عولمة الحياة الاجتماعية والاسرية تنتج مشاكل نفسية واجتماعية كبيرة حياة قائمة على عبادة المادة وتقديس الانا والحرية الجنسية دون رابط لست ضد الجنس في حد ذاته ولكن اتحفظ على مبدأ التحرر الجنسي بحكم شريقي التي قمت عليها وحتى ان تحدثنا شفاهه عن مبدأ التحرر هذا فان عقليتنا تخاف الارتباط باثني لها سابق تجارب جنسية خارج الأطر المتعارف عليها، هكذا نحن ، او المثلية ارفضها تماما من مبدأ انساني قبل الديني

أعتقد ان جمال لم يستوعب ما ارمي له ولكنه قال: -

- لقد مررت بتجربة قاسية بأمريكا بنفس سردك هذا، كانت الحياة

مختلفة تماما عما كنت اتوقعه فالمرأة في تلك البلاد تمثل الحلقة الأقوى ثم يليها الكلب ثم السيارة وأخيرا الرجل.

قلت محاولاً تهوين الامر: -

- اعتقد ان هذا راجع لما عانته الأنثى خلال الحقب الماضية، العصور الوسطي يا عزيزي في أوروبا قائمه دامية، كانت النساء الحلقة الاضعف في كل الطبقات، وهذه ردة فعل طبيعية ان تسن قوانين تحاول ان تعيد لهن اعتبارهن، الغرب بعد الحرب العالمية الثانية فقد اغلب رجاله فالحضارة الاوربية القائمة الان كان للنساء القدر المعلى فيها، الغريب في نفس تلك الفترة كانت نظرة الشرقيين عموما للمرأة أفضل حال مما هو عليه الان.

يقول اسعد بعض ان نظر لى: -

- ولكن الإسلام اعطي

قاطعه قائلاً: -

- لسنا هنا بصدد عقد مقارنه بين حقوق المرأة في الإسلام وقوانين الغرب اننا امام امر واقع، فتطور القوانين في اوربا وامريكا ليس له مرجعية مقدسة خلاف منظومة الاقتصاد الاستهلاكي والتي تسربت الى أعماق ودواخل الذات الفردية وشوهت المفهوم الإنساني وأربكت الحاجة للاستقرار الاسري، لقد لعبت بإعدادات البشرية اما في الإسلام مازالت المرأة مثار خلاف هل هي منبت الشر ام منبع الشهوة للرجال، علماء المسلمين وعلى مختلف مذاهبهم والى الان يجهلون مراد الرب وتوجيهاته حول المرأة.

أغمض جمال عينية حاولت بحديثي السابق ان اخفف عليه مرارة الذكري وامهد له طريق لاكتشاف الاحداث بصورة اخري فلم تكن سحر خارجه عن نمط تفكير اغلب النساء وان كانت ردة فعلها قاسية بعد ان تلقت صفعه جمال في الطريق العام الامر الذي اعمى بصيرتها وحررت محضر بالشرطة ومن

ثم طلبت الانفصال عنه للضرر، لم يتعاطف أحد مع جمال حتى بني جلدته من السودانيين اصابهم خرس حيال ما وصلت له الأمور بين الحبيبان، اناخ الذكور راياتهم وهم يتابعون رحيل جمال الى الشرق وتهور سحر التي احتفل بها قريناتها في حربهم ضد هيمنه الذكور، الحقيقة التي يخفيها الغرب باسم الحضارة والتقدم هي ان المرأة هنالك تعاني اكثر، فقد تحطمت المشاعر الوجدانية على صخرة الحرية الشخصية الحب هو ما يجعلنا نتحمل واقعنا البائس،

تخيلت حنان وما كانت فاعلة في مثل هذا الطرف كيف سوف تعيد الأمور الى نصابها ليس من ضعف فيها ولكن لقدرتها الحاسمة على الاحتفاظ بمن تحب لا تتنازل ولكن تعيد الأمور بقوة شخصيتها دون دمار كانت سوف تأدبني بشق الطرق فالأنثى لها مقدرة القيادة ودفع عجلة الحياة بفطرتها، أتذكر حديثها في تلك الندوة التي عقبته فيها على حديث إحدى دعاة النسوية -Femi-nist مفصومة النموذج الليبرالية الغربي قالت يومها :-

- هكذا نحن نتطلع لرؤية الخلافات التي بيننا في النوع ونحوها لحرب، في الوقت الذي فيه يمكن ان نري أن العلاقة بين الذكر والأنثى ليست قائمة على العداة او التضاد ولكنها قائمة على التكامل بينهم واختلاف جنس عن الاخر ليس دليل تميز وانما ضرورة حتمية لمفهوم سيرورة الحياة بالتقاء الاخر المكمل لتلك الاختلافات.

نظرت حنان في وجوه القوم كانت ترتدي نظارة سوداء تحاكي سلمي خضر في عيد مراكب محسن خالد واصلت حديثها: -

- وللأسف في ظل تلك المفاهيم الغلط عن العلاقات الاصيلية التي ترنو اليها النفس السوية أصبحت سمه علاقات عابرة تقوم على مبدا تحقيق المتعة المتبادلة لا روح فيها ولا عاطفه وهذه يقع على مصطلح (-sugar dad dy) للأسف العلاقات أصبحت محددة بشكل متزايد من خلال النماذج الاقتصادية والسياسية للمساومة والتبادل والانصاف وهذه يمكن ان نسميها

بالرسمية العاطفية.

كانت ملامح حنان عادية لا تضع إي شيء من مساحيق لها وجه لا يتجههم
ولا تظهر على جبهتها خطوط يظل وجهها هادياً صافياً حتى في اقسي حالات
التوتر والغضب

انتبهت على صوت جمال يهزني ويعيدني الى واقعي: -

- هل تعتقد انني كنت مخطئ

سرحت بعيدا للوهلة ثم قلت: -

- لا أدري ربما استعجلت ردة فعلك، او ربما بالغت في مكايده سحر
وقُعلت وضع الذكورة الشرقي داخلك كان من الممكن تتدارك الامر كله بان
تبتعد عندما يثير غضبها او يربك غيرتها كان من الممكن ان تحترم حبها لك في
الابتعاد عن كل ما يثير فيها من حنق.

سألني اسعد وهو يضع كوب الشاي الخاص به على المنضدة التي امامنا: -

- ولكن النساء بطبعهن ناقصات عقل ودين يا احمد... كان من الممكن
ان تفهم سحر تجاوب جمال الذي تقوله الان ضعف

رفعت بصري إليهم وعلى وجهي دهشة اخذت اردد: -

- ناقصات عقل وماذا..... صدقني تلك المقولة هي من وضعتنا في
مؤخرة الأمم، فهي تدخل في خضم التضليل الممنهج ومحاولات تزييف وتشوية
منعمد .

عاجلني جمال قائلاً بحده: -

- ولكن هذا حديث صحيح يا احمد

قلت بحسم: -

- لا أدري صحته ام ضلالتة ولكن اعتقد انه مبتور الصياغ أو هنالك غرض منه خلاف ما يتداول انا على يقين بان مقولات محمد الرسول تحتاج الى وضع صياغة محددة في التداول والاستدلال بها عكس ما هو شائع من تعميم خيم علينا صمت حزين شق علينا الخروج منه ، وحدة الألم اصبح واقعا لنا في هذه الحياة سرح كل واحد منا في همه الذي يعتريه كُـلُّ منا به مسحة حزن ، جمال جسدا حياً وروحه تائهة انفصل تماما عن الواقع كان زاهداً في حياه لم يحسن التصرف فيها كرس وقته كله للفكر الوهابي هرب الى قداسة الدين بمفهوم القشريات وصبغ المظهر ، يتمني الدخول في مملكة الرب ونسي اصلاح نفسه التي بين جنبيه أصبح غريب بذقن اشعث جلباب مهتري قصير وجسد خشن ، صب كل ما يحاك في نفسه من شجن كرها لسحر وامثالها من بنى جنسها لا يملك سوي ان يكتنم حزنه ويعيش دور الضحية المغدور في حبه ينتظر وعد السماء بتعويض الهي يجده في الحور العين ، كنت اعلم ان جمال يمر بخلل توازنه النفسي بسبب الانفصال وان اطلق عليها اخرين صدمة، نعم الصدمات تتساقط علينا جميعاً بطرق مختلف ولكنها تتفق في تلك الهزة النفسية القوية التي تجتاح كُـلـنا منا فتشل قدرتنا على التفكير السليم وطريقه تعاملنا مع الحياة وفي النهاية هي جزء لا يتجزأ من حياتنا مهما كان اثرها ولكن ان يكون اللجوء الى الرب ستاراً يوارى خيبتنا وسوء تقديرنا المعيب ونخاذلنا عن مواجهه النفس فهذا يسمى هروب انت واحدك .. نعم انت وحدك من تتحمل مسؤولية الخروقات التي اصابك كيائك وروحك انت وحدك المسؤول عن ترميم ذاتك ، غيرة الرجل الشرقي هي من عجلت باختيار مملكة جمال اعجابه حد العشق بسحر وتمسكه بذكورية زائفه هي من اوصله الى حافه ضنين ، هي نفس العجلة التي عملت على هبوط ادم من الجنة شهوة ، وتم اتهم حواء بها زوراً ، الجنس أولى الخطيئة التي اغوت ذكورتنا فهبطنا منها جميعاً ، زفرات حارة تخرج من جمال ودموع تنسكب على خده مبلله شوقه لحياه كان فيها من قبل ، الحب مكيدة الأقدار الخادعة يا صديقي يقربنا لمن نُـهـوي

فلا نري ما يُخبئ لنا القدر بعدها

- حزين على ما انتهى اليه حالي ويأس من تبدله

نطق جمال بكلماته تلك وهو سارحا في رحاب حياته الماضية متوسداً ذكرياته مع سحر وما بين العبرة ودموعه ، شهقة آابة غطت عليه حين غفلة من ذكورة لم يحسن استخدامها، هكذا نحن دائماً لا نقدر تلك اللحظات السعيدة مع من نحب حتى تتحول الى ذكري مزوجة بالحنين، تذكرت عندما كنا معا أيام الجامعة وبالداخلية نتبارى في لعبة الكوتشينة

(حريق) ونتجرع العرقي، وفي لحظة من غياب ذهن داهمنا آذان الفجر ينادي الصلاة خير من النوم يتناول جمال الجملة ساخراً

- الصلاة خير من النوم دي وجهه نظر المؤذن ومن وجهه نظري انا ما في أفضل من النوم

ضحكت في سري وانا اتناول ريموت التلفاز اقلب القنوات عسى ان يخرجني شيء مما انا فيهه ، اسعد انكب على نفسه ذكري ناهد تطعن فيه غدراً، احساس كثيرة تخالج عقلي تماوجت على مشاعري... تمني... يأس... تعاسه... شوق وحنين باي حق نعيش نفس الحياة مرتان نهاية حلمي البائس هربت من وطن يحمل القنوط رمزا للسلام، ما زالت استطعم لحظات الألم والهلع ما زالت ذكري فض الاعتصام ولون الدم تتسع داخلي لم أتعافى بعد من مصابي قلت ببرود:

- ليس لك الا ان ترجع لسحر يا جمال اعتقد هي في انتظارك طالما لم تتزوج بعد هي والبنات في انتظارك صدقني.

نظرات جمال كانت تحمل رجاء، غطت ملامحه بعض الامنيات وهو يتمتم بشي ما، قلت بثقة:

- دع هذا الامر لي احتاج فقط لطريقة تواصل معها ان شئت، سوف
ابحث عن المدخل المناسب فقط احتاج منك ان تقر بسوء تقديراتك معها أيها
العزيز جمال

قلت كلماتي تلك وابتسامه حانية ارتسمت على شفتي، لم اعني بجمال الا وهو
يحتضني ويكي بحرقه ولم حزنه على الفراق تذكرت تلك المقولة بان الحزن ليس
مؤشراً للمرض انه جزء متكامل منا، اذن فلتحزن يا صديقي وعبر عن حزنك
بالبكاء فالبكاء لنا أيضا نحن الرجال لكن لا تجعل اللجوء الي الله ستارا يوارى
ضعفك وتحاذلك فنحن مكلفون لمقارعه الحياة بكل خبياتها، اسعد اخذ يقلب
في دليل هاتفه يخرج رقم كتبه على ورقه صغيرة ومد يده قائلاً:

- هذا رقم سحر يا احمد

امسكت بالورقة وعيني مثبته على شاشة التلفاز إحدى القنوات الإخبارية
العربية تتحدث عن وصول مفاوضي الحرية والتغيير الى اتفاق مع عسكر
اللجنة الأمنية وتوقيع الوثيقة الدستورية ، لم اعني حديث المذيع ولكن الخبر
فتح قريحه الحزن داخلي على مضض حاولت لملمه احزاني بعد خيبة الامل
التي نبشت جسدي بتوقيع اتفاق بين المدنيين والعسكر كانت محنه الاستسلام
أكبر من ان تحملها وانا اري دماء الشوار تباع بدراهم معدودة عزائي الوحيد
انني لا أسمع نحيب الشهداء على الوطن والا اصابني الجنون ، يمزقني العتاب
تجتاحني عبره خانقة وانا اري أناشيد الفرح قران يتلي بحقبة جديدة للوطن قد
تطول بأثمار دم من جديد ، انكب على نفسي غارقاً في دمع حزني متشنجاً
جسدي، وشيح ليلة فض الاعتصام يأكل كل جزء فيني يهرع اسعد الى محاولاً
اكتشاف ما بي، جمال أصابه خرس عظيم ظل دون حراك يحاول فهم ماذا
حدث فلم يكن يعلم بمحتني .

يا أباي جاءت الساعة: مجد أبنك ليمجدك أبنك بما أعطيتهُ من سلطانٍ على
جميع البشر حتى يهب الحياة الأبدية لمن وهبتهم له. والحياة الأبدية هي أن
يعرفوك أنت الإله الحق وحدك

ليلة فض الاعتصام تشابه ليلة خيانة المسيح، يسوع يخاطب ربه

- ابتاه اسمعني الهفني ودافع عني ونجني من الافخاخ التي يصنعونها لي.

هل تعتقد ان رجلاً واحداً يستطيع ان يحمل أخطاء العالم، هل تستطيع ان
تدرك ان شعباً يستطيع ان يتحمل غلطات ساسته دوماً، صدقني ما من رجل
واحد يستطيع حمل هذا العبء انه ثقيل.

- بطرس اغمد سيفك فمن يأخذ بالسيف يهلك به ارم سيفك.

الثوار حولي ينشدون

- الليلة جهز كفنك يا انت يا وطنك

بطرس يخاطب يسوع: -

- اين ما ذهبت سأتبعك

يبتسم يسوع في الم: -

- الحق أقول لك قبل ان يصيح الديك لفجر اليوم سوف تنكرني

ثلاث مرات يا بطرس

قالها عمار على قبل التوقيع بيوم :-

- والحق أقول لكم قبل ان تجف دماء الشهيد ينكر الساسة الشعب
ثلاثة مرات

تتهافت قوي العسكر على ساحة الاعتصام الغدر شيمة العسكر الغدر شيمة
رؤساء الكهنة ومعلمو الشريعة يبحثون عن طريقة يقتلون بها يسوع لأنهم
يخافون الشعب، لقد باع العسكر الشعب مرات عديدة قبل هذا الوقت ،
خرج البرهان عقب فض الاعتصام ونكص على عقبيه وقال للشعب ان كنتم
تحبون الوطن فاتبعوني يبيحكم الوطن فخرجت الجحافل والجموع مطالبه براسه،
كانت الهتافات اشد وقعاً ولكن صدمه الموت أكبر خرج جُل الوطن الا من
اي، قال عمار يومها لمعتصم سليمان: -

- كل يؤخذ من كلامه ويورد الا مخبرات دول الجوار التي رتبت لفض
الاعتصام ثلاث مرات طباقا

العسكر لم يَدْرْ عَلَى اَرْضٍ مِنْ خِيَامِ الْعِتْصَامِ دَيَّارًا، كانت احقادهم تنلى نارا
من لظي

تذكرت عمار علي وطارق دفع الله وانا في كبوتي تلك بين يدي جمال يحاول ان
يهدي روعي واسعد يتلفت في حيرة يهرع الى تلفوني الذي يرن بقوة لحظتئذ
غمرتني الذكري وحنان تحتضني في الشارع بعد ان وجدوني تائها ذائع العينان
ترتجفان في محجريهما برعب اكرش على جسدي الحشن المتورم من الإصابات
والكددمات أظفري سوداء قذرة اثر دماء قديم على ثيابي رائحتي نته تدعو
للتقيؤ ومع ذلك احتضنتني حنان ضمتني الى صدرها وقبلت شعر خدي وهي
تبكي بحرقة، بدت لي زابله كمن سحبت روحها من جسدها نصبت الدموع
في مقلتيها اختفت ابتسامتها التي كانت تضئ وجهها اختفي وهج جمالها ،
وجدوني بجي الدخينات غرب الكلاكلة رجعت بصحبتهم الى منزلنا بامدرمان
بانث غرب كنت مسخ قدر الثياب تم ادخالي الى الحمام عملت حنان على
نظافتي وحلق شعر راسي الملبك بالأوساخ و ذقني الاشعث ، خرجت بعدها

منهك الروح جاحظ العينان انظر اليهم ببله، المنزل ممتلئ بالشوار وصيحات
الحمد بسلامة وجودي حياً تنساب من الافواه كلمات الابتهاال مصحوبة
بالدموع لرؤيتي من جديد ظل صمتي دهرا لا اعني ما حوالي كل ما في مشرب
بلون الكاكي وصيحات الجنود تصم اذني وطعم الدم في فمي ، مذهول
،عيناى جاحظة خائف من شيء قادم و لم استرح عندما ادركت حقيقتي
احتضنت ست البنات فشعرت بنبض الحزن فيها يلف جسدي طال احتضاننا
ونحيب امي يرح كيانى من انا؟

أنا الذي نزع الوحدة والفقء قبل الرحيل لذا كنت اخشى الجيء في طريق
الوعد ثورة من جديد، أفضل البقاء في رحم الغيب تائها عن كل هذا الضجيج،
الشعب يموت وجعا او برصاص قناص، وأنتم تساومونهم بخيارات البقاء وزراء،
تفتحون القبور ميعاد لفجعة اخري، سياسي وطني كم أكره إنانيتكم، العسكر
يعرفون تماماً رمزية الاعتصام يعرفون الأرض حول القيادة العامة التي تحولت
لكيان بروح وقوة تشد الاذر وتداوي الجروح لا مكان للإحباط وسط الجموع،
العسكر يعرفون الحلم الذي نبت في هذه الأرض، الاعتصام جسد بوجه
ولسان وعيون، قوة المطالب استمدت من اعتصام القيادة العامة فهو الذي
يدفع استمرارية الحراك والتقدم بالشعارات، الاعتصام هو القوة التي ترفض
الاستسلام ولا تدع أي فرصة للتراجع عن خيارات الشعب ، لذلك تم دكه
حقدا .

غرقت في غيبوبة تسوية مع الظلم لم افق منها الا في مساء نفس اليوم حوالي
الساعة العاشرة مساء كنت بمستشفي جدة التخصصي اثنى نفسي بوجود
حنان بجانبى يبدو انها النوبة التي كانت تعتريني بعد مجزرة الاعتصام عانيت
منها كثيراً لم يجد لها أطباء الوطن تفسيراً الا تبرير بانها حاله تعترى الأشخاص
ما بعد الصدمة فتحت عيني ببطء شديد كانت هناك كف تقبض حانية على
راحة يدي تتراى لي صورة حنان باهته كيف علمت ما بي واتت لي بتلك
اللهفة والسرعة قبضت على راحتها بكفي كما كنت افعل دائماً ، احسست

بأنى لست وحيداً بقربها منى، نظرت ناحيتها بشوق وانا اهمس باسمها يا اللهى
لم تكن هي لم تكن حنان كانت اخر من أتوقع ان يكون بجاني على هذا
الوضع خطفت يدي منها وانا اتمتم بشي ما، استغربت ردة فعلى حاولت ان
الملم نفسى نظرت اليها بذهول سمعت على الجانب الاخر من الغرفة صوت
اعرفه جيداً

- حمدلله على سلامتک يا احمد قلقتنا عليك

كان صوت روز كمال الدين تتكى على حائط مبكاها وتنظر الى بعفوية فتحت
فمي بدهشة وانا انظر لمدام انزوت بجاني بعد ان ضمت يدها التي كانت
قابضة على راحتي الى صدرها اقترب منى قائلة: -

- حمدلله على سلامتک

كانت أنفاسها تتداخل مع انفاسي لهفه شفائفها تخنقني، شعرت للحظات اننى
اخون حنان وان هذا الوضع لا يليق بي ستظل لحنان تلك السطوة التي لا
إرادة لي عليها، خاطبت خيالها في سري لم أكن انا من قام بدعوتهن يا حنان
فلا تتعدي معرفتي بمن الا ساعات، سألتهن وانا اسند راسي على الوسادة: -

- اسعد وين

ردت روز وعلى عيناه شيء من الغيرة

- مع الطبيب في الخارج لحظات انده عليه

ترددت روز في المغادرة بشكل واضح اخذت تنظر الى مدام انزوت التي ملمت
بعض من عبأتها وقامت بتغطية راسها بعد ان انسدل غطاءه من عليه، هبت
واقفه مثل فرس عربي اصيل متمرس وعلى شفيتها ابتسامه احترت في تفسيرها

- حمدلله على سلامتک أستاذ احمد ممكن تأخذ راحتك ليوم غدا

قالت كلماتها تلك وخطت اقدامها خارج الغرفة تتبعها روز التي خرجت دون

أي كلمه وداع، أدرى ماهية ما يجري حولي فانا رجل في سن تسمح له بقراءة غيرة وشهوة النساء فالأمور الواضحة تأخذني الى مجهول غامض يكفي ما بي من علل، بعد حياتي تلك ما الذي سوف يبقي داخلي ليحترق من جديد ارجو ان لا تبحت روز عن والدها داخلي وان كنت شبيهه، ما حيرني فعلاً هو تصرف مدام انزوت الجرئي هذا، صرفت تلك الأفكار وصوت اسعد يرح في الغرفة ضاحكاً: -

- حمدلله على السلامة يا روميو

ظهر جمال من خلفه ينظر الى بنظرة تجمع بين الفضول والحيرة

- انت بتعاني من شنوا بالضبط...؟

- اعتقد انها اضطرابات ما بعد الصدمة فقد شاهد احمد مجزرة فض الاعتصام ونجى منها بأعجوبة ظل لأكثر من شهرين يعني من كوايبس وانها عصبى حاد وبمجرد التعافي الاولي منها ، جاء الى السعودية.

اعتقد ان اسعد ملم نوعاً ما بحالتي النفسية فقد شرح لجمال وضعي، كنت اشعر بكآبة غريبة تحط على قلبي بلغت من الشراسة ان أصبحت أجد تلك المتعة الخفية في التعاطف مع حالتي مع علمي التام بان تعاطف الاخرين لن يغير ما بي ولكنه يدخل في نفسي هذا الشعور النفسي بالاهتمام الزائف، أصبحت احبذ تلك العتمة داخلي لا ابحت عن شمس ذاتي الا في حضن الاخرين.

- لكن ما قلت لي دي صاحبه المدرسة الح تشغل فيها موش ..؟

اعقبها بغمزة من عينه اليسرى وابتسامه خبيثة اسعد يحاول ان يخرجني من حالتي النفسية يحاول ان يجعلني أتكلم.

- ايوة مدام انزوت قلت بضيق

- واصل اسعد ألا سلوب نفسه مع ابتسامه عريضة: -

- والمدام دي بتمشي لكل أستاذ في الاصطاف تتطئمن عليها إذا مرض
يرد جمال هذه المرة: -

- لاا اعتقد الزيارات دي خاصة لمن لهم ود يا اسعد، ما تنسي هي ما
قامت بدفع نفقات المستشفى كمان

هذا أقصى ما كنت اتمني ان اسمعه وانا في تلك الحالة ابتسمت بضعف،
والطبيب السوداني يدخل علينا ويقوم بأجراء بعض الفحوصات على، ثم يصرح
بخروجي فلم تكن بي عله جسدية فقط كانت روجي التي تبكي الغرق.
سال اسعد الطبيب الذي وضع يده على ساعدي يفحص نبضي

- الحالة دي ممكن تجهو تأني يا دكتور

- هو كويس خالص كل الفحوصات كويسة السكري الضغط مستوي
الكولسترول كلها جيدة الحمدلله

نظرت الى الطبيب بنصف عين وفي ما بالي تلك المقولة التي سمعتها على لسان
بطل فيلم

Years A slave12

- I donot want to survive I want to live

عرفت من اسعد انني قد دخلت في اغماء وتشنج حاولوا معي هو وجمال ولم
يفهموا ما بي الى ان ارتفع رنين تلفوني فقد كانت المتصلة روز رد عليها اسعد
اوصتهم بضرورة الذهاب الى أقرب مستشفى ختمت حديثها سوف نتقابل
هناك مسافة السكة فقط

داخل ساحة الاعتصام بدأت ملامح اليوم ، منذ ليلة أمس كان يومٍ ماطرٍ
 بالحنين مشبع بالأشواق المترهلة خلف ينبوع النبض، تبقى الحروف ممتثلة
 لامتنان المشاعر صيحات الروح واهات الضلوع من جانب التجرد والوجع،
 نعم لقد سيطرت علينا تضاريس الخيانة فقدنا ذاتنا وأخلاقنا فقدنا كل شيء
 حتى ذلك الشغف الذي كان يبني حياةً بأكملها يحاولون ركله امامنا ياااا
 ويحي من غباء الساسة وحرزنا على المفارقين الشهداء ، حزنا الذي ضمنا
 اليه مثل صديق حميم لم نتصور انه سوف يلازمنا وطناً يسكن فينا و ينخر
 داخلنا بمهل ، طالعتنا صورة عوض ابن عوف وهو يتلو نداء عزل المشير
 البشير وتعين شخصه رئيساً للمجلس العسكري الانتقالي ، كنت اقبض على
 لفافة تبغ بيدي اليسرى وعلى الأخرى اعواد الثقاب عندما وصل الى مسامعي
 صوت عمار على يخاطب نفر من الثوار

- هذا جنون يأسادة كيف تنهي ثورة ديسمبر هكذا الهدأ كان الدم
 قربان؟

لم أقوى على البوح انها رياح القلوب انها غدق الروح وتنهيدة تعتمر في ثنايا
 النبض وتثبت مخاوفي، تشطب كل الازمنة وتترك في الوجد غيمة من حزن
 وانقباضات قاتلة، أصابع يدي مرتعشة تحاول اشعال عود الثقاب تفشل كل
 مرة، حنان تتابع قلقي من بعيد وعلى وجهها وجم من مستقبل تري ملامحه
 الان، حاولت جاهداً التماسك وهتافات الثوار حول محيط القيادة العامة تندد
 ببيان الفريق ابن عوف

- تسقط ثاني .. وتسقط ثالث

ومن منا لا يدري الحقيقة هل يتركونا لخياراتنا التي تُعاكس مصالحهم فينا، سلام على ذلك العطش الذي في ارواحنا للانعتاق، سلاماً على ممتلكات صمتنا وكلماتنا وشعاراتنا التي تمجد التفاصيل الكاملة للوطن، السلام علينا وعلى شهدائنا شوقاً لا ينضب في ضلوعنا مع الهتاف

لم تمضي الأيام سدي فالأميرة كامنه تحاك على مقربة منا ونحن منتشين بالفجيرة قبل البيان بليلة اجتمع المجلس العسكري مساء بقيادة الفريق اول عوض ابن عوف ونائبة كمال عبد المعروف جلس جلال الشيخ مقابل لرئيس الاجتماع وبجانبه الطيب بابكر والفريق اول مصطفى محمد مصطفى ضم الاجتماع لأول مرة عدد من عناصر اخري غير التي كانت ضمن اللجنة الأمنية للبشير الفريق الركن محمد عثمان الحسين والفريق اول الفرضي المطري والفريق اول طيار صلاح عبدالحال والفريق ياسر العطا والفريق شمس الدين كباشي دخل عليهم من الباب الخلفي قائد قوات الدعم السريع مؤديا التحية العسكرية التي عجز عن اتقانها بطريقة الصحيحة الامر الذي ادي لسخط الفريق ركن مصطفى محمد المصطفي فهو لا يخفي حنقه تجاه قائد الجنجويد تلفت الحضور بحثا عن مدير جهاز الامن والمخابرات الوطني الفريق صلاح عبدالله قوش الى ان قام رئيس المجلس العسكري عوض ابن عوف بفض خطاب مروص باسم جهاز الامن والمخابرات الوطني ابلغ المجتمعين فيه باستقالة الفريق صلاح عبدالله قوش ارتسمت علامات الدهشة على بعض الوجوه فيما لمعت ابتسامه باهت على شفتي قائد الدعم السريع ، لم ينتهي الخطاب عند هذا الحد فقد كانت هنالك توصية صغيرة من مدير المخابرات المستقيل بتعين الفريق اول أبو بكر حسن مصطفى دمبلاب خلفاً له. وضع محمد حمدان دقلو كابه على منضدة الاجتماعات وهو يطيل النظر الى وزير الدفاع الذي تنجح وقدم مقترحه بان يتم تعين قائد قوات الدعم السريع نائبا له.

قبل هذا الاجتماع بنحو ساعة كانت طائرة بدر للطيران تعلن الهبوط على

مطار القاهرة الدولي وعلى متنها مدير جهاز الامن والمخابرات السابق يحمل شنطة صغيرة عليها جهاز لاب توب MacBook Pro يحتوي على كامل الداتا الخاصة بالسودان أخطر عملية اختراق تمر على الوطن منذ حقبة عجوبه الحربت سوبا. كان في استقباله شخصية مصرية هامة بصاله كبار الزوار وكأن الزيارة معد لها سلفاً من مظاهر الاستقبال التي قد توحى بان القادم كان في مهمة رسمية شديدة الخطورة تخص البلد القادم اليها.

تداول الاجتماع وضع البلاد وأعلنت اللجنة بالأجماع تولي وزير الدفاع مهام الحكم وعزل البشير وكان الجدل حول من يتولى تبليغ المشير من ضباط الرتب العليا الى ان اقترح عوض ابن عوف صديقة الفريق عبد الفتاح البرهان واللواء مصطفى محمد المصطفي الاستخبارات العسكرية واللواء محمد عثمان الحسن.

القيادة العامة للقوات المسلحة السودانية ليلة الخميس الحادي عشر من ابريل ارسال برقية مستعجلة الى الفريق عبدالفتاح البرهان بضرورة تواجده بالقيادة العامة لأمر هام ، اللواء مصطفى محمد المصطفي يحمل توصيات اللجنة الأمنية العليا ويعطي الأوامر بضرورة تغيير كتيبة الحراسة حول بيت الضيافة محل إقامة الرئيس البشير المكونة من 120 جندي ، يصل البرهان الى مباني القيادة العامة مع قرب الفجر محمر العينان به ارق يدلّف الى مكتب وزير الدفاع يؤدي التحية العسكرية للمجتمعين هنالك يشير اليه صديقة المقرب عوض بن عوف بالاقتراب يبلغه بقرار اللجنة الأمنية العليا بعزل المشير من رئاسة البلاد تظهر علامات الاسي على وجه الجنرال عبدالفتاح تتكوم بعض قطرات من ماء مالح على جبينه وعينييه ، تهنز اطرافه وهو يطلع التكليف بإبلاغ المشير عمر البشير قرار العزل يلتف يمنه ويسري ،حاله من الوجوم تسيطر على جنرالات الجيش منكبين على وجوههم يبدوا ان حديث البشير لعوض ابن عوف وكمال عبدالرؤوف بضرورة فض الاعتصام قد اثار حفيظة بعض جنرالات اللجنة الأمنية ، لم تمضي لحظات حتى كانت خطوات اللواء محمد عثمان الحسين واللواء مصطفى محمد المصطفي رئيس الاستخبارات و الفريق عبدالفتاح البرهان

تلامس ارض بيت الضيافة توقف ثلاثتهم على باب محل الإقامة الذي كان اشبه بثكنه عسكرية بعدد الجنود حوله ، المشير البشير مستلقي في استقبال محل اقامته يتحدث مع اخوة عبدالله البشير وعلى وجهه سخط بائن ، وقف المشير وهو يحاول الاستماع الى الحركة خارج محل اقامته مع صوت المحتجين الذي خف كثيرا في تلك الساعات الاولي من الفجر ، دخل ثلاثتهم يتقدمهم قائد الحرس ادي الأربعة التحية بقوة وتقدم البرهان مصافحا البشير الذي احس بان هنالك امر غير طبيعي نظر الى قائد الحرس وسأله :-

- انت منو وين عبد الحميد

ادي قائد الحرس التحية مرة اخري ورد على استفسار الرئيس

- معاك نقيب احمد محمد سعد سعادة الرئيس

هنا تقدم كلا من محمد عثمان الحسين ومصطفى محمد المصطفى بالقرب عبد الفتاح البرهان خلع كل من الضباط بما فيهم البرهان الكاب ووضعوه امامهم قابضين عليه بيديهم الاثنین وناظرین الى الأرض، وقف البرهان بأدب جم والرئيس يجلس بالقرب من اخوة عبد الله فقد بداء واضحا ان هنالك رسالة يحاول الضباط إيصالها له تنحج الفريق عبد الفتاح واخرج ورقة من جيبه وقراء: -

- سعادة الرئيس ان القوات المسلحة والأجهزة النظامية قررت الانحياز للشعب، ونحن مكلفون بتوصيل هذا القرار لسيادتكم، وسوف تبقي بيننا معزز مكرم ولن يمسك احدٌ بسوء.

طوي البرهان الورقة ووضعها في جيبه وتراجع الى الخلف ثلاث خطوات ادي التحية العسكرية مرة اخري وهو يتحاشى النظر الى البشير والذي ومن تلك اللحظة أصبح الرئيس المخلوع في عرف الثوار والسابق في عرف العسكر.

حذق المخلوع في ثلاثتهم واطرافه ترتجف حاول ان يبتلع ريقه اخذ منظاره

الطبي من على المنضدة التي امامه وبجهد جهيد ارتدي النظارة بعد مساعدة أخيه عبد الله، وقف الأخير غاضباً اخذ يزيد ويشتم الضباط: -

- انتو خونو ... انتو جيناء ما فيكم راجل واحد انتو عارفين الحاصل دا خيانة.... خيانة دا نقض لليمن

اخذ اخ المعزول يسب الضباط بانفعال وغضب الى ان وقف البشير مترخاً استند على يد اخية العباس الذي خرج منزعجاً الى الصالة وشاهد انفعال عبد الله في الضباط الذين تطأطؤ رؤوسهم تقدم البشير في مشهد تراجيدي مفتعل يحتاج الى موسيقي حزينة لتكتمل فصولة وقف امام الضباط الذين يتوسطهم البرهان وقال بحزن مصطنع: -

- القرار دا بالأجماع

لم يرفع البرهان عينه من على الأرض ولم ينظر الى البشير منذ ان تلي ورقة قرار التنحي وبنفس تلك الهيئة قابضاً على الكاب حول صدره بيديه الاثنتين ناظراً رد على المخلوع قائلاً

- نعم سعادتك بالأجماع

اعطي المعزول ظهره للضباط مسنوداً على ايادي اخوانه العباس وعبد الله وقف لبرهة نظر الى صورته على الحائط الغري تحسس بيد مرتجفة علم السودان الذي على مكتبة وقال:

- ابقوا عشرة على البلد

تحرك المخلوع يجر قدميه وهدير المعتصمين حول القيادة بدأ في الصعود، وقف لبرهه نظر الى وجوه من هم حوله ثم خفض بصره الى الأرض في تسليم تام لقد اذفت الأذفة، تري كم من الدروس نحتاج حتى نعي ان الحياة لا تدوم على حال واحد، الان تترامك النهايات فتصبح هي جغرافيا المكان متقلبة من

حظيرة الماضي الذي اتسع حتى ضاقت به المسافات فتتبدل المعاني لكي تتسع
لنهايات اخري لتكون مستعدة لتقبل بدايات جديدة كيف خرج عبد الفتاح
البرهان على المتظاهرين في ارض الاعتصام

لم يكن من ضمن لجنه البشير الأمنية ولم يكن من ضمن المجلس العسكري
الانتقالي الأول وحتى انتقاء عوض ابن عوف له في بعض اجتماعات اللجنة
الأمنية العليا من باب الصداقة لا أكثر

سمعت صوت عمار علي متسائلاً: -

- انت الرتبة البتتكلم مع إبراهيم الشيخ عارف اسموا.

نظرنا الى حيث يشير عمار، الشخصية هادئة ملتزمة او هكذا ظننا الضابط
يحاول بث الطمأنينة في الثوار المتجمعين حولهم وإبراهيم الشيخ رافعا يديه الى
اعلى، اخذت انظارنا تتابع الحديث الدائر بينهم محاولين التقدم إليهم الى ان
استوقفنا معتصم سليمان قائلاً: -

- لا حولاً!!!!!! دا البرهان

قلت باستغراب

- ومن يكون البرهان هذا برهان رب العالمين يعني شنوا هو

اخذني معتصم سليمان من يدي وهو يشير للبقية بان يتبعونا تحركنا وسط حشد
غزير من البشر تجاه جامعه الخرطوم السنتر جلسنا على شارع المين نستمع
لأغرب القصص لشخصية سوف تكون محور الفعل القادم في الوطن ومنذ ذلك
اليوم امتد الحزن مزيدا من السواد في وطن مهزوم، اخذت انظر لصور الشهداء
على جدران الحياة اراها واري نورها فتصاب راسي بأسئلة

من باع الوطن العسكر ام الساسة.....؟

لقد تم اغتيالنا عن عمد تم قتل ارواحنا، نعم أيها الرفيق كانت مجزرة.... مجزرة... الجنود كأهم في حاله حرب متعجرفين منتفخين قساه متجبرين، ليست دمائنا من سلبوها لقد سلبوا ارواحنا اخذوا مفاتيح الرحمة التي في قلوبنا ، قتلوا اغتصبوا احرقوا وأغرقوا الكثير احياء في النيل اخذوا ارواحنا وشهدائنا واعطونا القلق والخوف والشroud لقد انتقموا من الوطن فينا الوطن يستعيد بنا من العسكر ويلوذ بنا من عبده النظام السابق .

لا اعرف كيف أرتب الخوف داخلي هل اطبب على كتفي وانثر ضحكات الألم كذباً في وجه الوطن الجريح كيف اكذب عليك وامطار الغل تقطل منهم تروي ملامح شعبي العطشى لفجر جديد، لم يكن خروج عبد الفتاح البرهان في ذلك اليوم الا مؤامرة اظهار الرجل للشعب بالأخص ان تاريخ الرجل غامض غير معروف للكثيرين، جلسنا على نجيله كلية الآداب جامعه الخرطوم ومعتصم سليمان يخاطب أحد الثوار يحمل حقيبة بها قوارير مياه للشرب

- لو سمحت يا أصلي ممكن نأخذ من الموية دي

- طوالي يا مكنة اتفضل

تتخاطف الايادي قوارير المياه تروي عطش أفوه ظمأت بالهتاف، جلست حنان بالقرب مني فيما تحلق البقية عمار وطارق وبعض الثوار معارف معتصم حولنا

- يا شباب عايز افهمكم حاجة عوض ابن عوف معروف انو تابع

للتنظيم الإسلامي واعتقد ان وجوده على رئاسة المجلس العسكري كان من اجل التغييش نفس حركة

(درديق مرسي) وتنظيم الاخوان المسلمين في مصر

- قصدك شنوا وضح لي انا اكثر تسال أحد الشباب
نظر اليه معتصم وقال: -

- لازم نعرف اناو أي قراءة للمشهد الان في السودان بدون استصحاب
التدخلات الإقليمية حتكون ناقصة

- اتفق معك ولكن الدخل الكلام دا شنوا في وجود الضابط القبيل
لاقيناه مع إبراهيم الشيخ قالت حنان: -

- اعتقد ان الضابط دا نفسو الممكن يكون مرشح إذا تنازل عوض ابن
عوف عن رئاسة المجلس العسكري المكون الان

- يا اخينا لا مجلس عسكري ولا يجزون مدينة بس هتف أحد الشباب
تحدث عمار علي لأول مرة من بداية الجلسة: -

- لازم نعرف حاجة لا المجتمع الدولي ولا الإقليمي ح يرضي ان الجيش
يكون بعيد من مركز القرار معركتنا الان ليست مع منظومة البشير بقدر ماهي
معركة مع توجهات استخبارات لدول عايزة مصالحه تكون موجودة في السودان
بغض النظر عن الموت الحاصل .

عقدت حنان بين حاجبيها وقالت: -

- يعني الدول دي ما ح تخلي خيارات الثوار في المدنية هي الأساس

- بالضبط كدا أقرب مثال للكلام دا دخول السودان في حرب اليمن
إذا جات حكومة مدينة اول قرار هو الانسحاب من الحرب دي والكلام دا

ح يضر كثيرين طبعاً عشان كدا ما حيسمحووا بيهو اطلاقاً

قلت بعد تدبر : -

- وما تنسي أولاد فوزية في الشمال أيضاً لهم مصالح قوية في السودان
باعتبروا السودان الحديقة الخلفية ليهم ووجود حكومة مدنية من الصعب ان
تراعي مصالحهم في السودان التاريخ شاهد على كلامي دا
حاول أحد الثوار الحديث لكنى قاطعته قائلاً: -

- يا ريت يا معتصم تورينا انت بتعرف شنوا عن الضابط البرهان دا، ولي
قلت انو ممكن يكون المرشح الأول بدل عوض ابن عوف

رفع معتصم سليمان راسة يحاكي متحدثين اركان النقاش زمن الجامعة سرح
قليلاً متمعنا في وجوهنا وقال: -

- البرهان دا بلدياتنا طبعاً من شندي وصاحب حسين خالي، انت
بتعرفوا يا احمد بتكون شفتوا لمن جيتو عرس بتو كان ضابط برضو زمن نميري
ونزل معاش وبحكم المنطقة والعمل وبرغم فارق العمر كان عبدالفتاح البرهان
دا صديق ليهو وكل ما يجي (قندتو) ودا اسم قريتنا قريب شندي كان بجينا في
بيت خالي في فترة كدا اعتقد مشي الصين ملحق عسكري هناك، البرهان دا ما
عندوا أي علاقات خارج الاهل او الجيش حتى في الجيش كان الوحيد البجيهو
عوض ابن عوف دا.

- يعني علاقتو بعوض ابن عوف حتكون سبب كافي يكون مرشح من
قبل الجيش للمجلس، الأمور بتمشي بالعلاقات والصدقة في الجيش برضو..؟
سألت حنان

اخذ معتصم قارورة المياه ارتشف منها قليلاً ثم قال: -

- صبرك على شوية يا حنان أكمل ليكم عشان الرؤية تتضح بشكل

بعض ممتازة

نظرت الى عمار علي بفضول وقلت: -

- ياخ دا كلام غريب لإنو على ما اذكر ان عبد الغفار الشريف دا نفسو هو مقدم مقترح الاستفادة من حميدتي بتحويل قوات حرس الحدود الى قوات دعم سريع، ياخ دا قدم دراسة بمسمي (قدس) قدمها للبشير ووافق عليها .

أؤمي معتصم لنا و واصل :-

- بعد رجوع صلاح قوش مرة ثانية لموقع مدير جهاز الامن والمخابرات خت عبد الغفار في راسو ومعا هو كم شخص من ضمنهم طه الحسين العندو علاقة قوية مع حميدتي، الوقت دا عبد الغفار كان مدير الامن السياسي وبمجرد عودة قوش بضغوط أمريكية على البشير فعل قانون او حملة اطلق عليها القضاء على القطط السمان وبموجب القانون او الحملة دي تم سجن عبد الغفار الشريف بتهمة استغلال النفوذ وتم الحكم عليه بالسجن سبع سنوات وأيضاً اتهم بالسلوك غير اللائق وتم الحكم عليه بالغرامة بمبلغ 7.4 مليون جنية ومبلغ 65 الف دولار ، الخامي الكان بدافع عن عبد الغفار الشريف دا اخو عبدالفتاح البرهان الكبير اسمو حسن عبدالرحمن البرهان عرفتوا العلاقات دي متقاطعة كيف .

صمت معتصم سليمان ونظرة يتجول في وجوه المخلقين حوله، لا أدري ما اصابني من وجم تكورت على نفسي اعتزل سمعي سماع المزيد، الثورة إذا صدق حديث معتصم راحلة الى منحدرات من نار، لا نتوقع ان يكونوا رحماء بنا، لكننا لن نغادر سنبقي هاهنا في عزلتنا تلك وبهتافات حناجرنا السلمية سنبقي في امان الوطن الذي نحب، لم يكتفي معتصم بما قال أصر على صب مزيد من القلق على نيران تربصنا المخيف استطرد قائلاً: -

- قبل كم سنة وبعد اختفاء البرهان عن منزل خالي حسين ظهر فجاءة وكحال السودانيين في لمه الاهل والأصدقاء استرسل البرهان عن المهمة التي كانت على عاتقه في الفترة الماضية والتي حرمته من زيارة مسقط راسة فقد كان الضابط المسؤول عن عملية تنسيق وارسال الجنود السودانيين لليمن وتحدث بشيء من الفخر عن تلك المهمة التي جمعته بمدير مكتب البشير طه الحسين ووطدت العلاقات أكثر مع قائد مليشيا الدعم السريع، ولم ينسى البرهان مدح، وكرم من نقاتل باسمهم في اليمن فالوطن معروض في سوق النخاسة الكبير

اصابني غثبان مؤقت وحنان تقبض على راحة يدي بشي من حرص استمعت لحديث معتصم سليمان وكلى امل ان تكون تلك هرطقات نائر لا أكثر، لم تمضي ساعات من حديثه حتى طالعتنا صورة نفس الزول على شاشات الهاتف المحمول لقد استقال عوض ابن عوف تحت ضغط الشارع ولكنه عين خليفه له عبد الفتاح البرهان الذي لم يكن من ضمن أعضاء مجلسه العسكري ، وتسألني أيها الرفيق من وضع فوهات المدافع على الجماجم ، جاء صوت الجنرال مثنووب بفعل السهر يتخلله شماته في الوطن من القادم (اعلن انا رئيس المجلس العسكري الانتقالي التنازل عن هذا المنصب واختيار من اثق في خبرته وجدارته بان يصل بالسفينة الى بر الأمان وبعد التفكر والتشاور اعلن عن اختيار الفريق اول عبدالفتاح البرهان ليخلفني في رئاسة المجلس العسكري الانتقالي) ،الوطن رهينه باسمهم الان، التاريخ بمفرداته الحالية هو الحقيقة لقد تم تضليل الثورة والثوار رسمت خطوط المؤامرة فالتقت بالحدث الفعل خارج مزدوج البداية، البرهان ، حميدتي ،عبدالغفار الشريف ،طه الحسين، من يدير تركيبة المفردات، بدأت الأمور الان واضحة لقد استقرت في دائرة اسواء الاحتمالات.

مرت ستة أشهر وانا بالمملكة واطبت خلالها على توطيد علاقتي بالسودانيين بالحي الذي أقيم فيه و بالعمل بمدرسة المنار الخاصة أستاذاً لمادة التاريخ والرياضة والفنون والموسيقي أستاذ شامل هكذا احكمت مدام انزوت وثاقي في المدرسة كنت الأستاذ المفضل لديها، خفف وجود

روز بجاني توجسي من مدام انزوت، صاحبت أستاذ عباس اتخذته صديقاً لي ليكون طوق نجاة مؤقت في حال لم أتمكن من قضاء جزء من اليوم مع روز ، كنت اقضي اغلب الوقت المخصص بدون عمل معه عندما تكون روز مشغولة ، اشهر ابتسامه سخية في وجهه كل صباح يقابلها بلهفة ضاحكاً ويسترسل في حكي احاديث عن حياته المملة ومن ثم يقوم بعزومتي على اكلة سودانية قامت زوجته بطبخها يخرج اواني من اسفل مكتبة ويقوم بصب عصيدة وعليها (ملاح) (مرس) او (كول) حاولت ان اجد مبرراً للهروب من تناول الطعام بانني مصاب بمصران عصبي ونوعية الاكل تتعبني وكعادة السودانيين في مثل تلك المواقف كان يقسم بكل المقدسات لدية من رب العالمين الى (على الطلاق) ان اتناول معه الغداء باصرار مبالغ فيه قد يصل لدرجة الزعل في بعض الأحيان اذا رفضت بحسم، فيقوم باجلاسي بالقوة ،دائماً ما يتلوث المكتب برائحة تلك الاكلات فلا تنفع المعالجة بالبخور ولا بالعطور الهوائية نفتح النوافذ عسي ولعل ان تأتي بنتيجة وبعدها اقف ماداً يداي على صنوبر المياه ادعك عليهما بالصابون السائل تارة وبالليمون تارة اخري ، فوجئت يوماً ونحن نتناول ام فتفت في صباح شتوي بارد على مكتب أستاذ عباس بـروز تُطل علينا من الباب اخذت تنظر الى باستغراب ودوي

التجشوء يصدر مني بعنف وجسدي يهتز ، نظرت اليها بببل وانا امضغ شريحة
بصل مصحوبة مع قرن شطة وقطعه كبده نيه واستاذ عباس يدعوها بتلقائية
وعفوية سودانية ساذجة ان تتناول معنا الإفطار وضعت المسكينة يدها على
فمها الصغير والأخرى على بطنها بعد ان جحطت عينها وهي نظرت الى
الصحن التي تفرقت عليه قطعات المرارة و الكبدة النية متداخلة مع شطة
خضراء ممزوجة بالدكوة ،هرولت الفتاة خارج المكتب تتبعها نظرات عباس
مستغربه ردة فعلها تلك، قلب كفية بحيرة وهو يقول بغباء محكم :-

- البت دي حامل ولا شنوا !!!

ومن هذا اليوم وصلت لقناعه بان اتوقف عن تناول هذا النوع من الطعام مع
عباس في المدرسة وتحججت بان وزني زاد، وليكن فلتظفر بي مدام انزوت ولكني
لن اتناول طعام أستاذ عباس مرة اخري ولو وقع ما وقع، احسست برهبه
حقيقية بعد ان دعني المديرية الى مكتبها في نهار اليوم نفسه لم اري روز في بقية
اليوم لا أدري ما أصابها ماذا تعتقد كنا نتناول هذا جزء من ارث بلد والدك
صغيرتي الم تطليبي مني في وقت سابق ان تعرفي تاريخ اصلك، طرقت على باب
المديرية استأذن الدخول

- ادخل

دخلت محاولاً تجاهل نظراتها إشارات الى بالجلوس على المقعد امامها كنت على
يقين ان مدام انزوت تعلم انني التحاشي اللقاء معها منفرداً طيلة الفترة الماضية
نظرت الى وهي تسلمني بعض الأوراق وقالت

- أستاذة روز اليوم مريضة لا أدري ما بها ولكنها خرجت الى المنزل
للراحة خذ هذه الأوراق لمكتب الوزارة وبعد الانتهاء منها ارجو ان تمر على في
الفيلا مساء اليوم لإرجاعها فانا احتاجها صباح غد لأمر هام

قالت كلماتها تلك ونظراتها مثبته على ، شاهدت صورتي منعكسة في بؤرة

عينها تعثرت داخل سوادها الشبق فانا رجل أدرك كيد النساء في الغواية هممت ان أرد عليها بأني سوف أكون عند صلاة الفجر في المدرسة ان ارادت هذا ولكنها وقفت مثل فرس جامع كانت العباءة مفتوحة من الامام فظهر ما تحتها من صدر نافر متأرجح وبدات الاستدارتين بشكل واضح واثرت حلمتيها نافرتين اصابني خرس وذهول كان جسدها مثقل بالأنوثة كحديقة في الجنة تصببت عرقا وانا اراها تتقدم ناحيتي من الخلف وضعت يدها على راسي ومررت سبابتها والوسطي على خدي ببطء الى ان وصلت المنطقة التي تفصل اذني عن منبعه فأخذت تمررها الى ان احسست بدوخة تسري في جسدي خفت ان افقد من خلالها توازني انتشاء ومتعته همست على اذني بنعومة :-

- الأوراق محتاجها ضروري اليوم يا احمد

انكمشت على نفسي لا أدري ما بي كيف لي ان احافظ على اتزاني وانا رجل قد عاهدت ربي انا اقهر نزواتي، وقفت دون تردد نظرت اليها وقلت

- ان شاء الله امر عليك

تحركت اقدمي الى خارج المكتب كمحاولة أخيرة مني على كبح التوتر داخلي لا اعرف كيف سوف تكون النهاية إذا فضلت المكوث أكثر من هذا كنت أجد نفسي عاجزا عن بلورة احساسي او اتخاذ إي خطوة في طريق غوايتها، الى ان هبط خوفي من ان أفسد زياراتي التي كانت لبيت الله في الفترة الأخيرة فقد وقفت حاجزاً بيني وبينها صامتاً طمعا وخوفاً، ومع خروجي لاحت لي حنان في صورة ملاك بجناحين وهي تصفق لي بحماس وتقول: -

- ها قد تفوقت على رابعة العدوية يا احمد ولم تنقض عهدك

ابتسمت بتوتر وانا اتلصص على ذهني وحديثي مع حنان داخله: -

- لقد كرهت ان أؤنس عهدي يا حنان، ولكن كيف تفوقت على رابعه العدوية

صمت صوت حنان داخلي، وللصمت في محراب حنان حب وتراتيل تذكرت ما قصته لي عندما كانت على حضني بعد يوم عمل شاق رفعت راسها ووضعت قبله حب سريعة على شفتي وقالت: -

- كم جزء خلق الله الشهوة يا احمد

نظرت اليها باستغراب: - ما فاهم سؤالك وما عايز فلسفة يا حنان قلت ضاحكا ضممتها الى صدري شعرت بنعومة جلدتها العاري على، استكان راسها على صدري واحاطت جسدي بيديها كأنها تستجير بحضني كانت خاضعه بكل ما فيها لي، ضممتها أكثر حتى لامست دقات قلبي ما كان ينبض بداخلها كنا في حاله سمو روحي حقيقي بدأت انفاسنا تتراخي ووجهه حنان يزداد اشراقاً قالت وهي تغمض عينيها في هيام واضح: -

- انت عارف إذا لم تكن انت نصيبي فليس لي رغبه في أحد غيرك

همت بقول شيء الا انها واصلت حديثها قائله: -

في قصة شهيرة بين الحسن البصري ورابعة العدوية هل سمعت عنها نفيت معرفتي بالقصة واصلت حديثها بنفس وضعيتنا قائلة الحسن البصري طلب من رابعة العدوية الزواج

فقالت له: - إن أجبتي على أربعة مسائل فأنا لك

فقال: سلي إن وفقني الله تعالى أجيبك.

قالت: ماذا تقول لو مت وخرجت من الدنيا... أخرج على الإيمان أم لا؟

قال: هذا غيب ولا يعلم الغيب إلا الله

قالت: ماذا لو وُضعت في القبر وسألني منكر ونكير... أقدر على جوابهما أم لا؟

فرد عليها: هذا غيب ولا يعلم الغيب إلا الله .

فسألت: إذا حشر الناس يوم القيامة وتطايرت الكتب... أعطى كتابي يميني أم بشمالي؟ نظر اليها الحسن البصري مستغرباً وقال: هذا غيب أيضاً يا رابعة اذن جاوبني على اخر سؤالي عندي: إذا نودي للناس، فريق في الجنة وفريق في السعير... كنت أنا من أي الفريقين؟

ضحك الحسن البصري وقال لها ماذا تقولي كل ما قلتي غيب لا اعلمه.

هنا وقفت رابعة وقالت مستنكرة: من كان له غمّ هذه الأربعة كيف يشتغل بالتزويج؟

استدرك الحسن البصري ما ترمي اليها العابدة الزاهدة الا انها عاجلته بسؤال اخر: -

- يا الحسن أخبرني كم جزءاً خلق الله العقل؟

رد عليها وعلى وجهه شيء من الحيرة عشرة أجزاء، تسعة للرجال وواحد للنساء .

ابتسمت الزاهدة وقالت: يا حسن، كم جزءاً خلق الله الشهوة؟

هنا توقف الحسن البصري ونظر الى السماء وقال بهمس: عشرة أجزاء، تسعة للنساء وواحد للرجال .

ختمت رابعة كلامها: يا حسن، أنا أقدر على حفظ تسعة أجزاء من الشهوة بجزء واحد من العقل، وأنت لا تقدر على حفظ جزء واحد من الشهوة بتسعة أجزاء من العقل!

قالت حنان تلك القصة ونظرت الى ، ابتسمت لها قائلاً انا لست الحسن البصري وانتِ لست برابعة العدوية افلتنا عقال الخجل بيننا بعد ان قبلتها

قضينا الليلة كلها نهمل من كؤوس الحب ونمرح في بستان العشق ونترنح من سكرتها مراراً ومرات حتى انهكنا التعب وغبنا في أرواح بعضنا البعض نسمو بعيداً استسلمت حناناً للنوم على صدري قابضة بكلته يديها على ، لم انتبه لمغزي ما ترمي إليه قصتها تلك وقتها ، الان ادركت رسالتها لي ، كنت اقود سيارتي التي اشتريتها قبل شهر في طريقي من الوزارة بعد إتمام المهمة التي كلفتني بها المدام الى شقة اسعد حيث فضلت ان أقيم معه ، اخذت استرجع تلك القصة التي روها حنان يبدو على ملاحي شجن وانا اتخيل حنان على المقعد الذي بجانبني ، اخذت ابحت عن تقاسيم وجهها في كومة الحنين الذي المت لي ابحت عن حضانها الذي فقد منذ ان غادرت الوطن ، العبرة تكتم على انفاسي ودموعي التي توقفت في محجريهما ترفضان النزول لم يكن حزناً يعتريني فانا ارتدي حناناً حياً يحميني صدر نفسي ، ولكن لماذا تلك الحالة التي انا بها هل هي عدم مقدرتي على البحوح بان الغربية لا تحتوي ام هي قسوة ثباتي لأكثر من ست اشهر كاملة بعيد عنها وعن الوطن غربتي جنون ينبت على هامش الشجن ، خالطني هذا الشعور المبهم شيء يشبه الكتابة الى حد ما ، ليس حنيناً او شوقاً ، ولكن شيء في قلبي يضغط على صدري بقوة ، كنت مثقل الجروح ندوب روعي شاخصة امامي جعلتني ارثي لحالي ، عندما وصلت الشقة وبمجرد مجيء اسعد شرحت له اضطراري من الذهاب وحدي الى فيلا المدام وضرورة الذهاب معي وتأجيل كل التزاماته هذا اليوم ، لم يستوعب اسعد ما ارمي اليه فأصر على ان ابلغه مغزي خوفاً من الذهاب وحدي ، كانت ضحكاته تغيظني وهو يقول :-

- احمد امين ... احمد امين الصادق خائف من امرأة دي نهاية العالم

لم يكن خوف يا صديقي لم يكن خوف فانا مع عهد نفسي امام بيته فانا رجل يعرف قدر النساء وسرهن ، لم أزهد في جبهن فمن كمالي حيي لأنتي ، ولكني اكتفيت بحنان يا اسعد حيي لحنان هو الذي فتح لي الطريق لمناجاة نفسي فتذوقت كيف يكون حيي لربي ، في الأنتي يكتمل ظهور الحقيقة يا اسعد فيها

تكتمل الرؤية للوجود

- يعني انت هسه حبك لحنان مانعك تقترب من انزوت

- لا طبعا يا اسعد ما حبي لحنان فقط ولكني اعلم بانها مغامرة تنتهي بحفرة شيطان، الحب لا يمنع خيانة الرجل يا اسعد ما يمنع خيانة الرجل هو الاكتفاء بأنشاه وليس لهذه الحالة تعريف محدد خلاف انها نقيض كل الهطل الذي حولنا الان.

تحركنا الى فيلا مدام انزوت بعد صلاة العشاء بسيارة اسعد بمجرد ان جلست على المقعد بجانب السائق ارجعت الكرسي للخلف واغمضت عيني ما زلت اعاني وعكة الاتكاء على وطن لحظات واحتلت اغنية قلت ارحل بصوت مصطفى سيد احمد كل أجزاء السيارة، اسعد يدندن منسجماً مع الكلمات واللحن، آه لو تدري يا صديقي ذكري تلك الاغنية عندما كنا معاً في الخرطوم، داهمتني الوقائع الماضية سريعاً نفس اللحن ونفس الاغنية واسعد بجاني في ليلة صيفية من شهر أغسطس بعاصمة الوطن شارع عبيد ختم اوقف اسعد سيارته ال Atos الحمراء على جانب الطريق فاتحاً فمه بدهشة وهو ينظر الى محاولاً فهم ما يجول بخاطري في حين نزلت الفتاتان واخذت طريقهما بعيداً بعد ان فقدن الامل بقضاء ليلة حمراء مقابل حفنه تمر اجتهد اسعد في تقليدها ، التفت اسعد ناحيتي بعد ان تحرك بالسيارة على شارع عبيد ختم ونقرشات العود تبعث من مسجل السيارة بأغنية قلت ارحل بصوت مصطفى تنساب مع سموم الخرطوم في تلك الليلة قال بحنق: -

- انت مما حبيت حنان دي خربت خلاص ...

قلت ضاحكا

- لقد سئمت حكاوي الجنس في هذا البلد بسبب تكرارها وطفح عفونتها الفعل يتنافى مع مبادئنا تماماً كيف لنا ان ننادي بسيادة الطبقة العاملة ونصدق

صباح ومساءً بنصره البروليتاريا ونعمل على استغلالهم بهذه الطريقة البشعة .

انظر اليه ملينا واواصل قاتلاً :-

- صدقني مشكلتي مع الجنس في هذا البلد المفهوم الغريب في تعاطيه، هراء مصحوب بخوف وقلق ورعب من أنثي تعطيك نفسها باسم الحب او المال وانت تحمل سيف الغدر بين فخذيك تاريخ عميقا من القهر.

اتحاشي النظر اليه هذه المرة ظل صامتاً تصتك اسنانه غيظاً لم أعر حالته تلك أي اهتمام واصلت حديثي: -

-مشكلة الجنس في بلادي أنه غير واعي أيها الزميل

يهم اسعد بقول شيء أقول بحسم: -

- لا تقاطعني دعني أكمل لك

يصمت وينظر الى الطريق فتاة ليل ضحية اخري تبحث عن غنيمة في شكل رجل يهبها حفنة من جنبيات تسد بها جوع الوطن الطاعني اقول بأسى: -

- الجنس يا عزيزي مثل الصلاة له قدسية لا يمكن ان تكون الا في مكان طاهر عندها يكون الامان بالتقاء الجسد بالجسد في رحلة اسراء تبدأ بالخشوع والابتهال وتنتهي بمعراج كُمل في الاخر، الجنس مثل الطعام له ترتيب محدد عند تناوله هل تستطيع ان تأكل. طعامك من على الأرض هكذا مثل الأنعام والبهائم...؟

انظر اليه زال قليل من توتره وغيظه يعطيني هذا حماس أكبر للمواصلة فأجواب على سؤالتي:

- بالطبع لا... أيضا الجنس له طقوس محددة أولها السلام النفسي بينك وبين من معك ثانيها الحب هل تأكل طعام تعافه دعك من تلك الامثال الغربية (الفحل ما عواف) هنا تشبيهه صريح للإنسان بالحيوان هههه اضحك

بصوت عالي واواصل ...

- دعك من كل تلك الحيل التي تمجد الفحولة الزائفة التي عشعشت داخلنا بتراكم ثقافي مهين لنا، لا يمكن ان يكون الجنس بهذه الطريقة التي تقهر الإنسانية في بلدي لا يمكن ان يكون الجنس على قارعة الطريق او داخل مدرج الكلية او على السيارة أو داخل مكاتب المسؤولين والموظفين أو في الحدائق العامة بين الاشجار انه انتهاك كبير لإنسانيتنا رجل او أمراه ولن اسمح ان اهين نفسي واجعلها في هذه المرتبة الدونية مرة اخري، صدقني الامر ليس له علاقة بالدين او حرمة الجنس دون آطر محدد بقدر ما هو احترام لهذه الخصوصية.

اصمت قليلاً وصوت مصطفي سيد احمد يخرج من مسجل السيارة يخالج روحي المتوترة ويعطي نوعا من الدفٍ لحوارنا اسرح مع كلمات الاغنية والسيارة تنحرف يمينا على شارع بري

أصلو العمر شوقا حزنا كان وصبرا كان فسيح وفسيح

أصلو العمر كان دربا مشيتو كسيح

وكان غرسا سقيتو بكى وقبضت الريح

يقول اسعد بعد صمت طويل نسبياً: -

- حسنا لنذهب من هنا الى أي مكان آخر وليكن مركز الخاتم عدلان

او حفل عقد الجلالد بمعرض الخرطوم

أوقفه الراي باهتزاز من راسي واقول لتكن ندوة الخاتم عدلان حول الهوية المهم ليلة اقصيها بآدميتي التي نسيته في هذا الوطن وبالمرّة نقابل عمار علي الأخ الأكبر لحنان هناك.

في هذا التوقيت المليء بالشك عندما نبحت عن خلاصنا الشخصي فندير ظهورنا للوطن نهرب منه بكل ما نملك من خوف فتتلقفنا الغربة بهذا الشتات نحاول بكل جهد ان ندخل دائرة الحياة فيها فنلقى الصفة تلو الأخرى، سرحت بعيداً في جراح جسدي وروحي التائهة تري إذا قابلتني مدام انزوت في غير هذا التوقيت هل كنت اشاطرها نفس الشبق ام اري برهان ري وطننا في حنان، اعتقد انني كنت سوف اسمي نفسي محظوظا ان تدعوني امرأة مثلها سمعت صوتاً داخل نفسي يقول: -

- طيب وحنان ...؟

وقفت للحظات امام تساؤلي هذا، ولكن حنان ليس لها شان بما افعله الان وان كان جزء من نفوري راجعا خوفاً من اهتزاز ثقتها في، هنالك شيء مبهم داخلي يمنعني من السير في طريق مدام انزوت لعلها دعوات امي او هو عهدي الذي قطعت لربي ولكن الى متى الى أي وقت ...؟ افقت من تساؤلاتي تلك وسيارة اسعد تتوقف امام فيلا بحي الشاطئ أحد أشهر احياء جدة رقيقاً النفط الى اسعد الذي أشار الى التطبيق Google Map خرج الصوت المميز لقوقل ماب : -

- لقد وصلت الى الهدف

- أطلق اسعد ضحكة ساخرة وهو يقول: -

- آها يا سيدنا يوسف قول لزيخة بتاعتك دي نحنا وصلنا

أسررت سخرية اسعد في نفسي ولم أبدها له قلت وعلى شفتي ابتسامه حزن: -

- ح اتصل عليها

اخذت هاتفي من على طبلون السيارة أغلقت التطبيق ضغطت على زر الاتصال برقمها وكأنها تتموضع عليه جاء ردها قبل ان تكتمل الرنة الاولي صوتها يحمل انفعال واضح: -

- هل وصلت لقد تأخرت كثير احمد انا في انتظارك منذ صلاة المغرب

تحسست من ردة فعلها ولكني اعتذرت لها جهلي بتوقيت المجي، انا الان امام باب الفيلا

- وصلت بتلك السيارة، اري كرولا امام الفيلا

- ايوة هي

- جيد ادخل من الباب الصغير من الناحية الأخرى على يدك اليميني انا في انتظارك

التفت الى اسعد احثة على النزول كان منشغلاً بمكالمه هاتفية يردد باسم جمال وعلى وجهه شيء من الاهتمام أشار الى ان اذهب وسوف آتي خلفك، نزلت احمل فايل الأوراق وبالي مشغول هذا الغبي لماذا اتيت بك اذن لكي تتركني في منتصف الطريق حسمت امري وتحركت حيث وصف المدام ،الإضاءة منخفضة او معدومة تماما في هذا الجزء من الشارع تجاوزت الباب الصغير لحديقة الفيلا التي كانت مُدقنه الصنع تتصطف أشجار لم اتبين نوعها لقله الضوء ،توجد في وسط الأشجار جنبه نفوح منها روائح زهور وورود غاية في الروعة اخذت أتحمس مؤطي اقدمامي على الممر خوف السقوط ، لا ادري كيف قطعت تلك المسافة حتى وجد نفسي أمام درج يرتفع البيت عن الحديقة مسافة خوف، أصعد عليه ،وقفت امام باب خشبي ضخم الاضاءة

باهته صفراء نحوت واشكال على الباب ،ها قد آن اون الولوج عندما هممت بطرق الباب انفتح ومن خلفه تالأأت في مواجهتي أنور فتننتها جهرت بصري كانت ماثلة امامي كل ما بها ينخر جسدي لاحظت بريق عينيها و تلك القلادة التي تدلت من على عنقها تلامس صدرها الذي بداء لي مثل قبب المتصوفة في وطني ، تدارت حلقات ثديها فقط خلف بلوزة شفافة خفيفة تكشف عنهما بججل ، نقاء بشرتها و نداء انوثتها الطاعي من مرمر صدرها الى صلابه ساقها المكتنزة يدعوني (هل ادلك على جسد الخلد ولذة لا تُبلى) ، وقفت مصدوما مثل وثن فاتحا فمي بذهول مما اري ، في لحظة قاومت نفسي من الهروب مطلقاً ساقى للريح فقد كانت فتننتها تقتل، جسدها يتنافى مع ما قيل عن عمرها ادركت ما يجول بخاطري فاندفعت نحو فاتحة زراعيها احتوتني في حضنها مثل يتيم فقد وطناً في صغر ، دفعيني دفعا الى الدخل
قائلة :-

- ماذا دهك تعال لا أحد بالمنزل لقد أعطيت الخادمة إجازة اليوم

دفعيني للداخل وانزلت ترباس سجني بأحكام نظرت الى الباب المغلق خلفي فادركت اني ذاهب دون رجوع بلعت ريفي تصبب العرق في جسدي تحركت خلفها في ممر ضيق عليه عدد من التماثيل لحيوانات مفترسة وصور باطر مذهبة لمناظر طبيعية تتدلى ثريا بلون ازرق غامق تعمدت المدام أن تكون امامي وقع بصري على نتوء مؤخرتها التي اخذت تأرجحهما تحت سبق الإصرار والترصد سحبت تنورتها السوداء التي تخفي اردافها لأعلي قليلاً التنورة ضيقة حد الإرهاق بدأت المؤخرة بيضاء ناعمة و مستديرة صلبه مستندة على فخذين ناصعين البياض مشدودين بقوة على عامودين من رخام ابيض، تمتمت بدعاء رد القضاء ،ودقات قلبي تتامر مع اضاءة المكان وخصر وارداف المدام ، عند وصولونا الصالة كانت مفاصلي تصتك مع بعضها من الاثارة ومع ذلك وقفت امعن النظر فيها كانت اشبه بصالات المساجد في وطني كمساحة بها بذخ مفروض اثاث يذكرني بالقصور التي اشاهدها في الأفلام تحف ولوحات

كبيرة ثريات بعدد النجوم مذهبة تتدلي من السقف ، عدد اربعة اطقم جلوس فاخرة بالوان مخلفته قسمت الصلاة الى اربعة اقسام من بعيد لاحت لي طاولة كبيرة تراص حولها عدد كبير من الكراسي ، تسمرت مكاني وقمت بمد فايل الأوراق اليها تقدمت ناحيتي بعد ان دفعتني على مقعد وثير كان في مقدمة الصلاة فتحت عن رجلها وجلست على افخاذي انتقلت رائحة عطرها الى انفي تزيد من توتري واستفزازي همست على اذني لا تخف مني ، وضعيتها تلك حركت دقات قلبي فتدقق هرمون التستوستيرون مغذي بعض أجزاء جسمي لم اتمالك نفسي فللرجال ضعف فطري امام الجسد البص ، لقد وثقت كثيرا في قوة تماسكي لكنها خانتني نسيت عهدي وانا اقدف بفايل الأوراق على الأرض واقص اجنحة الملاك الذي على يميني ، صورة حنان تتزحزح باهته من خيالي ، الجو مشحون بعواطف متضاربة ضممتها لجسدي أستمد من ثورة عنفائها قوة للنضال ضد عسكر السلطة في بلدي ضمت راسي الى صدرها بقوة الثم المجري النهري بين ثديها اعصرهما عصراً بساعدي اضع شفتي على بتلات شفثتها ، ارضع رحيق ثديها ، اشتم رائحة عطرها اري شجني منصهرا مع انوثتها اخذت تتأوه بصوت مكتوم وهي تحاول قُدَّ قَمِيصِي من قبل فكيف أكون من الصادقين ، توقفت فجاءة رافضاً المضى في هذا الطريق فقد ادركت ما انا مقبل عليه، اخذ جسدي يرتجف بخوف دفعته عني ووقفت عاجزاً عن أي فعل اخر لا ادري ما بي ضلوع قلبي تتشقق بصوت مسموع وصوت بداخلي يقول الشهوات تصنع حفراً في الروح تصنع جروحاً لا تندمل بالاستغفار ، ليس لدي الرغبة خفت ان أفقد نفسي اذا واصلت المسير اخذت تنظر الى بدهشه تحاول ان تجردني من ملابسي مرة اخري كانت مكشوفه بكاملها امامي وتنورها القصيرة مرمية على الأرض اغمضت عيني بقوة و ضممت يدي الى جسدي الذي اخذ يهتز من انفعالي ونوراً في اخر الصلاة يغشي روحي و صوت من ضياء أصاب عيني ببرق يقول داخلي :-

نون الهوى من الهوان مسروقة فصريع كل هوى صريع غوان

ركعت على ركبتي ودموعي تبلل خدي همست للصوت قائلاً

يقولون زرنا واقضِ واجبِ حقِّناوقد أسقطتُ حالي حقوقهُمُ عني

رد النور داخلي بصدي صوت: -

صابر الصبر فاستغاث به الصبر..... فصاح الجبور بالصبر

صبرا

اخذ الصوت يتردد داخلي مرة اخري مع اهتزاز كياني: -

أماطت كساء الخز عن حر جسدها وأرخت على المتنين بردًا مهلهلا

من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلا

كانت المدام تنظر الي وكأنني مجنون فقد عقلة ملمت ملابسها على جسدها
وارتدت عباءة كانت على أحد مقاعد الصالة في الوقت الذي سمعت فيه

صوت اسعد في الخارج يقول: -

- يا رب يا ساتر احمد انت وين .؟

انقطع الضوء فجاءة وقفت مدركاً حقيقيتي والمدام تتحاشي النظر لي اخذت
تتمتم ببعض كلمات ملمت أوراق الفائل من على الأرض وتحركت نحو الممر
تجاه اسعد بعد ان احكمت العباءة حول جسدها وضعت غطاء على راسها،
كانت افكاري متضاربة على ما كنت عليه ،ماذا يدور في ذهن المدام عني
،اختفت المدام في الممر وروح حنان ترتدي جسدي من جديد وقفت انفض
عني رائحة قبلها وجسدها وذهني مشغول على ما يمكن ان تظنه في رجل
يرفض مضاجعه انثي بكاملها ، فلتقل ما تقل الا اني احمد ربي لم اذهب في
طريق ما تريد وجد نفسي اردد مقولة جدي لأمي عثمان جقود (شجرة الافك
ترعرع حين تنغذي بالنشوة والشهوة فيمتد ظلها ظلما لنفسك) ، كنت مثقلاً
بالغم في انتظار اسعد اخذت اتلفت ناحية الممر لماذا تأخروا هل تغويه أيضا

مسحت ظنوني على صوت خطواتهم قادمة يبدو ان اسعد بعد نداءه الأخير تراجع فلدقته المدام في الحديقة نتفت الخجل الذي كنت عليه بسب فعلتي خوف ملاحظة اسعد ما بي بالأخص انني قد ابدت له عدم ارتياحي من الذهاب وحدي للمدام وكم كنت محقاً في ذلك ماذا لو نزل اسعد معي كيف كانت سوف تكون ردة فعله وهو يري المدام بتلك الهيئة التي ظهرت عليها عند قدومي احسست ان الخطاء خطئ انا ، كان يجب ان اخبرها بان معي شخص اخر عسي ولعل ان اتجاوز امتحانها هذا، دخل اسعد خلف المدام كان يمشي مهدود القوام يتبعه غم مثقل وعيناه حمرانان تتبعته نظراتي بحيرة و المدام تتجنبني مرة اخري كانت ساخطة ملامح وجهها تدل على ذلك حتى انها لم تجلس فقامت بتقديم بعض المشروبات لنا ببرود اسعد زائغ العينين به اضطراب وتوتر باين ، حاولت ان افهم ما به الا ان توتره ظهر بشكل عفوي عندما سقط كوب العصير منه تأفف بحنق ونظرات المدام مثبتته عليه بدا على ملامحه خجل سرعان ما بددته المدام وهي تمد اليه كوباً اخر قائلة

- لا عليك ...

رفض اسعد اخذ المشروب، وقف وكأنه يريد ان يفك قيده من حبس ما، نظر لي وقال: -

- في حاجة تأني عندكم.... ولا ممكن نمشي

وقفت انا أيضا منهيأ اعتراضه على البقاء وضعت المشروب على المنضدة التي امامي والمدام ترمقني بنظرة حقيرة ممزوجة بغضب كبير ودعتها وتمنيت لها ليلة سعيدة وعلى شفتي ابتسامه ساخرة، عضت على شفتيها بغيظ حقيقي وكأنها كانت تشتتم رجولتي خرجت مسرعاً قبل ان اسمع الكلمة تخرج منها تركتها تواجه محنتها لوحدها.

خارج الفيلا كانت السماء محتشدة بالغيوم وصوت الرعد قوي يجهر بين حين وحين البرق يخطف الطريق بإضاءته المتتالية، ظل اسعد حبيس صمته متشاغلا بالقيادة، يقود بسرعه عالية نسيبا غير مستوعب ما يمكن حدوثه اذا تبلبل الطريق ، تركته لشجونه فقد نال نصيباً مضاعفاً من الخيبات لم اشاء ان اشركه في خيبيتي اليوم اخذت افكر في المنحى الذي اتخذته علاقتي بالمدام بعد تلك الليلة ، كانت هنالك غيمة كأبة وضيق جثمت على السيارة ، صمت اسعد و الصراع بيني وبين نفسي، ضعفي و خياني لعهدي ولحنان ، بدأت تمطر بغزارة رائحة المطر والرطوبة داخل السيارة زادت على الكأبة بؤساً اخذت حبات المطر تضرب على الزجاج الامامي بقوة واسعد ساهم في الطريق كأنه يجلس على مقعد حزن من نار، ملامحة أصبحت جامدة حاولت ان اتشاغل بشي ضغطت على زر تشغيل الاغاني ظهرت على اللوحة الالكترونية قائمة أغاني بدون أسماء ضغطت على احداها عشوائياً اطل صوت زيدان إبراهيم ماداً لسانه بتحدي لنا و الموسيقى تزيد وجع الحنين فجاءة وجدت نفسي متورطاً في ذكريات وحسرات الماضي والم الشجن اطلت من هواجسي على الم الذكري صفعني القدر على وجهي ووترتني نقرشات العود وارعبني ظلام غربي ،التفت اسعد ناحيتي يبحث عن إحساساً غائباً في بئر الماضي كانت ملامحة هذه المرة تحمل عتاباً يبدو أنه نابع من اختلاج وتشوش كانت حركات جسده تهمز منفعة عاجزة عن تنفيس ما به من الم ، ضغط زر الاغلاق على اللوحة الالكترونية ساحباً صوت زيدان إبراهيم واغنية قصر الشوق للعدم تلك اغنية ناهد المفضلة التي كثيراً ما كانت ترددها علينا في لحظات الونس بالجامعة او

في الرحلات كان صوتها مميزا بها و اشاراتها لأسعد في بعض المقاطع غمزاتها له
بطرف عينها مع ابتسامه فاخرة من شفيتها المكتنزة وهي تقول

أشوف بس طرفك النعسان

تخوني القوة والشدة

فترتفع ضحكات الشباب وهمزاتهم تجاه اسعد الذي يضحك بفرح طفولي
ويقبل يد ناهد بحب حقيقي ،ناهد تجيد العزف على العود ما أعطاها حضور
انثوي طاغي وسط الذكور صوتها به نعومة وغنج مفتعل ، مع حركات عينها
التي تتحدث بها مع العابرين بدعوة صريحة للمغازلة مما يزيد الضغط على
اسعد فيرتفع ثير وميتر عشقه وغيرته عليها ، كانت تحكم وثاقه مع الزمن حتى
تحولت من حبيبته لمعبودة ، شعرت بالاسى وفداحة ما قمت به عندما اخترت
تلك الاغنية احسست بحجم مؤامرة القدر التي تتسرب بيننا ، خذلاني لعهدى
وخيانتى التي اوشكت على الاكتمال بفيلا المدام واشعالي لشجن الذكري
الذي يأكل جسد صديقي الان ، كنا قد وصلنا الى حافه اللاشئ و التسليم
بكل ما يقوله القدر ، أوقف اسعد سيارته امام البناية التي بها الشقة التي
نقطنها التفت الى قال بعد صمت طويل :-

- ناهد في السعودية يا احمد

هزت المفاجأة جهازى الهضمي فشعرت بألم حاد في بطني واحساس انى اعانى
من Diarrhea توشك ان تتفضل خارجا قبض على عضلات جسمي مانعا
تدفق اى شيء للخارج، نظرت اليه وداخلي تساؤلات بحجم وطن، الحنين قبر
واسعد يحفر قبره بشجن حبه القديم ... أجبرت نفسي على تحويل مسار ما
قال متناسياً جراحة التي ادمت من جديد بعودة ذكرى ناهد

- ماذا قلت

اخذ تنهيدة حارة وما ان بداء في الحديث حتى اهتمرت دموعه التي اخذت

حجم حبات المطر التي تنكب على الأرض في الخارج اخذت دموعه تهطل بلا توقف كما لو ان لسانه هو من كان سد لها

- لقد أخبرني جمال في اتصال عندما وصلنا فيلا المدام

خطر على بالي سؤال ترجمته قائلاً :-

- هل يتذكرها جمال ..؟

قال منكسراً بعد ان اسند راسه الى مقود القيادة مخفياً تفاصيل وجهه الذي ركت عليه علامات الاسي : -

- هي من تعرفت عليه قابلها في سوق العويس بالرياض. على حسب قوله داخل محل لبيع الذهب اخذت تنظر اليه طويلاً الى ان تقدمت نحوه وسألته انت جمال صاحب احمد امين واسعد باب الله اجابها بالإيجاب فعادت اليه مرة اخري بعد ان تركت مرافقيها وترجته ان كان على تواصل معي ان يعطيها رقم هاتفني

داريت اضطرابي لملت تفاصيل كثيرة مبعثرة في ذهني وسألته: -

- وبماذا رد عليها جمال

- اتصل على وأخبرني هل ابعث لها رقم الهاتف ام لا

كنت اعرف رد اسعد تماما لذلك فضلت عدم سؤاله ما فعل وكيف رد على جمال نزلت من السيارة بعد ان ربتُ على كتفه عدة مرات وانا انتظر اتصال ناهد عليه خلال الايام القادمة اسرعت تجاه مدخل البناية مسرعا للحمام اخذت اسب ناهد التي جعلتني استبقي الخطي خوف ان افعلها على نفسي في هذا العمر ،صعد اسعد خلفي يجرح خذلانه وخيباته التي فتحت من جديد في انتظار اتصال ومن ينتظر لا يجي ، كنت امشي بحذر تحت أنقاضه اتعثر ببقايا حطامه انفص الغبار العالق باختلال توازنه احاول ترميم حجارة روحة المهشمة

مثل مرايا سقط على الأرض ، نظرت اليه بعين دامعه ترثي حاله وعقلي مشغول بما يمكن ان يحدث لأسعد بظهور ناهد في حياته من جديد دعيت الله ان يلطف قدره القريب ، تجاهلت احاديث نفسي فمن العبث الجدية مع تلك الاحداث المتهتكة حولي فقد تزيد تعاستي ، وصلت الى الشقة بعد انا اصابني رائش المطر مطابقاً لمواضع رائش رصاصات الجنجويد التي على جسدي منذ فض الاعتصام ، دخلت الى حمام الصالة واسعد يغلق باب الشقة خلفه خرجت بعد ان افشيت سري دخلت الى غرفتي رميت ما كان على جيوبي من احمال وكأنني افض التزامي من ائقال نفسي رميت الهاتف المحمول وجزلان النقود و بعض الأوراق مفتاح الشقة الخاص بي على الفراش خلعت قميصي الملبلل شممت فيه عطر المدام المميز مخلوط مع ماء المطر تفرست موضع جلوسها على افخاذي كانت حرارة مؤخرتها وشم عليهم ، وضعت قميصي والبنطلون في كيس اسود ورميتها بعيدا وكأن بهما رجس ، هممت بالرجوع للحمام ويرغم عدم فعلي لشى الا انني نويت الاغتسال وان اسجد لربي مطهرا نفسي ، انتفضت اثر رنين هاتفى نظرت الى الساعة التي على الحائط كانت تشير الى الثانية عشر صباحا تمتت :-

- اللهم اجعله خير

ظهر رقم روز على شاشة الموبايل استغربت اتصاها في هذا التوقيت تفتقت خلايا ذهني على ظنون كثيرة سوف تلومني على عدم اتصالي والسؤال عنها خلال اليوم، ظلت الظنون شظايا مشتعلة في عقلي مع الرنين المتواصل هل تراها عرفت ما حدث بفيلا المدام، توقفت عن التخمينات السيئة وضغط على زر الاستقبال جاء صوتها منفعلاً دون سلام

- احمد ماذا فعلت أخبريني ...؟

تخيلتها حنان في بادي الامر اخذت أتلعثم خرج صوتي متقطعاً ايقنت انها قد عرفت بزياراتي تلك خفت ان اتورط بحديث فأعدت لها السؤال بسؤال ...

- ماذا فعلت يا روز...؟

- لقد اتصلت بي المدام قبل قليل كانت منفعلة قالت لي ان اكتب خطاب الاستغناء عنك في المدرسة لعدم حاجة المدرسة اليك.

جلست على طرف الفراش ساهماً في لا شيء وصوت روز كأنه قادم من جب عميق اخذت تبكي بمرارة وتعيد سؤالها مرة اخري

- ماذا حدث يا احمد أخبرني

ماذا أقول لها هل أقول اني أرد ان أكون تافهاً لكني أخلاقي لم تساعدني، أدركت انني في لحظات لا يفيد فيها الكلام، الاحداث تتحرك بسرعه أكبر من ان استوعبها او اعرف اتجاهها حاولت ان ابعث شيء من الطمأنينة اليها: -

- لا أدري ماذا هناك ولكنها صاحبة المدرسة يا روز فلتنفعل ما تشاء لا تشغلي بالك فلكل حدث حديث نفذي ما طلب منك ولنتقابل صباح الغد

سمعت بكائها المريسر ابتلعت ريقني الجاف انتبهت انني لم اتناول الزاد منذ صباح اليوم اخر وجهه دخلت تجويف بطني كانت مع أستاذ عباس حسمت امري وتمنيت لروز ليلة سعيدة كانت غير مقتنعة بردي، حاولت ان تستفيض في الكلام الا انني اعدت عليها وداعى و أغلقت الخط وسرحت في تفاصيل اليوم الحياة مجموعه من التفاصيل التي قد تبدو لك في كثير أحيان تافهة لكنها هي التي تعمل على تكوين يومك، اخذت استغفر ربي وتحركت نحو الحمام غير مبالي باي شيء، داخل الدش والماء يتساقط على اخذت اردد

ومن كُتِبَ عليه خُطى مشاها

مشيناها خُطى كُتِبَ علينا

فليس يموت في أرضٍ سواها»

ومن كانت مَنِيَّتُهُ بأرضٍ

خرجت واديت صلاة استغفاري اخذت المصحف انخل من كلام الله فضلت

ان امكث في وضعي هذا الى صلاة الفجر، ولأول مرة ارفض الاتصال بحنان
في هم يزعجني كنت معها مثل طفل صغير عندما يخاف يهرع لثوب امه، ثقل
على ازعاجها بتوتر صوتي.

استيقظت مرهق اعاني من آلام متتالية على جسدي يبدو اني قد غفوت على السجادة بعد الصلاة، الوجع يحتل كامل كياني في حاجة ماسه لأشعل سيجارة انفتح بها زفرات خُذي ،ذهني مشوش اخذت اردد تلك المقولة (لا يريد الهم بك أكثر من ان تريده لنفسك) اطرح عنك كل هذا التفكير في شيء لا تملكه والا اصابك الجنون، الحياة بكل ما فيها من عبث وأنهاك في التفاصيل اليومية ما هي الا نزع شيطان، نظرت الى الغرفة الأخرى وانا تحرك مثل الجراح يبدو ان اسعد قد خرج صادف ان وقع بصري على ساعة الحائط يا للهي لقد تأخرت على الدوام اسعد هذا النعيس خرج ولم يوقظني لبست سريعا تعطرت احسست ببطني تضغط على الى الان لم اتناول طعام اخذت معي سندوتش جبن وعصير وخمسة يد من تمر ، في الطريق اخذ ذهني يسترجع تفاصيل الليلة السابقة بدأت لي كأنها حلم او تهيئوات لا لم اقبل المدام ولم تكن هنالك أي تفاصيل ،على الشارع برك مياه مطرة الامس زحام المرور في هذا التوقيت تلاميذ المدارس الموظفين منذ فترة لم اري الشارع في تلك الساعة، أحاول اقناع نفسي بان مقابلي للمدام صنيع خيالي المريض وانها مجرد أوهم نابعه من خوف وقوعي في غوايتها الا ان رائحة عطرها وملمسها البض متداخلات مع انفي وجسدي يا للهي ... يا لي من قوي هل خرجت من انوثة تلك المرأة دون الوقوع عليها سبحت مفاتها في خيالي تفجر هرمون التستسترون ،اغمض عيني في جزع لا اريد ان أكون في تلك الحالة مرة اخري لا اخفي ضعفي ، انتبهت لحديث روز السابق كنت قد نسيت حديثها، يبدو انه وداعي الأخير لهم، اكثر ما احزنني علاقتي بتلاميذي كنت احفظ

أسمائهم جميعاً تعاملت معهم كأب واخ توطدت علاقتي حتى باسرههم زرعت فيهم الحب علمتهم ان السعادة الحقيقة تكمن في الغاية من وجودك وليست في تحقيق احلامك ، أوقفت سيارتي المتهالكة بعيداً عن سور المدرسة عندما دلفت الى الداخل كان التلاميذ يقفون في طابور الصباح لأول مرة منذ ست اشهر لا أكون حضوراً في هذا التوقيت ، هتافات وصوت نداء بعضهم اريك برنامج الصباح خرج عدد منهم مهرولاً نحوي كأنني اب عائد من سفر طويل حطت اقدامه في بيته، صيحات أستاذ حسن المصري لم تشبههم في القفز ناحيتي واحتضاني اسنلتهم تترأ تنهال على :-

- قالوا إنك مريض

- كيفك أستاذ احمد

- أستاذ احمد

صُمّت اذناي لم اسمع نداءات الصغار نزلت على عيناى غيمة من دموع انظر عقد التلاميذ تحلقوا حولي أصبحت مثل اسير تحت ايديهم الصغيرة المدودة لي واحضانهم العفوية وقف المدرسين في اعلى المسرح الصغير يتابعوننا كُّلٍ حسب ما يريد نظرات بعضهم تحمل غل عظيم وبعضهم دمعت عيناها، رأيت روز من بعيد كانت تضع يدها على عينيها ايقنت ببكائها اخذنى أستاذ عباس بعد ان وضع كفة على ظهري وسحبني الى الداخل شاهدت المدام تسرع الى مكتبها ، يصل الى صوت أستاذ حسن المصري يحاول ان يعيد ترتيب الصفوف بعد الهرج الذي حدث بدخولي جلست داخل مكتب أستاذ عباس كنت اسمع صوت انفاسي ودقات قلبي تتوقف عند محطات الخيبات هانذا خذلت تلاميذي ايضاً خطر على بالي سؤال ماذا لو تراجع المدام عن قرارها بأنهاء خدمتي، حسمت الامر داخلي سوف أقوم بتقديم استقالتي فوراً انسا الذي يرفض المكوث معها فتح الباب فجاءة دخلت روز برغم حيي لحنان وسيطرتها على قلبي الا ان هنالك منطقة ما في قلبي تهتز كلما قابلت روز كمال

الدين كنت اقمعن ابتسامتها الخجولة وهي مضطربة تعقد أصابع يديها امامها رسمت على شفتي ابتسامه اجتهدت فيها كثيرا ،مدت يدها تصافحني كانت باردة مثل قطعه ثلج ، ضغطت على راحة يدي كأنها تريد ان تندفأ بها قالت وهي تنظر الى عيني مباشرة تحاول ان تقراء شيء فيهم

- المدام عايزاك

علق بصري بها صامتاً لم أكن عاجزاً عن الكلام او التفوة لكنني فضلت الصمت عن الحديث خوف تشويه صورة المدام تحركت صوب الباب وقفت روز حائلاً في منتصف الطريق وضعت يدها على اعلي صدري وساعديها تنكي عليه نظرت لي كانت أقصر مني بمقدر شوق رفعت راسها لأعلي ووقع بصري على بؤبؤ عينيها شاهدت صورتي معكوسة داخلها ورائحة عطر أنفاسها تتطابق مع انفي كم وددت ان اضمها الى قلبي، اخذت ترتجف ارتجافه خفيفة اغمضت عينها الى النصف، خلبت تفاصيل تلك اللحظة التي وقفت بيننا حاجز الفعل قالت بوهن: -

- احمد في حاجة بينك وبين المدام

احسست ان نبرتها لست سؤال زميله الى زميلها بل زوجه منكسرة بحب زوجها تخاف الخيانة، سحبت نفسي منها قائلاً

- من جانبي ليس هنالك شيء اقسام لك

خرجت من المكتب مع دخول أستاذ عباس الذي تفاجا بروز تمسح على دموعها وقف حائراً والظنون تأخذه يمنه ويسري خرجت روز خلفي وهو يهمهم بخطرات مبهمة وصلت الى مسامعنا ونحن بالمرمر :-

- البت دي اكيد وراها سر تكون حامل بجد من احمد

ايقنت تماما ان أستاذ عباس من نوعية السودانين الذين يفرحون بالفضيحة وان

كانت في بيته، تقدمت صوب مكتب المديرية طرقت على الباب سمعت صوتها من الداخل يأذن لي، عندما هممت بالدخول تفاجت بيد روز اليميني تتشبث على ال تي شيرت من الخلف ويدها الأخرى تمسح على كتفي الايسر نظرت اليها مستغربا بادلتي نظرة ضاحكة وهي ترمش بعينيهما وعلى شفيتها ابتسامه ساحرة انطلقت مني ضحكة لا تشبه ما انا مقبل عليه

- عارفة انت مجنونه!!! يا بت فكيني، الناس تقول علينا شنوا

عطلت روز دخولي للمكتب الامر الذي دعاء المديرية ان تمد راسها متسائلة، تحررت منها أخيرا ودلقت الى الداخل و هي خلفي وقفت المدام وعليها علامات استفهام تتخبط حولها، دعيتي للجلوس وقالت لروز تنتظر خارج المكتب، ظهرت علامات الامتعاط على وجهها البريء تحركت بفتور وتركت باب المكتب موارباً اخذت اضحك مرة اخري في سري، وقفت المديرية بنفسها واغلق الباب هذه المرة بأحكام نظرت اليها غير مبالي تقدمت ناحيتي جلست على طرف المقعد المقابل لي تماماً بعد ان قربته نحوي التصقت ركبتهام مع ركبتي ودون أي مقدمات قالت لي :-

- احمد تزوجني

فتحت عيناي بدهشة هذا اخر ما كنت اتوقعه منها كيف فات على تفكيرها ارتعشت اطرافي هممت بقول شيء ما قاطعتني :-

- لا اريد منك شيء اريدك فقط كما انت، لا اريد مال ولا عرس ولا ذهب فقط اريدك انت بما عليك وانا متكفله بكل شيء فقط نحدد مدة الزواج بيننا على ان تكون 12 شهراً وسوف ادفع لك ما تريد

سحبت ركبتي التي تلاصقت مع ركبتهام سحبت نفسي لأخر المقعد وقلت :-

- تريدني ان اتزوجك زواج للمتعة هذا ما تقصدين

ترجعت هي بدورها كان يبدو من هيئتها انها لم تنم ليلة أمس ظهرت عينها متورمة وان كانت جميلة أيضا شعرها متكون بإهمال على مؤخرة راسها حتى عباءتها كانت نفس عباءة أمس التي استقبلت بها اسعد قالت بعد أن ضيقت من مجري عينيها ووسعت عن شفيتها برهه فتدلي عناب شفاها غواية يرجو عصرهما لخمير معتق فيهما : -

- سمه ما شئت

كان صوتها أقرب للرجاء سرحت قليلاً استوعب ما ترمي اليه تلك السيدة حسمت امري سحبت ورقة بيضاء من على مكتبها واخرجت القلم من جيبى كتبت استقالتي وهي تنظر لي منفعة وضعت الورقة امامها ووقفت مبتعداً عن طريقها قلت بأدب جم -

- هذه استقالتي مدام قضيت فترة معكم من اجمل فترات حياتي العملية ارجو لمؤسستكم مزيد من التقدم .

لم اعد اخشي شيء لم اعد اخشاها فكل ما كنت اخافه مصدر رزقي لذلك تجنبت الاحتكاك بها سابقاً، خرجت من المكتب وفراغ كبير يتمدد داخلي كيف أقدمت على تلك الخطوة كيف قدمت استقالتي هكذا ، لدي مسؤوليات عظيمة خلفي، انتابني شعور ارعن خالجي إحساس بالذنب حطت على وساوس تزن في اذني ماذا لو لم تجد عملاً اخر ، الوظائف في السعودية صعبه الحصول ، ترددت قليلا هل ما قمت به صواب ام خطأ وجدت نفسي استغفر بصوت مسموع طبطبت على كتفي وقلت لا تكن بهذا الحمق تحاسب نفسك على أشياء لا دخلك لك فيها ، بمجرد وصولي الى الصالة هرولت روزه نحوي تستفسر ما وصل اليه اجتماعي مع المديرية ابتسمت لها بثقة وقلت امامها وقلت

- اتمني لك حظاً طيب روزه سعيد جدا بمعرفتك اعتقد انا هذا اخر يوم لي في المدرسة لقد قدمت استقالتي.

نظرت الى بذهول كأنها غير مصدقة حديثي، تسمرت مكانها تبكمت رفعت يدها عاليا كأنها تخاطب السماء ثم هرولت مبتعدة تخفي دموعها للوهلة احسست ان روز كانت تتمني مغادرتي المدرسة، لم استوعب ما بها ، حاصرني عدد من المعلمين يتسألون بفضول عما حدث قال أستاذ حسن المصري

- يازول صل على النبي إذا في أي تقصير كلمنا ممكن ندخل واسطة بينك وبين مدام انزوت المدام طيبة وقلبها ابيض

كان من الواضح انه تزلف فطري راجع لعادات وتقاليد بني جلدته لم اعره أي اهتمام ودعت البقية وعلى شفقي ابتسامه كبيرة تمنيت لهم حظاً موفق سرت همهمات وسط المعلمات سمعت احدهن تقول هذا رابع استاذ يترك المدرسة لأسباب غير مفهومة تفحصت في وجوهه الأساتذة لماذا لا يوجد من بين الذكور أستاذ سعودي وكلهم أعمارهم متقاربة فوق الخمسين عاماً، ركت تلك الخاطرة في بالي فجاءة ميقظة كثير من التوقعات المنسية لم اتوقف فيها كثيراً ، بحثت عن هاتفني في جيوب بنطلون الجينز الذي ارتديه اتجهت نحو السيارة وانا اتصل بأسعد باب الله رد على بعد جهد اخبرته بما قمت به، اسعد المأفون لديه مقدرة غريبة على تحويل حالته النفسية من الإحباط والالم الى هرج مصحوب بسخرية قد تكون تلك طريقة جيدة لنسيان اشجانه التي تفجرت ليلة امس سمعت ضحكته العالية عبر الاثير وهو يقول:

- يعني قلت كذا أخير..... ياخ ما كان تأخذ ليك ني.....

قاطعته خوف اكمال تلك الكلمة البذيئة كنت اعرف اسعد عندما يعاني (الم قلبه) يكثر من الشتم والالفاظ البذيئة وفي احياناً كثيرة السكر كان يتجرع العرقي أيام الجامعة دون ان يختل توازنه او يفقد وعيه يصبح فقط كثير الهزل يوزع شتائمه الوقحة لمن حوله وبعدها يطلق ضحكة عالية كُنا نضحك في ضحكته، قلت له :-

0 يا حبيينا انا هسه بدون شغل شوف لي طريقة من معارفك انت عارف

وضعي كيف

بداء القلق يتوالد داخلي خوف العطالة سمعت اسعد يقول: -

-يازول خير كدي لمن نتقابل في الشقة بعدين

- لا انا متحرك عليك ح اجيك في الشغل نوقف عربيتي واتحرك معاك نمشي

مكة اليوم الخميس نبيت في الحرم ونتحرك مساء الجمعة راجعين على جدة

طريقة حديشي كان بها توتر لحظي تسرب الى اسعد بعض منه فأحس بأني

لست بخير همس على سماعه هاتفه بهدوء

- احمد في حاجة انت كويس

احسست مدي خوف اسعد من طريقة سؤاله، حاولت تطمئننه بان أطلقت

نفس ضحكته الاولي ولكن كانت كاذبه خارجه من غير يقين

- انا كويس كويس الحمدلله

وعلى ما يبدو ان طريقي لم تقنع اسعد بما حاولت ايصاله له لكنه اكتفي بقول

- طيب كدي تعال انا في انتظارك.

أغلقت الخط وتحركت صوب الصناعات الجديدة حيث يعمل، لم تمضي

لحظات وانا على الطريق العام حتى ارتفع رنين الهاتف مرة اخري ضغط على

الزر الذي على مقود القيادة وفتح الاسبيرك تخيلته اسعد خرج صوت روز من

جوف السيارة كان صوتها مثل عطر البخاخ نثر اريجة بكاملها لأول مرة اري

رائحة سيارتي بهذه الروعة

- احمد انت خلاص تحركت

كتمت اعجابي بها ، رسمت على صوتي جدية قلت

- ايوة روز في حاجة

سمعت صوت تهنيدها الحارة يلسعي برغم البعد

- طيب ممكن نتقابل احمد

لا أحد يضاهي نطق اسمي عند حنان الا ان روز ننتطق حروف اسمي بشكل فريد كأنه نااي حزين يأتي اسمي متقطع الحروف مندمج الموسيقي

- انا الان على الطريق العام متحرك على اسعد وح نتحرك على الحرم
المكي

وكأنها سمعت خبر نجاحها في الثانوية العامة وصل ابتهاجها للحد الذي كنت عليه، رأيت في خيالي وجنتين على خدها المتورد وهي تحاول إخفاء ابتسامه سطعت من بين شفثيها بيدها اليمني فظهر جزء من ساعدها المكتظ تتخلله عروقها الخضراء من تحت كم قميصها الطويل قالت

- انا أيضا نويت اليوم زيارة البيت الحرم مع اخي (أنطوان) جيد ان نتقابل امام الكعبة بالقرب من مقام إبراهيم،

برغم استغرابي من فكرة التواعد تلك امام بيت الرب الا انني استحسنتها قلت وعقلي يحاول هضم مقترحها

- حاضر روز يا ريت والله

ردت سريعاً تحاول ان تسابق الزمن للخروج من المدرسة ومن ثم التحرك الى مكة

- يلا يا احمد لا إله الا الله

- محمد رسول الله روز

للحظة استدركت اسم اخوها هل نطقت الاسم صحيح ام انا الذي سمعت

الاسم خطأ لقد سمعت اسم أنطوان هذه الأسماء ليست عربية لعل من أطلق الأسماء عليهم هي والدتها استغربت الأسماء التي تدل على الديانة في الشرق ، توقفت امام استوب ال 60 في تلك اللحظة أطلت خاطرة من داخلي تفضح ترددي الأول ماذا يعجبني في روز لماذا تتدفق قطرات الدم حارة على شرايين قلبي كلما ذكر اسمها او تلك الخفقات اللذيذة التي تنتابني كلما قابلتها مع راحة تتمجس على قلبي، لا أدري حقيقة ما بي لم انظر لروز كأنثى بل كانت روحها هي التي تستدعيني ، لأول مرة الاحظ ان روز كانت موفورة الحشمة ذات لبس فضفاض وغطاء راس يطوق وجهها الدائري تطل منه عينيها الضاحكتين وانف مدبب كانه عصفور جنه رك عليها ، لم تغب وجنتيها عن هذا الفرح الأسطوري الذي بدء على هدوء ملامحها ، روز تصغري بحوالي 20 سنوات ، كل انثى جميلة تشبه حنان فيها شيء منها ، نفس الروح بنكهة مختلفة ، لم تعتمد الفتاتان اظهار انوثتهما بالجسد كان حضورهم فقط يكفي لطقس روحاني قادم منهم ، تحركت بالسيارة بعد الإشارة الخضراء في اللحظة التي اطلت فيها مقولة حنان على عقلي عندما تغزلت بفتاة مصرية بصالة المستشفى الدولي للكلية بالقاهرة عندما كنا مرافقين لوالدها كانت البنت المصرية تُحرك فخذها الأبيض باهتزازات وإيقاع منتظم يبدو انها من نسل احد جنود الحملة الفرنسية فقد انتشرت حمرة مائلة للوردي على صدرها الذي نفر متمرداً حتى على حمالة تهديها التي اخذت تجابد بشدة محاولة إخفاء تلك الدوائر الحمراء حول ثديها ، تولد القلق في تلك العيون التي تسمر بعضها و تتضاربت اخري خلف سراب الحلم بفتاة مثلها ، حينها التفت الى حنان وهمست في اذنها :-

- البت دي تقول واقعه من مجلة سيدتي

ابتسمت حنان بلطف وهي تتمعن في وجه الفتاة الذي صبغ بألوان متعددة وبلوزتها التي أظهرت تفاصيل بياض جسمها مع الاسكربت الشبكي الذي اعتلى ركبتيها بقليل مكمل مع حذائيتها ذو العنق الطويل الذي يظهر بياض

ساقها كانت البت بكامل تفاصيلها دعوة صرحيه للإغراء التفتت حنان وقالت بعد ان انكبت نحوي واخذت تنظر الى عيني مباشرة متناسية تلك الرؤوس التي تتطلع فينا بفضول: -

- الاغراء انوثة مظلمة يا احمد تستخدمها المرأة حين تفشل في اظهار انوثتها الفطرية هذه الفتاة مليئة بالعقد اري دماء روحها تنسكب مع اهتزازات مؤخرتها فتسقط كرامتها مبعثرة في تلك العيون التي تبخلق في جسدها صدقي هي الان تعيش الوحدة برغم ما يحيطها من بشر.

في نهاية حديثها ابتسمت لي نصف ابتسامه بجياء فأيقنت لحظتها ان نصف السعادة ان تبسم لك حنان والنصف الثاني ان تكون بالقرب من حنان.

لاحت لي في نهاية الطريق وانا انحرف بالسيارة الى داخل المجمعات الصناعية اللافتة الضخمة الخاصة بالشركة التي يعمل بها اسعد باب الله (شركة الهدهد الفنية للبناء والمقاولات) تقدمت نحوها وانا أتذكر انني لم اتصل على حنان منذ أمس كيف أصبحوا اليوم ، ركنت السيارة على الموقف الخاص بالشركة مازال هنالك متسع من الوقت أرسلت رسالة صوتية لأسعد انني بانتظاره في الخارج وقتما انتهى من عملة، ابتسمت بسخرية وانا افتح تطبيق الايمو وفي بالي مغتري التعويسة وعلاقتهم اللانهاية مع هذا التطبيق ردت حنان وخلف صوتها أصوات تصدح بهتافات كثيرة يا الله يبداوا انها في موكب

- احمد كيفك ما سامعك كويس لحظات

اغلقت الخط سرحت قليلا محاولاً ابعاد تلك الذكرى المأساة التي أطلت براسها مثل ماردر خرج من قمقم تتدفق معه احداث غير سارة مجزرة فض الاعتصام كانت اشاهد الخيام المحروقة حتى ان انفاسي اخذت تبطئ شيئاً فشيئاً، اخذ حزني يتفاقم والحنين يسيطر على وقبل ان اغوص في نوبة هلع بذكرى المجزرة انطلقت تلك النعمة المميزة للايمو

- احمد كيف كويس

مسحت حنان بحضورها إحساس الحزن الذي احتواني تدلى صوتها مثل حبل
نجاة لغريق تعلقت به قلت: -

- انا كويس انتو كيف اموركم كيف، انت في موكب ولا شنوا

- ايوه حبيبي موكب الساعة عشرة متوجهين للقضائية القمع شديد على
الثوار من قبل الجنجويد والقوات المشتركة والشرطة و الجيش ، طمني عليك
انت كيف والشغل ماشي كيف

الجنجويد ملائكة الجحيم ما دخلوا بلدا الا جعلوا اعزة أهلها اذله وكذلك
يفعلون، حزني يفوق ما يمر به الوطن الان لا اريد ازعاجها بخبر استقالتي هذا
فهي لن تفهم الابعاد التي وصلت بها لهذا القرار، ولا يمكن باي حال من
الأحوال انكي غيرتها بتلك الطريقة الرخيصة فضلت ان أقول لها

- الأمور كويسة خالص حنان بركة دعواتك انت وامي ودعمك لي،
المواكب في شنوا تأني الوضع ما استقر

لم أحس في صوت حنان تلك الحماسة التي تعودت عليها من قبل كان صوتها
واهناً ضعيفاً يحمل كثير من تفاصيل

- البلد بقت عجيبه مشاكل وهموم وغياب تام للشرطة يا احمد الجريمة في
منتص النهار وامام رجال الامن، أمس اكتشفنا ان الجيش مسيطر على اغلب
الشركات ورافض ادراجها ضمن وزارة المالية وأحزاب قوي الحرية والتغيير
تنافس جاهدة على استوزار عضويتها والكيزان والشيعوي لعبة تبادل خواطر
الجميع يتهم الجميع بالمؤامرة وبيع الثورة، الان الوطن يوفر كل شيء لفشل
الانتقالية.

كنت اثق في حنان كثيرا وفي آرائها لم تكن مجرد حبيبه وام لطفلي حنان بذرة

زرعت في قلبي فأخضرت وتورقت، تنو بمهل بدفقات شراييني وتمتد جذورها وفروعها داخلي بسلاسة وهدوء كنت استمع اليها باهتمام الى ان وصلت: -

- الأيام فارغة من دونك يا احمد ليس للمواكب طعمها بوجودك قربي

تجسدت ذكرياتنا أيام المواكب امامي ببط بدأت مثل فقاعة تطفو على سطح ماء مال يغلى من الحسرات ظل حزني يتفاقم بإمكانني التغلب على حنيني للوطن اما شجني لحنان صعب العبور، تقف لهفتي عاجزة امام دمعي الذي هطل يروي عطشي، عوز الشوق وحدة يعلمنا الصبر ، احسست ان لا طائل من مكوثي هنا اسررت لحنان عن نيتي الآنية قالت بأناية:

- العودة للوطن برغم انها في متناول يدك لكنها ترف بالغ التكلفة في تلك الأوضاع يا احمد. ابقي مكانك الى حين، اما عبرنا نحن اليك بعد هزيمة الوطن او عبر الوطن واتيت انت تكمل مسؤولياتك تجاه اسرتك.

حالة من الصمت الكئيب فرضت بيننا وصدي هتافات الثوار خلفيه حزينة لحال البلد، شبكة الاتصال واقعة أحيانا وأحيانا تنقل صوات فرقة الغازات المسيلة للدموع او لعلها أصوات طلقات نارية قالت حنان بنحى مبددة صمت الوطن تحت طوفان العسكر: -

- الأحزاب بمختلف توجهاتهم يتآمرون من اجل السيطرة على الثورة منهم من وضع يده ليلا في يد العسكر ضد الآخرين ومنهم من استعان بالجنجويد عليهم، صدقني يا احمد العطب ليس في الوطن الاعطاب في عقلية الساسة المهرولين للسلطة بثوب الثورة بقدر ما قدمت الثورة من شهداء بقدر ما كانت المؤامرة تخرج مع هتافات الساسة رافعة شعار حقن الدماء.

وجدت نفسي ابكي بحرقه وحق للنفس ان تبكي بحرقه عندما تثور عليها الاسيء للأسف الشديد ليست هنالك أي عدالة في الوطن الذي يهتم بالمنافقين ان كانت شخصيات او كيانات، كانت لوحة لشهداء الثورة تتجسد

امامي في الفراغ غصة وجمع في حلق الشعب، التنظيمات السياسية اتفقت على تصنيف الأرواح فكانت صور شهداء محمدين تتوزع في مخيلة الوطن بشكل خاص، حتى في الموت الوطن يعتمد على الانتماء السياسي وشهداء آخرين يهبطون من ذاكرة الشعب عن عمد، واصلت حنان حديثها: -

- الشعوب التي تريد ان تسوس نفسها عليها اولاً ان تجد زعيمها لم يكن حمدوك هو الذي يحتاجه السودان في تلك المرحلة يا احمد بداء لي طوال الوقت انه يريد ان يرضي الجميع وانه دائماً يبحث عن حلول توافقية مع الجميع، في هذه الحياة لا يوجد حل يرضي الكُل يا احمد لا يوجد حل يرضي جميع الأطراف.

- وكيف سوف تسير الأمور إذن يا حنان

- اعتقد ان السودان ذاهب ناحية سيطرة العسكر من جديد مسألة وقت ويعلن البرهان بيانه الثاني بعد فشل انقلابه الأول عقب فض الاعتصام فوالد الرجل حلم والشعب رهينه من اجل تحقيق هذا الحلم، البرهان مثل البشر تماماً ولكنه أكثر انحطاطاً.

فتحت حنان بحديثها هذا شبهة الحزن لدي، الشئ الوحيد الذي تتميز فيه الأحزاب السودانية والعسكر هو خذلان الحقيقة، انفلتت تنهيدة حارة من رئتي وانا أودع حنان على وعد الاتصال بها مساء اليوم من امام الكعبة قبل ان اغلق الخط سألتي عن روز وكيف تسير اموري مع المدام اخبرتها بموعدي مع روز مساءً بمكة وخجلت ان اخبرها عن فضيحتي مع المدام سألتها بدوري: -

- ماذا فعلتي مع سحر زوجة جمال بعد اخر تواصل بينكم

- هي بخير كما اخبرتك لكن مأساتها في جمال كبيرة يا احمد برغم انها أبدت بعض اللين وس.....

انقطع الخط بتامر شبكة الانترنت مع الاحزان، ظللت لبرهه اراجع ما قالته

حنان في ذهني وكيف تسير الأمور في الوطن الى ان ارتفع رنين الهاتف مرة اخري
ظهر اسم أستاذ عباس غمغمت في اسيء: -

- ماذا يريد هذا الان

- رديت عليه بتكاسل وانا المح اسعد خارجا من باب الشركة الزجاجي: -

- أستاذ احمد ان شاءالله انت بخير

- بخير أستاذ عباس كيف انتة

بدأت حفلة لوم فوراً تنهال من لسانه الذي يحاول جاهدا ان يستعين بمفردات
فصحى خذلتة لغته العربية المكسرة، لا يكفي غريته بالسعودية لعرويته التي
يظن، وان تشبه بهم ملبساً فالشك يطال كل الوطن في الانتماء للعروبة: -

- معقولة يا أستاذ أحمد تمشي بدون ما تكلمني كيف ياخ انا اخوك
الكبير وكيف تقدم استقالتك بدون ما أكون على علم ياخ المثل بقول إذا ما
عندك كبير.....

- قاطعته بملل اتمني ان يحس بطعمة: -

- والله القرار جاء لحظي وكان في نيي ان اخبرك أستاذ عباس طبعاً
..طبعاً انت كبيرنا ما عندنا غيرك بس عندما اقابلك ان شاءالله أوضح ليك
سبب الاستقالة

- قال دون أكثرث لما قلت: -

- طبعاً نحنا قدامك في الغربية دي وعندنا مفاتيح لكل مشكلة كان من
باب اولي ان تخبرني سبب خلافك مع المدام و.....

- قاطعته مرة اخري وانا اشاهد اسعد يتقدم نحوي: -

- لا ما في خلاف ولا حاجة انا بس قررت الرجوع للسودان

مرت لحظة صمت خيل لي انه قد تفاجأ بقراري الذي قلته، شممت رائحة خبث وهو يقول: -

- يعني معقول تقدم انت واستاذة روز استقالتكم في يوم واحد وتقولي عايز ترجع السودان.

للهولة الأولي لم استوعب ما قاله قلت وعلى صوتي شيء من ذهول: -

- قلت شنوا أستاذة روز قدمت استقالتها

استمر الخبث يصدر صريرا قويا منبعث من قذارة ظنونه، في نفس اللحظة التي صعد فيها اسعد للمقعد الذي بجانبني وضعت سبابة يدي اليمني على فمي دلالة على عدم الحديث وانا استمع اليه: -

- يعني انت ما عارف كل المدرسة الان تتحدث عن اتفاقك مع الأستاذة على الزوج بعد علاقتك بها، لقد كنت اعلم تلك العلاقة ولكني اثرت الصمت عسى ولعل ان ترجع لله فانت رجل متزوج

لم أستطيع ان اتحمل سخف هذا الرجل الغمى قلت صارخا فيه

- يا زول انت ما طبيعي ولا شنوا انت جادي دا كلام شنوا البتقول فيه
دا

واصل أستاذ عباس حديثة وكأنه يتلذذ بشي جميل يتناوله بنهم: -

- لكن خير ما فعلت أنك قررت الزواج بها فليس من شيمتنا نحن السودانيين الغدر بالنساء

هنا توقف كل ما بي جحطت عيناى من هول تفكير هذا الخنزير كيف يتحدث بتلك الطريقة اخذت ارتجف من هول ما يقول اصابني خرس مؤقت وانا استمع لتلك الهطرات اخذ اسعد ينظر الي مستفسرا عما يجري، سمعت وشوشة صادرة من جانبه يبدو ان هنالك شخص اخر يمليه ما يقول شممت

عطر المدام سمعت صوتها يقينا منبعث من سماعه هاتفي: -

- صدقني يا احمد لم يجرؤ أحد على فعل ما قمت به، كيف تغرر بفتاة صغيرة هكذا وتلعب بها باسم الحب هل هذا جزء الاحسان الذي قمت به اتجاهك.

وجدت نفسي اصرخ في وجهها بانفعال: -

- انت احقر شخص يمر بي في حياتي عجوز متصابيه شرمو.....

ومع لحظة انفعالي تلك خطف اسعد التلفون من يدي واغلق الخط سريعاً وهو يقول: -

- يا حبيبنا براحة في شنوا مالك براحة أبرد هدى حبه الإساءة هنا بالألفاظ فيها سجن أبرد

وضع اسعد يده على كتفي محاولاً تهدئتي اخذت انفاسي تتلاحق وصدري يرتفع ويهبط بقوة صقعت من هول ما سمعت وضع اسعد التلفون على طبلون السيارة فتح قارورة ماء كانت على يده.

- اشرب..... اشرب هدى

تلك الغيبة روز لماذا قدمت استقالتها لماذا لم تخبرني بهذا اخذت التساؤلات تضرب راسي بقوة، كان يجب ان افهم ان المدام لن تتركني انفك عن قيدها بسهولة لقد زادت روز ضغينتها علي وغيرتها بتصرفها غير المسؤول هذا التفت الى اسعد كان متتبع حديثي الهامس ربت على كتفي وقال: -

- كدي انزل تعال

حملت الموبايل ونزلت خلفه اعاني دوران المفاجأة، احسست لحظتها اني في حاجة ماسة الى سيجارة ليس كحاجتي لها صباح اليوم ولكن طعم النيكوتين الذي فارقتة منذ مجزرة فض الاعتصام خرج من بين انفاسي أصبحت غير

قادر على المواصلة بدونه اسررت بحاجتي تلك لأسعد الذي نظر الى ولم يبدي أي اهتمام فتح باب سيارته لي ارتيمت بكامل جسدي على المقعد الذي بجوار السائق اغلق الباب واستندار الى الناحية الأخرى ادار المحرك وهو يقول: -

- كدي استغفر الله وكلمني الحاصل شنوا...؟

مد لي اسعد علبة سجائر مارلبورو يحتفظ بها في درج السيارة للطواري كانت السجائر جافه فاسعد يدخن حسب توقيت المهم، اشعلتها ويدات احكي كل التفاصيل التي مرت بي مع المدام الى لحظة اتهامي مع روز بما سمعته من عباس وانزوت قبل قليل، كان الاهتمام بادي على وجهه لم يقاطعني فقط كان يلتفت لي بين حين واخري مبدئياً مزيداً من التركيز ارتسمت على محياه ابتسامه عريضة عندما وصلت بسردي ما حدث في الفيلا، ترك اسعد كل التفاصيل وسألني

- لكن روز قدمت استقالتها لي

- انت بتسالي انا زيك تفاجات باستقالته

انتبه اسعد لسؤاله الذي حسبته في قرارة نفسي بالسؤال الغبي، لم اتمالك نفسي بحثت عن التلفون في جيوبي الامامية استخرجت رقم روز من سجل المكالمات كان اخر اتصال ضغط على الزر منتظرا الرد من الجانب الاخر، انساب صوتها يانعا مخالفا ما يعتريني من قلق

- يا هلا احمد كيفك شوية وتتحرك انا في انتظار جدتي وانطوان

- روز انتِ قدمتي استقالتك من المدرسة

مرت لحظة صمت حسبتها دهرأً من القلق، كنت اري نفسي مكتوف اليدين امام هذا التوتر الذي برز بخوف الفضيحة لحظة وصوله الى حنان الى ان فاجأتني بضحكة كاملة الدسم تنساب مع موسيقي صوتها قلت بغضب: -

- انتِ بتضحكي

- اتصل بيك أستاذ عباس صحيح واخبرك باننا على حافة عشق وانني قد اتفقت معك على الزواج

في لحظة خارج جغرافيا المكان احسست ان روز تستلف مفرداتي في التعبير كانت تحاول ان تشبهني في الحديث قلت بعد ارتبأكه: -

- ايوه صحيح

لم أكن أتصور ان تبدر تلك الكلمة من خجل روز

قالت وصوتها يعبر منحدرات القلق عندي

- لا عليك لا تركز كثيراً أستاذ عباس هذا قواد لن يصدق أحد ما يقول، فقد تكررت نفس الاحداث من قبل باختلاف الأشخاص الجميع في المدرسة يدركون شهوانية المدام وأنها تميل للذكور الأصغر سنأ رياضي الجسد مثلك لقد كان قبلك أستاذ موسى النيجيري مدرس العلوم وعبد الشافي السنغالي مدرس الرياضة الجميع ينافق المدام لضيق العيش

لم استدرك ما تقوله روز لكني فضلت الصمت وهي ترمي بشرر كراتها النارية فتنفجر ألوان متوهجة تحرق سري الذي اخفيته عنها: -

- لقد كنت اعلم ذهابك الى فيلا المدام عندما اتصلت بك ، ما حدث ليلة أمس كنت أُمّني نفسي بان لا تسير وفق خطتها، اكلتني الظنون وانت تخبرني بان ليس هنالك شيء لم أستطيع التوازن وانت تدخل الى مكتبها حاولت منعك في اللحظة الاولي وعندما رأيت استحاله ذلك دخلت معك الا ان المدام اخرجتني مكثت في الصالة اترقب خروجك كأنك طيب يجري عملية لشخص أحب، صفى ذهني عندما اخبرتني أنك قدمت استقالتك لحظتها رفعت يدي احمد رب العالمين أنك لم تشاطرها ما كانت تنوي وحسنت امري بان اغادر انا

أيضاً

تجمدت الدماء في شراييني وفتُح ذهني نحو طريق متعرج لا نهائي متورط مع الاحداث التي انثقت على مفجرة تساؤل علق براسي ..ولكن لماذا كل هذا ... لماذا تخافي على هذه الدرجة للحظة تبين لي غباء السؤال الا انني استدركت قائلاً: -

- كان من السليم ان تخبريني بكل تلك التفاصيل روز بدل ان تضعيني في امتحان عسير مثل هذا

لم اتلقي جواباً منها سمعت صوت باب السيارة يغلق وصوت، يسألها مع من تتحدثين اغلق الخط على سبق السؤال والترصد، اغمضت عيني رجعت الى الخلف مسنداً ظهري على المقعد التفت اسعد نحو متسائلاً قصصت له القصص واتكات الى ظل ذي ثلاث شعب ناتج عن دخان سيجارتي التي احترقت قبل ان اتذوق رحيقها، فهقه اسعد بصوت عالي محاولاً اخراج خيباته معها وقال: -

- البحصل من روز دا ممكن تسميه شنوا بالضبط

كنت مغمض العينين اتحاشي نقر ذهني فتتصاعد اجرة الذكريات او التخمين بتوقعات قد تقلق ازقه عقلي المضطرب: -

- ما عارف والله

- اعتقد ان روز تتعامل معك كأنك والدها، فحسب ما علمت منك ان روز كانت تحكي كثيراً عن والدها ومدى صداقتهم ومغامراتهم معاً هي تري الشبه الذي بينكم ليس في الشكل بل حتى في التصرفات لم تقل لي ان والدها كاتب مغمور فبالتالي قد تكون مفرداتك قد اجرت بها الى نُهر الحنين فأنكبت عليك دون وعي معبره عن فرحتها بتلك الطريقة التي فيها تداخل ما بين حب وحب تحدث اسعد بتلك الكلمات حديثة يحمل نبره من الجدبة الصارمة حتى انني

انتفض من رقدتي تلك وحولت بصري اليه

– هل تريد ان تقول ان روز تراني والدها لاكثر

تشاغل اسعد بالطريق المزدهم ولم يجاوبني ، اليوم الخميس اغلب الوافدين يتوجهون الى مكة بالأخص الجاليات الاسيوية قليل من السودانيين يتوجهون الى الرياض وكثير من أبناء الوطن الذي نحن به يتوجهون اما للساحل الغربي او لمملكة البحرين ضغط اسعد على زر الجمع اشتعلت انوار الهزر امام ومؤخرة السيارة تنبه القادمين خلفه في الطريق السريع ان يخفضوا سرعتهم توقفنا امام كمين رجال الشرطة السعوديين يتفحصون اقامات الوافدين ويحتجزون المخالفين ، اشاهد نساء وأطفال ، ازواجهم يلاحقونهم يتوسلون للشرطي ان يتركهم يتم اخذهم من قبل الشرطة دون أي يرتد لها جفن ، يكومنهم على سيارات كبيره مغلقة بصندوق ضخم يحيط به افراد من الشرطة لهم ملامح جامدة وقاسية يتعاملون مع الوافدين كما يتعامل امية بن خلف مع عبده الذي خرج عن طوعه ، كانت لحظة قاسية ان نري اسرة سودانية يتم اخذهم وسط بكاء أطفالهم وصراخهم وتوسلات الام بانهم سوف يقومون بتجديد اقاماتهم ، انكسار الاب غريه بدن ، بداء واضحا عليه ارتباك اقرب للانتحار فقد وضع يده على وسطه مدهولاً وزوجته تحاول ان تعيد حديتها للشرطي نأحه تتوسل بكل مقدساتها انهم في اقرب فرصة سوف يقومون بالتجديد ودفعت الغرامات نحرها الضابط بغضب فقد كانت تعيق عملهم :-

– يا حرمة ايش تريدان الاقامات منتهية ليها سنه ونصف تري حديثك ما يفيد في شيء

أشار الى العسكري الذي امامه بأخذ الاسرة بكاملها الى الترحيلات وسط بكاء هستيري وخوف العودة الى الوطن مجبوراً، تذكرت قصيدة رحال لسفيان جنو بدأت لي تناسب اللحظة خرجت من بين شقوق العتمة بنفس طريقة القاء سفيان للمقطع: -

رحال على كف القدر

قام من سفر قاصد سفر

لاحت منافيه مسهله

ما الرجعة للوطن انتحار

والغربة ميته ممرحله

طأطأ اسعد راسه وتضاري خجلا، فضحتنا الفجيعة تكاثر خوف الرجوع للوطن فوبيا تمس مغتري الخليج وبالأخص النساء واطفالهم انتشرت مثل فايروس خبيث يتحاشى الجميع أن يصيبه، المأساة تنصدر قائمة الحضور كُل في الغربة محروم بالأقساط، السودانيين يريدون ان يعيشوا عاداتهم وتقاليدهم بنفس الإرث ولكن بعيدا عن جغرافيا المكان، نهم بالوطن ولكن لا نعيش فيه نتغنى بوطن الحدود نفديك بالأرواح نجود وطني.... وطن الحدود نِعم الوطن خيراتوكم يتدفقن آن الآوان أن تُمتحن في سبيلو لا نطلب ثمن ، ولكننا في نفس الوقت نخشي الرجوع إليه ، أي عبث يمتطينا ، ابتسم ساخراً وانا تذكر سخط المغتربين في امتحان لفتح شمس الخرطوم عندما تضرب تجاعيد الارق فينسكب عرق ملبد بهواء الاسبلت وايادي مرتعشة مكبله بأطواق من ذهب على شكل غويش تمسح على الخد بمناديل من ورق ، لن نجد الوطن بالتقاليد والاكالات السودانية على تخوم المدن الخليجية ولكنها الغربة هي التي تدفعنا ان نعيش الشجن بتلك التفاصيل هي التي تُعري اوجاعنا التي تركناها على امل الخروج قهرا من الوطن، الغربة هي اللحظة الحقيقية التي تتجلي فيها حاجتنا للأمل بان الأوضاع ستتحسن فنستيقظ من حلمها على اوجاع وآلام مخدرة تنتح المأ في رحم العوز وتقدم العمر ، الغربة هي نفسها من تخلع عنا ما يسترنا فتتركنا امام عوراتنا نبكي الشوق في شكل قصيدة

يا طبر يا ماشي لي أهلنا

بسرعة وصل رسائلنا

والشوق ما تنسى يا طابير

لكل البسالك عنا

قولهم عن عهدي ما زلنا

وما زلنا ذكراهم أنفاسنا ومشاغلنا

دخلت الى ساحة الحرم المكّي يسبقني شجن خرافي لم اشعر به من قبل،
وكما توقعت اني سوف انكب على ستائر الكعبة او ارمي على أرضية الحرم
واغمض عيني في دعاء وتذلل كامل اترأ من ذنبي وعشقي لوطن منكب
،اديت صلاة شوقي كبرت لناقله حب بعد سجدة سهو في عشق السودان،
اختليت بري امام بيته فاضت دموعي وبكيت كما لم ابك من قبل بكاء حلو
نزلت دموعي باردة فغسلت قلبي منحتة صفاء من ذنوب مسحتها ،فشعرت
بإضاءة نفسي من عتمه جثمت على صدري نزعتم جلدي وجزء من لحم
فخذي مكان التصاق مؤخرة المدام بي ، احسست ان روحي تدور في شكل
حلزوني متصاعدة الى اعلى مراتب من نشوي ، غير واعى بمن حولي في حاله
خشوع لربي واستسلام بارتقائي في اسرائي صعوداً مفارقاً ذله سقوط كنت
قاب قوسين او ادبي منها، نظرت الى الكعبة قدسيته خلاف ما يعتقد الكثير
ليست في ذاتها فهي حجارة من طين وقماش مذهب، قدسيته نابعه من تلك
السكينة والطمأنينة التي تهبط روحا من الخالق فتخلج الانفاس وتتقابل الأرواح
مع تجلي الله لطفاً ورحمة ، تذكرت في تلك الاثناء عم علي والد حنان في
اخر أيامه بالمستشفى بالقاهرة عندما كان يعاني من الفشل الكلوي تضخمت
الساقين والقدمين يتنفس بصعوبة مطلقاً حشرجات منقطعة تبرز معها ضلوع
صدره كأنها تريد ان تقفز من جسمه الهزيل اخذ يتمتم بكلمات مع الوهن
البائن في محياه ملت ناحيته استمع لضربات قلبه غير المنتظمة فتح عينه وقال
لي مبتسماً

- ما زلت حياً

مال الى الناحية الأخرى مواصلاً أكمل تمتته، استطعت ان اميز همساته التي كانت تسبح باسم الله حمداً، تعجبت مرضه يقابله بكثرة صلاته بالدعاء وهو في تلك الحالة التي يرثي لها بحثت في عقلي عن فكرة ابرر بها فعله، اتفهم ان يجزع للمصيبة التي امت به بالأخص ارتفاع تكاليف علاجه التي عجزنا عنها، او على اقل تقدير ان يصبر على مرضه ويرضي رضاء المغلوب على امره ولا يملك حيله له لقد امت به محنه عويصة لكنه خلاف كل هذا ظل يشكر ربه عليها نظرت اليه وانا انقض عليه بسؤال من انفعال دهشتي التي كانت ظاهره: -

- انت بتشكر الاله على الفشل الكلوي عم علي

نظر الى مبتسماً تحسس موضع الابر على ساعده بيد مرتجفة من فعل المحاليل التي نهشت جسده وقال: -

- كلما سلمنا بأمر الله راضين بقضائه ارتقيننا منزله لقربه، وانفصلت عن دنيا امتحانه روحنا فتحلق في سمائه لتصل الى نوره.

عجيب أدرك هذا الرجل ايمانه يفوق قدرة الوعي نظر الي مرة اخري وقال: -

- الله فينا يا ابني الله فينا الله يسكن في القلوب وبدون ربنا بنروح من الطريق

لم تمضي ساعات حتى ارتفعت روحه الى نور يريده، الامر الاغرب من هذا كله هو صبر عمار وحنان لم اري صبراً في فقد الوالد مثل صبرهم ولم اري حبا لوالد من أولاده مثل حب حنان وعمار لعم علي، لقد غشيتهم رحمة السماء فهطل عليهم ظل من صبر، عم علي أحد اتباع الفكر الجمهوري وكان من ضمن مؤيدي محمود محمد طه الذي قدم بمشروعه الفكري تأويلاً جديداً للإسلام يرتكز على تأويلات الفكر الصوفي الذين كان ينتمي له فكراً وسلوكياً وذوقياً فتشرب أبنائه زهدة.

افقت من توهج ذاكرتي على صورة روز قادمة اتجاهي مبتسمة قابضة على يد جدتها لامها ومن خلفهم أنطوان ينظر الى مستغربا تواجدي في نفس جغرافيا اخر لقاء، لم أكن بزى الاحرام هذه المرة كنت مرتديا وطنا بجلباب ابيض مميز وغطاء راس طاقية خضراء ، وقفت مرحباً بهم ، لهفه روز كانت بائنة متحفزة تجاه دهشة أنطوان الذي سلم على هذه المرة بحميمية بالغة ، صافحتني الجدة وهى تتحسس وجهي بأنامها وقطرات من ماء تنزل من عينيها ، تجمدت اللحظات في انتظار فعل القدر وقفت بكاملي امام الجدة التي تري زوج ابنتها الان ، متورط انا اذن في تلك الشخصية الشبه حتى النهاية

- لقد اخبرني روز عند كثيرا نعم هنالك شبه كبير بينك وبينه إذا شاهدتك المرحومة والدة أنطوان (هلن) لقات انك كمال في شبابه.

نظرت بدهشة الى روز وفي بالي تساؤل جاوبتني فقط من نظراتي قاتلة

- نعم توفت والدي وانا في الثالثة من عمري يا احمد

فتحت عيناى في دهشة الان بدأت بعض الأمور تتضح لي تماما يبدو ان اسعد لدية حق فيما ذهب اليه حول حقيقية مشاعر روز ناحيتي استلمني أنطوان وسحبني من يدي نفترش الأرض متوجهين بيت الله الحرام جلست روز قربنا مسنده الجدة التي ارتفعت همهاهما بالدعاء قال أنطوان

- دخلت جدتي الإسلام دين محمد عليه السلام بسبب معاملة والدي لوالدي فقد كانت مسيحية.

ها قد تكوم حنين الكون امامي الان قصص من بطوله، اغمضت عيني وانطوان يحاول ان يسترسل في الحديثة عن والده

- تصدق أستاذ احمد عندما شاهدتك لأول مرة في نفس المكان استغربت الشبه الكبير بينك وبين والدي وعندما حدثتني روز عنك عرفت أنك تشبه أيضا في الروح.

لهجة أنطوان كانت أقرب للسودانية منها للهجات خليجية متداخلة مع الشامية
قلت: -

- يبدو ان علاقتكم كانت قوية معه

رفعت روز راسها ثم نظرت نحو اخيها التقت اعينهم تائهة تبحث عن مرسي فألم
الانكسار اشد قوة على من اعتاد وجود شخص في حياته: -

- لم يكن ابي فقط كان كل دنيتي يا احمد

كنت ابحث عن شيء أقوله المؤاساة في تلك اللحظات نوعا من هدر كرامه من
امامك انساب الى مسمعي مقطع من أناشيد كارمينا بورانا لا ادري ما المناسبة
ولكن اللحن ضرب داخلي بقوة

يبدو لي أنّ وقارَ القلبِ الجليلِ أمرٌ صعبٌ

اللهوُّ أحبُّ إليَّ من العسلِ حلوِ المذاقِ

ما تأمرُ بهِ « فينوس » هو خدمةٌ مريحةٌ

« فينوس » التي لا تسكنُ القلوبَ الوضيعةَ أبداً.

كنت قد قراءت تلك الترجمة على مسودة مخطوطة لرواية بقلم والدها تحمل اسم
(بين نارين) كانت قد دفعت بها روز لي لمراجعتها ومحاولة نشرها في ذكري
وفاة والدها القادمة استغفرتني الاهداء في مقدمة المخطوطة وقفت عليه أتأمل حروفه
التي كتبت بصدق

الى الأنتى التي اعادتني للحياة مرة اخري بان قالت لي

،، حُب ،، فكنت

الى هلن

- الأكثر انكساراً بفقد الاب لم تكن روز التي تأثرت ولكنها تجلدت، أنطوان ظل ومنذ وفاه والده يعيش عزلة ضربت كل كيانه برغم ملامحه الوسيمة اخذ طول والده ورقه امه لم يعد يهتم باي تفصيله في الحياة تجاربه ضيقة حد العدم محبط يجلس عل تل من اللامبالاة حاولت كثيرا ان يخرج من حاله التكلس التي فيها تلك الا ان وافق أخيرا على المجيء الى السعودية فقد كنا في USA، تحسن حالته الروحية انعكس عليه في جميع المناحي،

همست لي جدة أنطوان بتلك الكلمات وهي تنظر الى عين حفيدها بحنان بالغ.

- من الذي أطلق عليك هذا الاسم سألت ونظري يتجول بين الوجوه الثلاثة

اجابت روز وهي تطيل النظر فسى :-

- اي، وهو اسم أحد اعز أصدقائه وعن طريقة تعرف على والدتي

صممت ثم واصلت حديثها متسائلة: -

- هل يبدو لك الاسم غير عربي أيضا

كانت دعوات الجدة تغطي حديثنا بالبركة وانا أقول

- هو اسم غير عربي نعم اعتقد انه لاتيني ويعني الشخص النادر

تذكرت في هذه اللحظة لقائي الأول بهم كان نوع من الصدفة التي تتم بتدبير محكم للقدر وضعت حروف كلماتي وسادة من حنين وشجن للماضي لقد مرت أيام صعبه على روز برحيل والدها وضعف واهتزاز اخيها، تكالبت عليها الكوارث ببشاعة يصعب تصديقها لقد صمدت تلك الصبية في منحدرات صعبة وخطرة، روز انثي باذخة الصبر والجمال لعلها لعنة اصابتها من روح اجدادها لأبيها فكل جميل منكر في وطنه، اقتربت مني جلست بيني وبين اخيها وهي تتمتم بكلمات

- حسبته تراتيل ودعاء صمتت لحظة ثم قالت لي: -

- ماذا نويت ان تفعل ...؟

- في ماذا ...؟

نظرت لي بتحدي كانت نظراتها تشبه نظرات حنان او هكذا تهي لي

- لم تقدم استقالتك من المدرسة ماذا نويت هل لك عمل

- - اهااا نعم الاستقالة لا والله يا روز الى الان أجهل الخطوة القادمة قلت

كلامي هذا وعلى ملاحى حيرة

- ما رايبك ان تعمل معنا

نظرت الى أنطوان صاحب المقترح مستفسراً لم أستطع ان اتجاوب معه ماذا يعني

بالعمل معنا

استدركت روز ما حل بي فقالت محاولة محو حيرتي

- لقد فتحنا مؤسسة تجارية باسم أحد معارف والدي سعودي درس

بالولايات المتحدة نعمل الان في مجال بيع وشراء السيارات وأيضا قطع السيارات

المستعملة القادمة من أمريكا

فرحت جدا بما قالته روز هي الان تشق الطريق مع اخيها جيدا... قلت وانا انظر

اليها بفخر حقيقي

- جميل ... ممتاز..... ممتاز .. انا بالجد مبسووووط بالمشروع، لكني لا افهم

في هذا المجال

طيلة تلك الفترة كانت الجدة تتابعنا بصمت فقط ترفع كفيها وتحرك شفيتها مررودة

بعض الاذكار والادعية رد أنطوان بعد ان قبض على كف اخته قائلاً: -

- انا أيضا لم أكن افهم ولكن روز هي من قام بدراسة المشروع وهي من تخاطب الشركات الامريكية لشراء السيارات من هناك وتجديدها هنا في جراج كبير قمنا بإنشائية ومن ثم بيعها وهي من قام بالتوسط لدي بعض الجراجات لشراء قطع الغيار التي نوفرها لهم .

اخذ ينظر الى أخته بأعجاب شديد واصل قائلاً: -

- هي من ساعدتني لأجد نفسي من جديد

ارتسم الحياء على وجه روز فكانت قمر يطل بمهل على الأرض، تحمست هي أيضا لفكرة ان اعمل معهم او لعلها كانت تببت النية لها، كتبت ضحكة كانت خارجة غصبا عني وانا أحاول ان اتبين وجهه المدام عند معرفتها اننا نعمل معا في مشروع روز الخاص، استدركت امري وقلت

- ولكن كيف تكون الإقامة

- الإقامة ما صعبة يعملوها ليك، أفضل ليك شغل قطع غيار العربات دا أفضل كتير

التفت الى مصدر الصوت وجدت اسعد واقفا خلفي ومعه جمال صافحهم أنطوان وسلموا على روز والجددة، جلس الاثنان بجانب أنطوان بداء واضحا ان الاسرة الصغيرة كانت في غاية البهجة وسطنا اخذنا نتحسس كلماتنا تعرفت روز عليهم من قبل فقد تقابلا في مستشفى جدة التخصصي ، اقر الجميع على ان العمل الخاص في الخليج افضل من الوظيفة باي حال من الأحوال وافقتهم الراي على ان اجرب لمدة محددة اذا كتب النجاح اواصل وفي هذا التوقيت اجث على وظيفه ، كانت فرحة روز بقبولي العمل معهم وان كان مشروط ظاهرة رأيت في عينها تلك الحماسة التي تعودت عليها من قبل فأخذت تصفق بيديها وسط نظرات وابتسامات الاخرين ، تدفق الدم في وجهها دافعت عن خجلها بابتسامه مكتومة ونظرت الى الأسفل بعد ان أستدرك انها بالحرم الملكي ، ارتفع اذان العشاء فأخذنا

قلوب تجاه القبلة نبتهل من فضل الله ، لم تمر لحظات حتى احتشد عدد من الجنود يحيطون بشخصية مهمة داخل على ساحة الحرم المكي حاولت تجاهل الحدث ولكن هتاف اسعد بجناحي ردي مرة اخري مدققا نظري همست في سري مثل ما همس بلال بن رباح

- البرهان ... لا نجوت ان نجي

في لحظة تذكرت الانحطاط الذي حل على الوطن البرهان سفاح يفوق البشير بمقدار شرطتين في الدونية الان يطوف بيت الرب، ما أبشع ان تري عدوك امامك وتكون مرغما على تركة بحجة السلمية، يضرك العسكر وهم يردون القتييل تلو القتييل مضجرا بأوهام سلمية الثورة والتغيير ومن ثم يأتي لله في بيته لغسل الدماء من يديه. أخذت أحدق في موكب البرهان ومن معه يطوفون بالبيت العتيق قلت: -

- عارفين الماشي مع البرهان دا منو...؟! أصابني طمام واحسست بان بطني تحاول ان تخرج ما بها، رد اسعد دون ان يزيح بصرة عن الحشود

- اعتقد انه طه الحسين

أومي براسي إيجابا وأقول: -

- البرهان يعامل كأنه رئيس للسودان

حاولت تهدئة نفسي قليلاً وانا اتفكر في فعل الرب وهو يشاهد البرهان يمد يده المملوطة بالدماء ينادي يا رب يا رب مطعمه دماء ومشربه دماء ومتغذي بالدماء هل يستجاب له، صعد في هذا الاثناء صوت إحدى الكنداكات كاسراً حاجز الدهشة في الحرم المكي الصوت ينهال شتماً في البرهان لم تمضي لحظات حتى كانت لعنات السودانين بالحرم المكي سهام تصوب على البرهان ورهطه، صمت الجميع عن الهتاف عندما تدخل جنود الشرطة لاحتواء الموقف فيما جحظت اعين البرهان خوفاً ببيت الرب و ظلت الحقيقة ساطعة مثل الشمس تؤذي المتعامين عنها البرهان سفاح قادم.

خالجني توجس خفي وارتفعت دقات قلبي منبه الى أن مستوي الأدرينالين في صعود إثر رنين جرس هاتفي المحمول، الساعة على الحائط تشير الى الرابعة فجراً تناولت تلفوني وي رجه خفية اخذت اتمم في سري اللهم اجعله خير، توسطت الشاشة التي تومض اسم سحر، فوجئت بالاسم مع اضطرابي الأول واعتلتني دهشة مربكة اخذت اردد في سري سحر ... سحر. من سحر استدركت اخيراً سحر زوجة جمال يا الله لقد تركت مهمة التواصل معها لحنان بعد اخر اتصال، لم اذهب مع احتمالاتي الكثيرة في ماهية اتصالها خشيت ان يصمت صوت الجرس فأثقلب في فضول معرفتي للاتصال، نقلت الالياف الضوئية حزن كلماها التي تداخلت ما بين العربية والانجليزية قالت معذرة: -

- أحمد ازيك اسفه على الاتصال متأخر لم انتبه لفرق التوقيت بين السعودية وهنا ولم اشاء ان اقطع لاتصال بعد ان رن الهاتف انت كيف ان شاء الله كويس مع الغربة.

بدأت مرهقة يسكن في صوتها انكسار وحزن، نفضت نفسي من على الفراش بعد ان ازحت الغطاء الذي تكوم على جسدي ارتيدت نشاطاً وحركة فارقتني منذ زمن لاحظت استدارة بطني وتكورها باللهي جحظت عيني كنت ذاهباً في طريق اسعد السمينة والترهل تماسكت لحظياً وانا أرد شاردا على سحر: -

- سحر ... سحر كيفك ازيك ياخ والله ليك شوق عظيم ان شاء الله انت كويسة طمينني عليك وعلى الأولاد كيف انشغلت عنك الأيام الفتات دي لكن اعتقد حنان كان على تواصل معاك.

وصلت الى مسامعي صوت تنهيدة حارة أدركت ان هنالك ما تريد ان تبوح به تجلد الغموض للحظات وساد صمت مرحلي الى ان جاء صوتها هامساً ومضطرباً الا انه كان أكثر أنوته

- الم تحب حنان بالمستجد...؟

اعتلت الحيرة وجهي وان أقف امام المرأة الكبيرة في غرفتي اتفحص كرشي التي بدأت في التواء الى الامام مخلقة اوجاع ترهق نفسي التي استفحلت أوهاماً متخيلاً شكلي المستقبلي إذا سرت بنفس هذا المنوال قلت لسحر: -

- لم أستطيع التواصل مع حنان منذ يومين يا سحر الا من خلال رسائل sms للاطمئنان عليهم فالنت والاتصالات مقطوعة تماما في السودان كالعادة.

صمتت سحر للحظات احسست بدموعها تنسكب، واوجاع الوطن تمتد على الجميع قالت بوجع: -

- ذكري جمال تحط على يا احمد تـؤرقني تجعل حاضري علقماً تشدني اليها شداً

قالت كلماتها تلك معترفة وكأن كبرياءها الذي استوقفته حينها قد تواري الان ويعفوية فطرية سليمة استمرت قائلة: -

- مازلت أحب جمال يا احمد مازال داخلي لم أتعافى منه برغم ما فعل بي

صمتت للحظات اتابع حديثها أتأمل تركيب الحسرات وضياع الامنيات بسبب التعتت هكذا نحن السودانيين فاشلون في كل شيء نتوهم المعرفة ونثور على من نحب لأسباب قد تعالج، ساستنا مثل عشاقنا كلهم يسبحون في مياه رآكده من العفن والدمامل والكرامة المصطنعة من علب الكرتون، العمر يدور في متناهية ونحن نقف على ناصية الحياة نشاهد أحلام الاخرين تحقق والفرح

عنوانهم والضحكة جزء من حياتهم قلت لها بعد صمت

- مازلتِ انتِ أيضا داخل جمال وهذا ما دفعني للحديث معك يومها،
العمر يمر يا سحر من هنا وأنتم واقفون في خلاف قديم بلا حرك... المغفرة
... المغفرة يا سحر هي سر الوجود لقد تحدثت معك حنان وتحدثت انا مع
جمال ليس هنالك اختلاف جوهرى هنالك أخطاء نعم خطأ عظيم ارتكبه
جمال ولكن هذا ليس سبباً كافياً في اعتقادي ليضيع العمر وأنتم تأهون تحت
سطوة تلك الشعارات التي تتحدث عن النسوية او مفهوم الذكورة
قالت :-

- لقد نصحتني حنان ان اجرد روحي من عذابتها وان اغذيها بما هو
مقدس لي

وكانني أدركت ما ترمي اليه قلت متسائلا: -

- جميل طيب ماذا قررتِ إذن يا سحر..؟

تتداخل صمتها مع انفعالي اللحظي والتهاب عقلي في التفكير لزمت الصمت
انا أيضا عسى ان يفتح هذا طريقا لكي تسترسل في حديثها عن علاقتها
بجمال وربما هذا يولد فرصة جديدة لنضارة شجرة الحب بينهم بعد ان يبست
وتحطبت، عندما طال صمتها قلت محاولاً استدراجها للكلام: -

- مازال من حقك ان تصدقي قلبك وتكذبي كل تلك الهواجس التي
تبعذك عن جمال لقد وعي جمال الدرس لقد تعلم.

أطلت كلماتها هذه المرة تحمل انشراح ظاهر وتفاؤل

- لقد قررت ان اعمل عمرة واجي الى السعودية لزيارة مكة والمدنية مع
بناتي

انتبهت لحديثها، لم اري انساناً صادقاً مثل انثي احبت رجلاً قلت وعلى قلبي

شيء من سعادة

- انتِ عارفه دا أفضل قرار ممتاز ... ممتاز حتصلي السعودية بتين ان شاءالله يا سحر

- قريب.... قريب جدا يا احمد.

- لازم أكون عارف عشان نستقبلك في المطار ان شاءالله

- حاضر يا احمد

وصل الى مسامعي صوت تنهيدة سحر او لعله بكاء صامت، أغلقت الخط مع دعواتها وامنياتي لها بالوصول سالمه، الخوف من الخطوة القادمة كانت مسار قلق لي، توقف عن التفكير اردد مع صوت اذان الفجر واتمم بأدعية بعد الاذان ، تحركت نحو الحمام وفي بالي حزن سحر العميق وصدمتها في جمال تعاملت سحر مع آلامها بشكل واضح لم تكبت مشاعرها لقد عبرت عنها تماماً ، فتحت الدش على راسي بعد ان تجردت من كل ملابسي وانا أتذكر فعل جمال يا اللهي لقد تم توريثنا مفاهيم غير سوية عن ماهية الرجولة قدمت لنا كمزيج مشوه لعادات وتقاليد غيبه لم يكن جمال وحده يا سحر ليس جمال وحده جميعنا هذا المسخ ، كُنا نسخر من المشاعر ونربطها بالأنوثة والانحطاط .. برب السماء ... كيف لرجل ان يعبر عن مشاعرة انها عار. عيب ... الأنثى فقط هي من تعبر عما بداخلها وتلك مرحلة دونية يا هذا ، لذلك كانت كلمة انت امرأة او انت بتشبه البنات بمثابة طعنه في شرفك أي اضطهاد هذا ، توضأت وخرجت مسرعاً نافضا غبار افكاري تلك على عتبه باب الدخول للمسجد وفي بالي بعض ابيات من قصيدة

أنعل جلوسك في الرصيف

قادر تقيف بس قول نويت

نحن شركاء الحبيبة والصمت والغربة يا صديقي... الوطن مثل عاشق خائن،
يجابد في مجور الحياة ليرسو في النهاية من حيث بدأ والثورة ضرورة التجديد،
همست حنان من بين انفاسها المتلاحقة في اذني: -

- كن بقربي يا احمد لا تبتعد عني

قبضت على يدي بقوة وتشبثت على قميصي بيدها الأخرى، حنان لحن مس
شفاف نفسي استوطنني أعاد لروحي فتوتها أصوات الثوار حولنا تهدر بصخب،
لقد ايقنت ان الله خلق هذا الكون فقط ليكون به قلب حنان وروح حنان،
احطها بيدي اليسرى ضممتها الى قلبي وهتفنا :-

- مدينيا!!اووووو

الجلس العسكري بعد استقالة عوض ابن عوف ينصح الثوار بضرورة الرضاء
بذهاب الرئيس لابد من النظر الى النصف المليء من الكوب وكوب الوطن
مستف بالدماء، بداء واضحاً بان احزاب قوى الحرية والتغيير تسعى للتفاوض
مع العسكر مضت لجنه منهم راضية في طريق وقوده الدم والحجارة، وفد
مفاوضات الحرية والتغيير المدني وجدوه ليناً فعصروه عصرا العسكر والقوي
الإقليمية، ذهب إليهم امناً طالبا التفاوض فجلس بين فخدي اللجنة فاغتصبته
مرارا وتكراراً.

زحمة المقادير تبدو في سباق مع عجلة الزمن اللاهث، والعد التنازلي قد بداء
مع كثرة الوجوه الأجنبية من ممثلي البعثات الدبلوماسية وسفراء دول عديدة،

دخلت الى ساحة الاعتصام بعد ان تركتها ليلة أمس كنت مصاب بوعكة خوف من القادم الان اري ممثلي قوي الحرية والتغيير يهرولون الى داخل مبني القيادة لمقابلة العسكر أصابني حمى القلق، اشاهد البشير في الفضاء اعلي الساحة ماداً لسانه لنا ويضحك شامت بصحبة عبد الرحيم محمد حسين.

الساعة الثانية عشر ظهرا منتصف الوجع تعامد شمس الخرطوم مع الوطن تركت حنان تراعي اسعد ووالدي في امدرمان اخذت اتجول في الساحة، نفضت عنى ثوب العاطفة واخذت أتأمل في الوجوه والتجمعات اردت ان احدد مكامن القوي في الاعتصام بدأ واضحا لي ان الشعارات الاشتراكية والحلول الجذرية هي التي تسيطر على روح الاعتصام لا بل زاد ان استلقت بعض الأحزاب تلك الشعارات في محاوله منها لمجاعة الشارع برغم ان تلك الهتافات المرفوعة تتنافى تماما مع برامجها فكثير من السياسيين ارتدوا ثوب الثورية فكان فضفاض فيهم غير متناسق معهم يحتاج الى قص وتعديل في بعض المناطق، مررت على خيمة الصحفيين وخيام الطرق الصوفية وبعض خيام الأحزاب السياسية كلها دون استثناء تستلف خطاب حماسي راديكالي وتحاول الدخول بحذر وحياء في مجتمع الثورة ، توقفت اما معرض ضخم لصور الشهداء احتل منتصف ساحة الاعتصام تماماً ، إصرار المعتصمين تضاعف مع وجود هذه الصور وارتفعت الأصوات تصدح بقصيدة

شهداءنا ما ماتوا

شهداءنا ما ماتوا

عائشين مع الثوار

المات ضمير خائن

حالفين نجيب النار

وجدت نفسي انفعل معهم واردد بحماس في الوقت الذي قامت فيه بعض

الكندكات بحرق البخور امام صور الشهداء فارتفعت رائحة البخور في أعماقنا فانتشلتنا من اوجاعنا الى حضرة بعيدة نري فيها أرواح شهدائنا هناك في وطن مسالم، دخل الى الساحة في هذه الاثناء عدد من قيادات تجمع المهنيين قادمين من اجتماع داخل القيادة مع العسكر، تدافع حولهم الثوار حملوا دكتور الاصم أحد يقونات الثورة على الاعناق كبطل شعبي وقف القيادي الشاب يخطب في الجماهير بهدوء وشجن والجميع يستمع اليه باهتمام

- لن نرضي بغير مدينة كاملة او اعتصامنا هذا قائم الى تحقيق مطالب الثورة

صرخت بتك الكلمات فالكذب ليس له قدمان يا هذا الكذب ليس له قدمان ولكن له لسان وشفتان .. ولسان ساستنا دائما كاذب، رأيت من بين الجموع عمار علي منكفي على اوجاعه يشير الى من بعيد وكأننا صحبة الموت والجنون

- الوعي.... الوعي.... أكثر خطرا على الانسان من الامراض في مجتمع جاهل

قال عمار على تلك الكلمات وخاطب الاصم بصوت أكثر حده

- لماذا تفاوضون العسكر وعلى ماذا ...؟

تركنا التجمهر بعد ان ارتفعت همهمات البعض منددة التناول على يقونة الثورة تحرك عمار امامي في الوقت الذي تذكرت فيه ما قاله عبد الخالق محجوب عندما سئل في محاكمته الاخيرة ماذا قدمت لشعبك قال الوعي... الوعي ما استطعت اليه سبيلا، الوعي فيروس قاتل في مجتمع جاهل يسيطر عليه العسكر والجن جويد، وقفنا على حين غرة من وجع نتأمل صور الشهداء عاد الحزن مُجدداً لألشجان ، موجع هذا الفراغ الواسع، فراغ يمتد بمساحة وطن نازف فيه كل الحكايات والذكريات، نتكى على حائط امل ضعيف وعمار علي يقصص القصص لعل الثوار يتفكرون كيف كانت طامة التفاوض .

كنت استنشق كل الطرق التي تؤدي الى التغيير، رائحة الفجر تخرج من مسامات حيط الجالوص، امدرمان مدينة من تراب تشهد حراك اخر على بعد هتاف من الاعتصام انتظمت بدار حزب الامة القومي لقاءات ساسة الأحزاب وقف أحد أعضاء كتلة التغيير حاملا دعوة من المجلس العسكري للأحزاب السياسة للتباحث والتفاكر مع جنرالات الجيش لجنة البشير الأمنية حول مآلات البلاد.

اخذ الصادق المهدي ينظر في وجوه ممثلي الأحزاب والكتل السياسية وقال بعد ان أسهب في شرح تحديات المرحلة الآنية وما تبلور من الحراك الشعبي تجاه قوي ديكتاتورية غشيمة

- نحن الان امام مفترق الطرق لإكمال مسيرة نضال شعبنا وامامنا دعوة مقدمة من نفر ترتب على اكتافهم نجوم بحجم الوجود الذي مس هذه البلاد اري ان تتم مناقشة الدعوة ببسر ودون ضغينة ولننظر ماذا نحن فاعلون.

اخذت أصوات المهممات بين الحضور تأخذ في الصعود وتباينت اراء الكتلة السياسية بآراء شخصية حينا وحزبية حينا اخر الى ان وقفت الكتل السياسية جميعا على مبدا الموافقة للدعوة بشرط ان تتكون لجنة ممثلة لكل الكتل السياسية هي التي تقف على ماذا يريد العسكر

تحدث أحد أعضاء كتلة قوي الاجماع الوطني صديق يوسف قائلاً

- هذه لجنة اتصال فقط ليس لها أي تفويض لاتخاذ أي قرار
- انا اقترح دكتور محمد الاصم وأي شخص اخر من تجمع المهنيين

خرج المقترح الأخير على لسان احمد ربيع والذي تم ضم اسمه مع اسم محمد ناجي كممثلين لتجتمع المهنيين لم تمضي لحظات حتى كانت أسماء ممثلي الكتل السياسية تحت مسمى لجنة الاتصال موقعه على محضر الاجتماع ممثلي كتلة نداء السودان مريم الصادق وعمر الدقير ومثلي قوي الاجماع الوطني صديق يوسف وعلي الريح السنهوري اضافه الى ايمن خالد والطيب العباسي عن التجمع الاتحادي ولم ينسي المجتمعون تمثيل منظمات المجتمع المدني كقوي مدنية لها تأثيرها الفعال فكان مدني عباس وحسن عبد العاطي انفض الاجتماع وخرج الوفد كعشرة تلوي كاحل احلامنا على امل اللقاء في اليوم التالي 2019/4/13 في تمام الساعه الثانية عشر بتوقيت الألم بميدان الاعتصام امام كلية الاشعة . كنت انبش قلبي وادعو الله ان يصب علينا صبوا على صبر ،عمار علي يقصص على ملايسات بدايات التفاوض مع العسكر والأيام القادمة تلوكنا بقهر، والامل داخل رحم الغيب يركض عكس اتجاه الريح ، كيف لا يعرف ساستنا من هم اعدائنا أعداء الوطن (الكاكي) الكاكي هو من يضع المتاريس امام الحلم ، وفي لحظة خارج الوعي انتبهت الى ذلك النفر الذي اجتمع حولنا وعمار علي يسرد التفاصيل التفت يميني معتصم سليمان يقبض على اله العود و بجانبه طارق دفع الله وعفاف خطيبته بعض الوجوه المألوفة وان كنت لا ادري الأسماء قالت عفاف متسائلة :-

- لا بد من التفاوض مع العسكر يا عمار التفاوض امر حتمي حتى يتم نقل السلطة بسلاسة ودون تدخل الجيش

- ولكنك الان وضعتي الجيش من ضمن خيارات السلطة يا عفاف قال عمار

- كيف وضح لي لنا ,..... يتسأل احد الثوار

تحولت الجلسة الى ركن نقاش تفكري بعض ان انضم اليها عدد من الثوار وتم جلب كرسي وضع في منتصف الدائرة البشرية ووقف عمار مسندا يديه اليه وقال :-

- كويس أفضل ليها تراتح شوية

اخذنا نبتعد عن سنتر الاعتصام هويانا هويانا.... كنا نسمع بين حين وحين أصوات زغاريد تطلقها بعض الكندكات كانت زغاريد خيبتنا لسنوات عمرنا التي طوتها الاحلام احلامنا التي حطت علينا مترنحة من السكر احلامنا التي تجري الان مؤمرة بترها قبل النضوج، كنت متضجر اسب والعن تصارييف القدر التي جعلتنا ننسول الحرية من بين انياب الكاكي نزلت دموعي قهرا وانا اري صور الشهداء معلقة على جدران الوطن شجن ولسان حالي يقول ربما ود الذي استشهدوا ما كانوا يفعلون، نظر الى عمار وهو يشير الى مقاعد بالقرب من مبني كلية الاشعة جامعه السودان و قال: -

- السياسة مكيدة القادرين أيها الرفيق تماسك فالحياة لا تنتظر أحد لينتهي من نوبة بكاء المت به حين غفلة من حزن ، يكفينا فقط مرارة المشهد وبرك الدماء التي صبغت الأرض تكفينا تلك الحالة التي نكون عليها عندما نري صعود أرواح الشهداء الى السماء، وساستنا لا يتعظون ساستنا دوماً مهرولون ومستعجلون ، لذلك علينا الوعي والمراهنة على الشعب

جلسنا على المقاعد وصوت عدد من الشباب يتغنى بأهزوجة ارتجالية على ما يبدو ويقومون بوصف منطقة بالقرب منها يتم تقديم الشاي فيها اخذت استمع اليهم وعمار علي يشعل سيجارة ويصافح معتصم الذي لحقنا معتباً لنا تركة قبل قليل.

يا اخوانا الشايالشاي بي جاي. 😊 😊

شاي ما عادي شاي كوفتي كمان 😊 😊

بي مويه صحة معاو كيببكة 😊

كانت الازهزوجة رائعة وجميلة اخرجتنا من تلك الحالة التي كنا بها، ايقنت ان اعتصام القيادة العامة هو أحد مواسم الفرح التي نادراً ما تحط على الوطن،

الضحك منشور ومبعثر بين الثوار... الحلم. الحلم جعل الثورة تنمو سريعة
داخل الثوار فتمسكوا به كحبل غسيل ينشرون عليه امال وطموحات واحلام
وطن كامل.

- الحياة جميلة دون كيزان او عسكر وجنويد تتسع لنا بفرح

قالها معتصم وهو يقف راقصا مع ترانيم الازوجة وقفنا جميعا حتى عمار
على نردد معهم ونصفق بأيدينا بايقاع منتظم، نعم مازالت مواسم الفرح عالقة
بأرواحنا تزهر كلما تلبدت سماء حزننا بالغيوم، وفي كل مرة يسقط فيها شهيد
كُننا نري ولادة وطناً من جديد بكل آلامه واوجاعه، هل يصفعنا الحلم على
خدنا مرة اخري كما حدث قبل ذلك مرتان، جلسنا على المقاعد نرتشف
شاي الازوجة التي كانت قبل قليل ، نلم ندوبنا التي اغرقتنا بدماء الشهداء
اخذ معتصم كوب الشاي بيده وهو يشير الى نقطه خلفي وقال: -

- كبس

التفت الى حيث أشار كانت حنان تضم اليها اسعد وباليد الأخرى تسند
والدتي ست البنات قمت من كبوتي تلك منتفضاً ومن خلفي عمار ضممت
والدتي الى بعد ان قبلت يدها وأخذت ابني الى حجري وضممت حنان الى
صدري اقبل جبينها، تورد خدها خجلاً وأطرقت عينها تنظر الى الأرض في
حياء جميل، جلسنا على المقاعد وسط ترحيب عمار علي ومعتصم ودعاء
والدتي: -

- اللهم اني استودعناك السودان استودعناك أحلام الشباب وطموحاتهم
اللهم لا تخذلم يا جبار

انضم الينا طارق دفع الله وخطيبته عفاف، وتحولت الجلسة الى ونسه يتخللها
غناء طارق دفع الله الذي قبض على آلة العود يضرب عليها ويتغنى مع
خطيبته

أبدا ما هنت يا سوداننا يوما علينا

بالذي أصبح شمسا في يدينا

وغناء عاطرا تعدو به الريح

فتختال الهويني

من كل قلب يا بلادي

فرحة نابعة من كل قلب يا بلادي

أصبح الصبح

ولا السجن ولا السجن باقي

و اذا الفجر جناحان يرفان عليك

و اذا الحزن الذي كحل تلك المآقي

والذي شد وثاقا لوثاق

والذي بعثنا في كل وادي

فرحة نابعة من كل قلب يا بلادي

اخذت ابشر واميل على حنان التي توردها فظهرت وجنتيها أكثر اثاره
وسط بسمات امي وصيحات عمار علي وضحكات ابني اسعد الصغير،
تحولت الجلسة الى تجمع من البشر اخذ يرددون معنا لحن الاغنية وست البنات
تتابع الجموع حولنا بنظرة حانية وعين باكية وكأنها تري ما لا نري، فعلى قدر
حبنا للوطن يكون انكسار قلوبنا عليه نظرت الى عمار كان يتمائل فقط مع
الاغنية وعينه مركزة على شاشة الهاتف المحمول لم تمضي لحظات حتى رايت
ينسحب من الجلسة بخفه تلاقت عينا مع عينا حنان التي اشارت الى بطرف

خفي ان اتبعه وضعت ابني الصغير في حجرها وانسحبت أيضا من جلسه
الغناء الوطنية ابحت عن عمار علي ، اخذت اتصل عليه عرفت انه بالقرب
من المستشفى الميداني قال لي بصوت متوجس:-

- تعال سريع انا عايزك في موضوع مهم لازم تعرفوا بخصوص التفاوض
مع اللجنة الأمنية

تحركت حسب وصفه وفي بالي ان هنالك حدث عظيم في الانتظار فبأي حال
من الأحوال لن يكون ما يحمله عمار من اخبار في مصلحة الثورة والا لخرج
ساستنا يهللون بإنجازهم الكبير كنت اريد ان ابكي ولكن قدرتي على البكاء
محدودة اشعر بالدموع تقف داخل عيني وانا اشاهد حماس الثوار يشتعل
وطنية، وأن بدأت نية العسكر تستقر في دائرة الغدر، تري ماذا فعل ممثلي
لجنه الاتصال مع العسكر ...؟

الكثير منا يفعل الأشياء التي تقوده الى ما يخشاه كتب علينا في الوطن ان نجرب الجرب أكثر من مرة نافلة وفرض وان تقام صلاتنا على خوفنا من القادم يقيناً ، تماهي اكثرنا مع المتسلط جعلهم يتسابقون لرضاه ، فالعسكر يفعلون ما يشاؤون وهم لا يسألون، ما لم يدركه ساستنا ان عسكر اللجنة الأمنية فتحوا احضانهم لأخوة منهم وعليهم لم تكن الساعة تستقر عقاربها على التاسعة صباحاً من يوم الرابع عشر من ابريل حتى كان عمر زين العابدين يتحرك من مكتبة الوثير فاتحا ذراعيه مهلاً ومحتضناً على الحاج محمد الأمين العام لحزب المؤتمر الشعبي ومن خلفه الأمين عبد الرازق وعمار السجاد جلس وفد المؤتمر الشعبي وسط حفاوة بالغه من عمر زين العابدين وبعض ثلة من ضباط اللجنة الأمنية .

- نحن لدينا مخاوف حقيقية ان تسيطر القوي اليسارية على مجريات الأمور الان ونخاف أن تنهار القيم والمبادي التي سعينا في وقت سابق لا رساها وان اختلفت الرؤي في ذلك

تحدث علي الحاج بتلك الكلمات بعد ان جلس على مقعد وثير وعلى يمينه تربع عمر زين العابدين فيما جلس الاخرين في مقاعد مقابلة لهم، في هذه الاثناء دخل جندي يحمل ملف من الأوراق ادي التحية العسكرية وسلم الملف للفريق وانصرف، ابتسم عمر زين العابدين لضيوفه وكأنه يريد ان ييث رسالة اطمئنان لهم وقال بعد ان سم باسم الله واثني على ضيوفه كثيراً: -

- ان القيم التي لدينا تاتي ان نخذل إخواننا الذين كُنا نترعب معهم في

كيف يتم خلق البؤس...؟

وكيف يتم ذبح الحلم.....؟

وكأننا نري ما سوف تكون عليه مقبل الأيام من حزن يسكن عيوننا وقلوبنا الملتاعة بالوطن الثورة تأكل أبنائها تصطادهم في سوح الشوارع التي لا تخون وساسة الوطن يهرولون الى موائد التفاوض العامرة باسم الشعب، على باب القيادة العامة وضع أحد ممثل القوي المدنية يده على كتف مرشح تجمع المهنيين الثاني وسأله مستفسراً: -

- انت بتعرف رئيس المجلس العسكري الاسمو البرهان دا .؟

بالرغم من السؤال مستهلك الا ان الأخير رسم على وجهه علامات الجد وكأنه داخل على فصل من الطالبات معجب بعدد منهن قال بعد ان ادخل كف يده اليميني في جيب بنطاله: -

- لااااا ياخ البرهان دا زوول كويس خالص عسكري دُغري، نضيف الزول دا ما كوز ما كوز تصدق

اومي الأول براسه وبدت عليه علامات الارتياح وهو يخطو بخطي واثقة في الممر الطويل داخل مباني القيادة، مع كل خطوة للوفد داخل مباني القيادة كانت الثورة تتحلل من شرعيتها مثل نبات متعفن ، لم تمضي لحظات حتى وصل لمسامع أعضاء الوفد صوتاً حزين يقول بعفوية مصطنعة ويقطع طريق أعضاء اللجنة المدنية وسط الممر الضيق...

- كيفكم أولادنا مرحب مرحب

تقدم البرهان منحه تمشي على قدمين هاتفاً بكلمات الترحيب تلك وأردف قائلاً:

- ياخ تعالوا استلموا سُلطتكم دي نحنا والله ما ناس حكم

دخل الجميع الى قاعة الاجتماعات، الان الوطن يتجرع الحزن بالأقساط دموعه على حافة الانهيار كيف نثق بالعسكر وهم يهدوننا فأكبه محرمة من جنة السلطة، البرهان اشد خبثاً وخيانة من كثيرين، اخذت نظرات ممثل تجمع المهنيين الذي اثني على البرهان من قبل ترتفع في شموح وهو يلكز عضو الوفد وممثل المجتمع المدني همس بعبط : -

-موش قلت ليك الزول دا كويس وما منو خوف

الحزن يخص الشعب وحده ليس للسلطة ولا العسكر شأن فيه، من بمقدورة ان يتحكم في هذا الحزن المدفع علينا سيل من دماء تتدفق من بين مسام التفاوض، صافح أعضاء الوفد المدني ضباط اللجنة الأمنية الذين كانوا في استقبالهم تحول الامر في بداياته الى ما يشبه تجمع السودانيين عقب صلاة العيد، الايدي تتبدل والتبريكات تنهال على الجميع امتلأت القاعة بعدد من جنرالات الجيش ببدل مختلفة الألوان تنمو على اكتافهم النجوم والأوسمة بعدد سنوات الانقاذ، بدء اللقاء بتعريف المكون العسكري باسم (المجلس العسكري الانتقالي) فكانت بداية الطامة جلس البرهان وعلى يمينه عمر زين العابدين يليه إبراهيم جابر فيما تربع جلال الدين الشيخ على مقعد مختلف يبدو اكبر قليلاً لعل ما يعانيه الرجل من الام هو السبب في تغيير المقعد له وعلى يمينه جلس شمس الدين كباشي فيما استلقي حميدتي على كنبه بعيدة نسبياً عن طاولة الاجتماع تبدو على قائد الجنجويد علامات الارق والتعب وبقايا اثار الخلاء الذي سحب فيه قوات غرب امدرمان حيث الشمس حليفه الأرض والقهر هناك .

تحدث البرهان وأسهب في تعريف نفسه كقائد للقوات المسلحة والمجلس العسكري، عرف المدنيين أنفسهم وبأنهم لجنة اتصال فقط تريد معرفه ما يريد العسكر، ولان القدر يوزع الأُم بمقدار تحدث عمر زين العابدين بعد ان حمد الله واثنى على نبيه وتلى سورة العصر :

- الوضع السياسي في السودان دا فيهو عدد كبير من الأحزاب، وانتو

جزء صغير من الأحزاب دي وفي قيادات الإدارة الاهلية ناس أصحاب فهم وداريه وحكمة ونعول عليهم كثيرا في إدارة البلاد في المرحلة القادمة وعايزين نقول ليكم حاجة المؤسسة العسكرية لن تفرق بين القوي السياسية وسوف تقف على مسافة واحدة من الجميع ...

الان ولقد استوفت كل شروط الإحباط، العسكر يتلاعبون بالمفردات بطريقة درامية، خرجت كلمات استياء من ممثل تجمع المهنيين الذي قال بحدة

- الجيش له مهام محددة ولا علاقة له بالوقوف حسابيا مع أي من الأحزاب

انتقلت نبره الحدة لبقية أعضاء الوفد المدني الذي ثقت كلمات عمر زين العابدين جدار الثقة الهش بيهم فتدفقت من خلاله الشكوك بغزارة، وقف قائد الجنويد يستأذن الجميع وانصرف دون ان يقوم باي فعل وترك دقلو الصغير قائم بالمقام عنه، نبره عمر زين العابدين كانت دامية تدفقت من خلالها ذكرة الألم تنبى المدنيين أنهم بتفاوضهم مع العسكر يتكنون على بنادق صيد واله حرب ، العسكر يعاملوننا كأننا كائنات عليهم ان يقضوا واجبهم اتجاهنا وفق منظورهم ودون إدراك لإنسانيتنا ولأحلامنا التي ما تزال تملئ عليهم خيبتهم وعمالتهم يحاولون اجبار الوطن على الانتحار لتحقيق مصالحهم، صاح الطيب العباسي بحنق محذرا وموبخا حديث الجنرال

- نحن ما ح نسمح بتكرار تجربة سوار الذهب والجزولي تاني وأي تفكير في تكوين مجلس عسكري مرفوض بالنسبة لينا، نحن عارفين قيادة الجيش دا قاموا وترعرعوا في أحضان النظام البائد وانتو زالا اتكم لو ما كنتم جزء من المنظومة الساقطة دي ما كان بتصلوا للرتب المزينة اكتافكم دي اخذ الطيب ينفث هواء حار من صدره والعرق يتكوم على جبهته من الانفعال حاول أحد الضباط الحديث الا ان صوت العباسي كان الأعلى مقاطعا:

- بنقول ليكم مرة تانية أي تفكير في تكوين مجلس عسكري في الظروف الراهنة هو بداية لانحراف الثورة، ونقوله بشكل واضح انتو قيادات عسكرية موالية

للنظام البائد لحدي اخر لحظة

وقف العسكر مزعجين يتطايير من عيونهم الشرر وتلبدت سماء الاجتماع بغيوم الكراهية وخرجت رائحة الكاكي ننتة تسوء كل من اقترب منها فجنرالات العسكر مثل نافخ الكير عند التفاوض معهم اما ان يحرقوا الشعب او تعم رائحتهم الخبيثة جُل الوطن، حاول وفد المدنيين ملمة احزانهم بخطوتهم تلك فبعد ان توتر الحال تدرثر أحدهم بمداعبة العسكر لإسكات زجرتهم قبل ان يبدأ النباح فقال عمر الدقير وعلى شففته ابتسامه حاول ان يجعلها ودودة بقدر الإمكان: -

- طبعاً دا راي الطيب العباس الشخصي

الحزن يتربص بنا فكلما نوينا الخروج سد الباب امامنا ما هذا القول يا دقير، كيف يكون مثل هذا الحديث راي شخصي انفعل العباسي ولا نفعاله ألف تبرير وتبرير انفعل وكانت ردة فعلة تجاه الدقير نفسه: -

- معقولة أستاذ عمر كلامك دا.... ما رأي شخصي.....ياخي نحننا جينا لي الاجتماع دا كمجموعه واحده وراي واحد.

صمت الطيب العباسي واسنانه تصتك من الغيظ ينظر الى الدقير الذي الجمه غضب العباسي الذي صاح مرة اخري في الدقير

- ياخ كلامك دا غير مسؤول.

لا أحد ينسي تلك التفاصيل التي تنحت على الذاكرة والذاكرة تحمل لنا علامات الارتياح التي ظهرت على وجوهه العسكر جراء حديث العباسي والدقير، المدنيين ليسوا على قلب رجل واحد أيها الجنرالات، أقلق المتربص بالوطن يتلف كل حراك وللقلق انياب تمتص رحيق الثورة الى مرحلة الذبول، فتاريخ الوطن فاجعه بحق، حرب وصدام بين الشعب والجيش وتامر الساسة على الحلم تاريخنا فضيحة ووشم على جبيننا، وحاضرنا يني بالهم الثقيل.

الشوارع مزدحمة بدعوات أمهات الشهداء أكثر من ازدحامها بالسيارات، رائحة
الامل تتجول على طريق الحرمين المؤدي الى مطار الملك عبد العزيز الدولي،
الساعة على طبلون سيارة اسعد تشير الى العاشرة مساء بتوقيت مكة المكرمة،
جمال يتمتم بعدد من الادعية عسى ان تشرع قلوب القادمين الى السماء فتجبر
جروح الروح التي نسجت عليهم منذ امد

- اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه

نظرت الى اسعد باب الله صامتا ينظر الى جمال على يمينه بين حين وحين ،
توقفت السيارة في باركن الانتظار بالمطار لم يمهلنا جمال فمجرد وقوف السيارة
قفز مسرعا فطائرة سحر وصلت قادمة من مدينة ديربورن في ولاية ميشيغان منذ
أكثر من نصف ساعة

- انتظر يا جمال براحة الشفقة عليك شنوا يا راجل لسه بكونوا في
الجوازات ولسه في سير الشنط اصبر يا راجل

نطقت بتلك الكلمات وانا احث اسعد الذي فتح فمه مندهشاً، على اللحاق
بنا يبدو ان جمال في حالة عدم وعي تماماً فتصرفاته تدلل على ذلك رن جرس
هاتفني بالنغمة المميزة لتطبيق الايمو حنان على الخط رفعت سريعا وقلت منشياً

- حنان اخبارك حبيبتي كيف انت

- كيفك احمد طمني عليك ان شاء الله بخير

- كل شيء تمام الحمد لله في المطار مع جمال

- بس ممتاز خالص كنت عايزة اطمن على وصول سحر خليك قريب من جمال انا تكلمت كثير مع سحر ووصيته ببعض الأمور ممكن جمال ما يكون على ما يرام وغير متحكم في تصرفاته يا احمد ود شيء طبيعي في وضع مثل وضعوا المهم لازم تكون قريب من جمال يا احمد

ابتسمت وقلت في نفسي حنان دي مرفوع عنها الحجاب اكيد

- سامعني يا حبيبي

- ايوة سامعك حاضر... حاضر.... تصدقي انا هسه بلحق فيهو الرجل ما مصدق انو ح يشوف بناتو وسحر بعد الفترة دي كلها مجهود جبار يا حنان العمليتهو مع سحر دا ، اقنعتها تجي السعودية وان كان لتجربة روحية امام بيت الله

- كل شيء بأمر يا احمد اخليك معاهم خليك قريب منهم الساعات الجاية صعبة عليهم الاثنين.

أغلقت حنان الخط وانا الحق جمال بصالة الوصول جمع غفير من الناس في انتظار القادمين كنت اتابع جمال الذي ثبت عينيه على الخارجين من ذلك الباب ليأتي القدر ويضعها شهقة ودموع امامة برؤية سحر بصحبه بناته وارتجاجات الجسد تقاس بريختر من عنفوانها تلاقى الاحضان والقبل رفعت راسي بشجن ثقيل انظر الي وجوههم المفرطة في الحنين التقت عيون سحر بحزن جمال في عناق يفترش الشوق ويمحو الزمن الماضي من اعدار الغياب تحت بند الإصرار ، ارتمت سحر وردة في حضن جمال وصرخة فؤاده تعلقو على مهممات جراحة المتقيحة احاطها بذراعيه باكياً ندماً من دم ، لا ادري هل احتواها فعلا ام استجار بها من حرقة أيامه بدونها ، اخضر جسد الرجل بعد ذبول وحولة بناته يبكون غيابه الأخير ، لا ادري كم مضي من الوقت الى ان شعرت بنحيب اسعد بجانب

يضاهي نجيب جمال مؤاسياً بناته من صدمة اللقاء ، تسألت بيني وبين نفسي تري
لماذا دائماً امانينا تنهي بالأنين مسحت دمع عيني ماداً يدي لسحر مصافحاً
ومعرفاً لها بنفسي

- حمدلله على السلامة يا مدام ... انا احمد احمد امين

ضمتني سحر اليها اخت تبحث عن سند في حرقه الأيام ضمتني اليها وبكاء حار
يتسلل من عيوننا نبكي وطناً ... نبكي حزناً لم بنا في غفلة من كبرياء نبكى
ثباتنا الذي خذلنا وقت المحن

- حمد لله على السلامة حمد لله على السلامة

- الله يسلمك احمد كيف حنان كنت بتكلم معها قبل ما اتحرك من المطار
في USA

- ايوه كلمتني

انتهى مسلسل السلام بيني وسحر و اسعد ، امسكت بعربة الشنط وأنا اتمتم
بدعوات مطوية بين لهفات الرجاء بان تكون تلك الخطوة في الطريق الصحيح
لجمال وسحر ، الحياة متتالية من المطبات علينا ان نجتازها بشي من الحكمة وعدم
التهور يكفي ما فينا من قهر، احتضن جمال بنته الكبرى بيسراه والصغرى بمبناه
يبدو ان هنالك تغيير كامل طراء على البنات فالصور التي شاهدتها على تلفون
جمال تبين فرق كبير سبع سنوات من الغياب ، ظهرت فيها علامات الانوثة على
الاولي ففتفتت مفاتها واضحا امامنا قادمة من بلاد العم سام ، الصغرى أيضا
تتمهد للدخول لنفس العالم يا اللهي هذه السن التي تكثر فيها الفخاخ وتوضع
الشباك يبدو من نظرات سحر انها كانت مدركة تماما مدي انسحاب بناقها عن
وعبها الشرقي والديني الاستلاب... الاستلاب الثقافي والديني بعبع يعشعش في
ادمغه الإباء الشرقيين بالغرب ، جاءت سحر تحمل وطناً غائب بين يديها تبحث
عن ارض لبناتها ، وبدخلها قلب ابيض اللون يعكس العطف الذي سكن

روحها وكأنني قراءت ما سوف تكون عليه من حزن يسكن عيونها وقلبيها المتنوع خوفا على بناتها اعتقد انها تنوي الاستقرار في المملكة بجانب جمال سحر لم تخرج عن تفكير القطيع وما يؤمن به اكثرنا وفي نفس اللحظة التي توصلت فيها لهذا التخمين تحلقت حولنا عيون شبقة وجائعة تري في البنات جوارى وحق مستباح النظر والمغازلة مجرد انهم يرتدين ملابس مختلفة عن الاخرين ضربت اذني واذن جمال عبارات الاستياء لم اعبه كثيرا لهمسات وتزمر الرجال حولنا ولا حتى لعيرة بعض النساء وهم يقارن أجسادهم بأجساد الفتيات، تحركنا فقط الى حيث تقف سيارة اسعد ، تأخرت سحر بعض الشئ عن جمال تأخيرها متعمد على ما يبدو نظرت الى اسعد وقالت بعد توتر وهي تري تشبث بناتها بوالدهم :-

- هل بالإمكان ان نذهب الى مكة على الفور، اريد ان اؤدي عمرة قبل إي شيء.

نقل اسعد بصره بيني والفتيات امامه يرتدين بناطلين ضيقة وبلوزات تكشف كامل النحر وسير على الكتف فقط اجزم إذا كانت السعودية في عهد سابق لتم اعتقاهن في صالة المطار بتهمة اثاره الراي العام ظل اسعد مترددا ماذا يقول اطال النظر اتجاهي وعيناه تطلب مني التدخل قلت وانا ادفع بالترولي ناحيتهم

- ليس هنالك مانع يا سحر ولكن هل معكن ملابس احرام اعتقد انكم عقدتم نية العمرة قبل الوصول صحيح عند الميقات الجوي ..

اتسعت عينها واخذت تدور في محجرهما بدأت علامات تقدم العمر و اهم على وجه سحر فمن يقف على تربية بنات في أمريكا مستصحبا معه عاداته يقف عاجز في كثير أحيان قلت مستوضحاً أكثر :-

- ليس معكم ملابس احرام يا مدام

- الحقيقة نسيت مع زحمة السفر وترتيب الشنط للبنات و...

قاطعتها قائلاً

- طيب في الحالة دي أفضل ترتاحوا اليوم في فندق بجدة ونتحرك صباح الغد الى مكة بنية العمرة وسوف أقوم بتتريب ملابس تليق بزيارة بيت الله
- قلت كلامي هذا وانا اشير الى البنتان، نظرت الى سحر مستفسرة فقد كانت علامات الامتعاض واضحة على اسعد من ملابسهم الكاشفة قلت باسماً
- سوف نكون عرضة للكلاب الجائعة والعيون المتلصصة والدعوات الماجنة للرب بقصر عمر بناتك فالسعودية خرجت للتو من كبت قديم سيطر عليها منذ تكوينها الاولي
- قلت تلك الكلمات واعقبتهما بضحكة تهكم طويلة، اؤمت سحر برأسها إيجابا في نفس اللحظة التي ارتفع فيها رنين هاتفي وقفت وسحبت التلفون من جيب البنطال روز يا اللهي لقد نسيت تماما ان اطمئننها على وصول سحر التي تقدمت نحو السيارة وخلفها اسعد رفعت زر الاتصال صوت روز معاتباً
- احمد منتظارك انا من قبيل عملت شنوا سحر وصلت
- ايوة يا روز وصلوا. قبل اقل من ساعة تقريبا. اسف والله (اتلخمت) مع جمال أصلوا ما مصدق وبناتو برضو شكلهم ما مصدقين رؤيتهن لوالدهم
- قلت جملي الأخيرة بشكل عفوي الا انني استدركت ما وقع على روز من حنين عندما سمعت صوت بكائها العفوي وهي تقول: -
- الاب يا احمد الاب فقدوا عظيم بالأخص للبنات
- دخلت روز في نوبة بكاء أغلقت الخط وهي تقول لي
- سوف اتصل عليك بعد ان تصلوا الى مكان اقامتهم سوف آتى مع أنطوان إليهم
- أغلقت الخط بعد ان قلت لها سوف أكون في انتظارها في الغالب سنتحرك الي فندق بودل قريش فهو قريب من مكان إقامة روز .

اشرقت شمس الوطن بنور ثوارها، الشهداء لا يريدون شيء سوى ان تعود بلادنا اليها نحيًا مثل البشر نحب ونغني وننسى ان نموت، دعك من كل القصص المشحونة بالرديلة، والصراع مع الزملاء وانقسامات الأحزاب واقتسام العشيقات التي تتقاطر في حياة سياسي البلاد انها المحنة محنه ان تكون مواطن في بلد المليون سياسي غبي، وصلنا مع جمال وسحر وبناتهم آية وآسيل الى بهو فندق بودل قريش تم استئجار جناح للام بناؤها وغرفة لجمال الذي تبدلت ملامحه تماما هذا اليوم لا يوجد شيء يظهر بشكله الحقيقي أبداً فجمال لم يكن طيلة السنوات الماضية حقيقة كان ظل مجرد جسد خالي من الروح ، وقفنا لوداعهم قبل اذان الفجر بقليل على ان نكون معهم منتصف نهار اليوم اسعد يترنح من التفكير قلق يبدو ان هنالك ما يشغله، يجتلس النظر بجحجج الى آية ابنة الكُبري يا اللهي هنالك شبه نعم كيف لم ادرك هذا من الأول آية تشبه لحد ما ناهد بل من يشاهدهم معا من الممكن ان يوقن بان آية اخت ناهد الصغرى ، نظرت اليه بحرقه لازلت تحتفظ بحبك المميت في ثلاجة ذكرياتك يا اسعد، كل الألم الذي انت فيه غالبا من عدم مقدرتك نسيان ناهد ، حضنت جمال وهمست في اذنه

- ارجو ان تتجلد وتعقل امورك بحكمة لا تفتح الماضي مع سحر اطلاقا حتى وان بادرت هي بلومك لا تفتح الماضي معها ابدا، ابداء صفحة جديدة باسم سحر وليس بناتك انت في حاجة الى سحر أكثر.

طبطبت على كتفه ودمعة حارة تنزل على خدة الايسر، يبدو ان الشجن

اصبح حليفا له ، في كثيرا من الأحيان فان الاقدار التي اوجعتنا بكاء وعزلة هي نفسها من تصف لنا طريق الانعتاق من ذاتنا القديمة، جمال على موعد مع نفسه، يهرب من تعاسة ما كان فيه ، فالحزن عندما يعتلي الجسد تتبدل الروح ، ودعت سحر والبنات ، التفت الى اسعد احثه على المغادرة وجدت بصره معلق بالابنة الكبرى آية ظل صامتاً عاجزاً عن الكلام او النفوة باي كلمه مع شحوب وارتجاف جسده ، لقد سئمت حكاوي اسعد وضعفه المتكرر لكل ما يذكره بناهد فهو يعيش حياة الميلودراما ، لم ينجب لنفسه سوي القهر والحزن لذكري انثي غدرت بالوطن يوما ما ، اربكتني تفاصيله الغريبة مع ابنه صديقنا اخذته من يده الى خارج الفندق وعلى شفقي ابتسامة عريضة اكسر بها الاحراج الذي بداء ينمو في عيون الام وابنتها ، نظرت اليه استفسر فعلته تلك كان شارد الذهن يتحدث مع نفسه ، ذكري الخذلان عندما تسيطر عليك تفتح نافذه الماضي فتندفع منها رياح أيام مخجلة ممزوجة مع ألم الانحطاط الذي ارتديته في تلك اللحظات ما ابشع ان يطل عليك الماضي في شخص جديد يعيد عليك مأساتك التي دفنتها قريباً

- اسعد يا حبيبنا الحاصل شنو مالك ...

لبرهه احسست ان اسعد لم يستمع لي الا انه التفت قائلاً

- بتتكلم معاي يا احمد

- ايوة معاك مالك يا زول

نظر الى وشفقه على نفسه تطل من عينيه

- البت دي بتشبه ناهد ... بت جمال دي فيها ملامح ناهد موش يا

احمد ...؟

لم يكن بالي الان في حالة للوصول الى شيء يشغله مثل حكاوي ناهد زفرت

بشي من الغيظ وقلت ناكرا الحقيقة التي كنت شاهدا عليها قبل قليل: -

- ما عارف والله ملامح ناهد غائبة منى ما عارف ان كانت تشبهها ام
لا

خفت ان اتورط في شئ اسعد بذكري قديمة وبالأخص ان ناهد على اعتاب
كلمة فهي قريبة من اسعد قرب حبل الوريد
رد اسعد بإصرار:-

- فيها من ن.....

قاطعته بضيق:-

- وليكن انت البهيمك شنو في موضوع الشبه دا يا اسعد .. ناهد
دي مفترض خلاص تنتهي منها تماما
نتفت الحياء الذي نبت عندي تجاه اسعد وقلت بجد

- هل تعتقد انك بمقدورك الحياة هكذا الا ينتابك إحساس بالذنب تجاه
نفسك بعبك لناهد هذا ...

صرخت بأعلى صوتي بعد ان امسكت كتفية بقوة وهزرتة بعنف

- اصحي يا اسعد اصحي من وهمك الانت زارع نفسك فيهو، ما زلت
مورط في ذكري تلك الخائنة

نظرت الى خذلانه لنفسه ضعفه وانفاسه المتلاحقة شاهدت في عينه قهرا،
قلت بعد ان ضممته الى صدري اطبطب على ظهري بيدي

- اسمع يا اسعد حتى الحب له توقيت صلاحيه معين بعد ذلك يفقد
مفعوله ان لم يسقي بالرحمة والمودة، وناهد لم ترحمك لقد قتلتك ذبحتك غدرت
بك ... لماذا ..لماذا تعيش على ذكراها الى الان

بعد كل حديثي هذا ظل اسعد صامتاً محنط الشفتين عيناه زائغتين تحركنا نحو

السيارة صعدت انا مكان القيادة وارتمي هو على المقعد المجاور لي يرد على رسائل تصله على الواتساب لا أدري مع من يتحدث تحركت الى ان أدركت جامع الحنفي بمئذنته المميزة على الطريق أوقفت السيارة نزلنا لصلاة الفجر فلم يتح لي اسعد ماعونا مناسباً لمؤاساته ففضلت ان نلجأ لله مؤاسياً

كنت اشعر بوجع مزمن وبخيبة كبيرة تطوقني ، الوطن في محنه ابطاها الساسة والعسكر ، الجميع يركض نحو السلطة ، الا الثوار وحدهم من يتكثرون على احزانهم يهشون بها على الوجع المستقر في القلوب لوعه ، بفراق الرفاق ، ازدادت قبضة قلبي وجعاً بعد ان خرجت من جامع الحنفي وخلفي اسعد الذي ارتمي على المقعد الخلفي يستبق لحظات من نوم قبل ذهابه الى مكان عمله ، ضغطت عشوائياً على الشاشة امامي في حاجة الى سماع شيء مع تلك الأجواء الصباحية عسي ولعل ان يغسل وجعي المتراكم على قلبي ، انبعثت من مسجل السيارة موسيقي مميزة لأغنية ظللت طيلة فترة الغربة أتحاشى سماعها سرحت مع الوجع الميثوث مع الكلمات والمغني يرتل الابيات لحنا جنائزياً....

دجينا زي ناس المسيد هتفنا لي دم الشهيد

واجهنا دوشكا وار بي جي عشان نبي سودانا الجديد

وهمستا في طرف الخليقة اريتو كان حميد شديد

كان غز حرفه على الرصيف كان ترع الساحات قصيد

كان هز بي سيف النصر كان مد للكنداكه ايد

هسع كتبتالك جواب شالوهو هزاع والوليد

فجعونا عساكر الرماد اهتمونا بالبانقو الحشيش

مديتلو تمرة وزهرتين مدالي 100 طلقة ليش

هجمونا والبنوت نيام درشونا بالدوشكات دريش

جيناهم قالد وطن غدرونا في نص الهويش

يا امي لازم تعفي لي شان زغت خليتكم نيام

كان بالي في الترس لهنك صائمين وبايتين في الخيام

جات طلقة في نص كبدي ورمتي لا حس ولا كلام

لا تبكي لا تحدي لي يوم واقريلي للترس السلام

وتكتبوا فوق لترتي مدينة حرية وسلام

دموعي تجري فقط وصوت نجبي يوتر اسعد في الخلف، لأول مرة اسمع الاغنية كاملة اغمضت عيني لدقائق كانت كافية لإعادة اشع المشاهد في حياتي العسكر يأتون من كل فح عميق ليشهدوا مجزرة ودماء يقتلون يغتصبون يرمون بالجثث في النيل معصوبي العيون ،احمل غصة في حلقي انوي الخلاص منها بالصراخ او الانفجار بالبكاء انوي ان اذفها وجعا وحنين، مجزرة القيادة العامة كابوس يورق الكون منذ التكوين جريمة القيادة العامة تماثل جريمة قاibil بل اشد، العسكر من نسل قاibil.....لماذا اخترت الهروب الى اعراب الخليج تركت الثورة في عمر النضوج ..؟

نظرت الى اسعد على مرآة السيارة يتقلب بمראה الاغنية، اللحن يضرب في راسي لقد كرهت تلك الكلمات كرهت الفنان كرهت كل ما يذكرني بالخذلان، تقبض الخيبة على قلبي من جديد

لماذا هربت من معركة الحلم ..؟

الف تبرير وتبرير من الممكن ان اقنع به نفسي و الحقيقة واحدة فانا من جيل الهزيمة جيل لا يملك شيء سوى التوجع والاسئى لا نملك ثقافة الجيل قبلنا ولا جراءة من جاء بعدنا لا نملك غير سلاح وحيد نحارب به الحنين ونواجه به

ثمن حلم التغيير... الهروب,,,الهروب من كل شيء فنحن جيل الأُم المحروم من عطف الوطن جيل بين منزلتين ها قد بدأت مرحلة جلد الذات ، أغلقت الشاشة سكت صوت المغني الحزين واشعه الشمس الصباحية تمد خيوطها في عصبية صباح جديد اخذت البحث عن تفاصيل امدرمان في جدة هنالك شيء بين المدينتين ، دخلت الى الحي الذي نسكن فيه مع زحمة الخارجين أوقفت السيارة تحت البناية التي نسكن وقلت :-

- اسعد اصحي وصلنا

فتح اسعد عيناه بكسل وضع يده على الباب ونزل محملاً بالهموم ترنح وهو يغلق الباب خلفه ، حاولت ان اسنده بعد ان تعثر للمرة الثانية انطلقت نغمه هاتفه المميزة اسند يده على ورد على المكاملة جحظت عيناه في ذهول حقيقي وهو يلتف الى الناحية الأخرى من الشارع ، وبتلقائية سوداني متعود على الفضول نظرت ناحية بصرة يا اللهي لقد كانت هي نعم هي نزلت من سيارة مرسيدس ذات لون مميز (كوي) وضعت نظارتها السوداء على عينيه ورفعت غطاء راسها نعم هي نـاهد بنفس ضجتها الاولي ، هل هي صدفه ام تدابير القدر تنهك اسعد بضربات متتالية تقدمت ناهد ناحيتنا تفضحها انوثتها وعلى جسدها تتكوم الشهوات ثورة ، وبنادق تهديها صوب نحو اسعد العباءة التي ترتديها تحكي تفاصيل جسدها بدقة متناهية ، وقفت امامنا في تمام جرح السادسة والرابع صباحا بتوقيت مدينة جدة وبجسدها تتجمع آلاف المعاصي وعيون المارة تشتتهي الخروج من الجنة بأكل تفاحتها خلعت نظارتها فطلت عينها الواسعتين و رموشها مظلة تظلل قهر المحرومين

- كيفك اسعد

هي اخر من كنت أتوقع ان اراه مرة اخري وقفت ناهد والصمت حوار بيننا وضعت يدي على كتف اسعد خوف ان يبعزق كرامته امامها وانا الذي وقعت اسيرها، إصابتي الربكة فقدت حتى شهية الكلام اخذت اتمعن فقط في جسد

يجلب الحسد لصاحبه ناهد تبدو اصغر سنا من عمرها الذي تراء منها، لم نلتقي منذ 15 سنة جاءت الى اسعد متوهجة نار بلهب، تبت يداها التي خانت جها يوماً، امام شقة حي غليل بجدة وقفت امامنا مكتملة التفاصيل ياااا لجبروت هذه المرأة نافست الشياطين تكبراً جملة واحدة فقط قالتها

(كيفك يا اسعد) و لم يكن اسعد ... لم يكن اسعد كنت انا مسلوب الإرادة ممزق الكيان وقفت بينها وبين اسعد درقه نائر يمنع تدفق الرصاص على الاخرين ولكن ناهد بجسدها الفتنة كفيلة بزعره مفرداتك وثقتك في الجمال اردافها فقط تجعلانك تغوص في حالة قلق نهودها تلخ عنك وقارك وكأنك امام الحجر الأسود في الخشوع سكتُ انا ، وتحدث اسعد بثبات مدً يده اليها وعيناه مثبتة على عينها

- اهلاً ناهد اتفضلي

سلمت ناهد على بعجل دون كلام فقط تلامست اطراف الأصابع كثير كهربائي خفيف وابتعدت يدها كنشال حريف، التفت الى اسعد حاولت ان تضمه اليها ولكن يده كانت مثل حاوية كبيرة وضعت على مدخل الكبرى تمنع الثائرين من التقدم سعدنا الى الشقة، وحزن درامي يتكوم على وجه ناهد التي كادت ان تجلس في حجر اسعد ، اشحت ببصري عنهم تذكرت المدام وجراتها معي خفت على اسعد نزوة تهلكة سبعون خريفاً في الندم ، لقاء اسعد وناهد الان يبدو غير منطقي يحمل احتمالات متعددة ولكني ظلمت مذهولا من جراءة تلك الأنثى وجبروتها فبعد كل ما فعلت تأتي هكذا كان لا شيء حصل ، دخلت الى المطبخ تناولت قوارير مياه وضعتها على المنضدة وجلست امامهم عاجزا تماما عن أي فعل اتفقد فقط خطوة ناهد القادمة فجاءة بركت ناهد تحت اقدام اسعد تبكي بصوت عالي موغل في الكوميديا تضع الوجع و الندم وضعاً بين الشهقات المفتعلة او هكذا خيل لي من كراهيتي لها ، اخذ تقبل رجل اسعد ويده رمت غطاء راسها وافردت عباءتها فظهر بياض نحرها وقبب نهودها مثل مدافع الانجليز التي دكت امدرمان

قبل 100 عام ضغطت بهم على ركب اسعد كان من الواضح انها تتامر عليه بجسدها ، استفردت انا بالدهشة من فعلها الماكر فناهد تعرف غوايتها التي تعرج على جسدها الشبق ، نظرت الى اسعد الذي سرحت اللامبالاة على وجه اخذ ينظر الى اللاشئ وناهد تحت اقدامه تبكى مثل تمساح عشاري في موسم التزاوج ، اعتقد ان اسعد يستحق ما يحدث له بسبب تلك الأنثى الثعبان حتى يستيقظ من حاله الهيام التي سجننتها فيه تعويذه حب خائن ، ظل صامتا ينظر الى السقف كأنه يستمد الثبات من السماء ، ناهد لم تتحدث معي في هذا اللقاء كأني غير موجود جل تركيزها كان على اسعد الذي اشعل نارا هادئة تستوي فيها كراهيته لها ويعيد من خلالها ترتيب نفسه بالصورة التي تليق به ان يكون ، النهايات دائما موجهة وقاسية ونهاية عشق اسعد لناهد كان تراجيديا سوداء تركت اثار وندوب دامية على حائط قلبه اعتقد ان اسعد في طريقة للانعتاق ، فثباته امام هذا الجسد البض خير دليل ، لقد وصل لحد اللا غضب ولا حب لا كراهية يكفيه ما ضاقت به حياته من تفاصيل مربكة وقاسية بسبب حبه لها ، يكفيه ظلام حياته بعد ان شاهدها خنجر غدر على قلبه ، اني احسد اسعد الان على هذا السلام والثبات امام ناهد لو كنت في مكانه لغرست سكيننا في قلبها لا خبرتها كم اكرهها ، لعل هذا ما تريده ناهد الان ان يغضب اسعد ان يثور ان يحطم الأشياء ويرتفع صوته في وجهها لكن هيهات خرجت ناهد من قلب اسعد باللامبالاة كان ينظر لتوسلاتها كأنها لأشيء ، وأخيرا وقفت ناهد تلملم خيبتها مع عباءتها و دون ان تقول شيء خرجت مخلفه خلفها صمود المواجهة الأخيرة لأسعد الذي انتصر على نفسه الان ، تبعتها ببصري كنت اري خروجها من اسعد مع ارتجاجات مؤخرتها السوء ورائحه نتنة تخرج منها بصوت ، في تلك اللحظة فقط ضمنت اسعد بجميية محتضناً معه سنوات من الخيبة والالم مضت دون رجعه . مضت ناهد حاملة معها اوجاعها وآلامها وحسراتها وتركت قليل من شجن الذكرى لوطن يحارب أبنائه بالعمالة والغدر ولأول مرة يتحدث اسعد منذ خروج ناهد قال ساخراً بعد ضحكة تهكم

- ناهد طلعت من السودان و معاها عدد كبير من ضباط امن النظام السابق وقيادات الامن الشعبي كلهم طلوعوا بعد نجاح الثورة خوف الانتقام منهم .

- واضح ايوة ... الأيام الفائتة دي في عدد كبير من السودانيين في جدة باحثين عن عمل لا توجد لديهم خبرة في اى مجال بيدو ان كوادر الامن الشعبي والطلايي تمرب خارج الحدود طلباً للأمان بعد انهيار صرح المنظومة .

صمت قليلاً انظر الى اسعد الذي تقدم نحو بلكونه الشقة قلت :-

- النظام الحاكم ومؤيديه ظنوا ان الحكم لهم الى قيام الساعة الى ان جاءت الثورة واكتسحتهم ليميز الله بها الكوز من الطيب

كان نظرات اسعد تتابع ناهد من خلال البلكونة وعلى شفته ابتسامه ساخرة لقد قرر قتلها بعد خيانتها الان يستعيد حريته من تعلقه بها الان يقتلها خنقا يقتلها وجعاً وقهراً بكتابه قصته معها قصه رجل باذخ الألم قتل مرتان بسب حبه لامرأة، وقفت ناهد امام سيارتها المرسيديس نظرت الينا كأنها كانت تدري تتبع نظراتنا لها رأيت حقدا يتجسد امامي من عيني ناهد، ناهد كوزة في شكل بشر والكيزان اذا خاصموا قتلوا وناهد تضمير شيء يا اسعد .

تبقى الشوارع دائماً هي الحارس للتغيير وتبقي غربي ممزوجة بالألم والحنين ،
تمضي ايامي مملّة بطيبة وكأنها تحفر بعقاربها الزمن ارقاماً على جسدي ويبقي
الموت حاضراً في الوطن مثل شمس أغسطس التي تلهب تراباً بسيطا اشعتها
، يحاول الساسة شتى الطرق خداع انفسهم ويلجئون الى الملاوغة والمراوغة
يختبئون خلف عبارات منزوعة المعاني وكلمات حمالة أوجه الاتفاق مع العسكر
يحقن دماء أبناء الوطن فكانت وثيقة متناقضة تحمل بذرة فناءها ، الان الوطن
حبيس روحه والحسرة تخص أمهات الشهداء وحدهن ، تدفقت ذاكرة الألم
على عقلي كيف مرت سنه ونصف منذ قدومي للمملكة شهر تخطت من
عمر اقداري سريعة مثل حجر قذف على كجر ، كل شيء تبدل رجعت
سحر لجمال كما توقعت واستقروا بالمدينة ، اسعد خرج من قوقعة هيامه
وقرر البحث عن انثي تبني معه أحلامه ، قليلون الذين يقفون في وجه الحياة
مدافعين عن ارادتهم وينتجون انفسهم من جديد، مرت سنه ونيف فقدت فيها
اكتراثي بكل شيء تقريبا الا الوطن ، غزتي نوبات الحنين وكابوس شبح فض
الاعتصام كم هي مرعبه نوبات الهلع التي تأتيك مع توقيت الحنين ، للقلق
اشواك يغرس انصالها بمهل على الاوردة والشرابين، اخفي الحزن شخصيتي
لتبقي ملاحني تحمل علامه استفاهم من يكون هذا الرجل كثر اللحية مهمل
الملابس ، مرت ايامي تلك دون جديد يذكر رتيبة بطيئة روتين متشابه على
صعيد عملي مع أنطوان وروز ولكن رغم كل هذا كنت اشعر بلذتها برغم
شقائها لذه القرب من روز بجمال روحها لم تكن تشبه احد من بنات وطني
بالغربة ، الغربة عن الوطن عقوبة والرجوع اليه موجه فالحياة في السودان عبارة

إصابتي غبطة فرح فأخذت اصيح بأعلى صوتي الامر الذي لفت انتباه أنطوان الذي كان يتحدث مع أحد العملاء قلت على عجل وفي بالي ان اتصل بحنان أخبرها قرب ميعادنا: -

- بأذن الله أستاذ عبد الباقي ح أكون معاك في التوقيت القلتوا دا

تردد أستاذ عبد الباقي للحظات في غلق الخط ظهرت على صوته نبرة حزن مصحوبة بشي من الشماتة

- سمعت بالحصل لأستاذ عباس

ظهرت على وجهي علامات الاستفهام قلت: -

- أستاذ عباس منو ...

رد عبد الباقي

- أستاذ عباس الكان معاك في مدرسة المنار

وقع الاسم على مثل جيفة لها رائحة

- آه نعم ... مالو الحصل عليه شنو

- تم سجنه وطرده من السعودية بعد تجارة غير مشروعته هو الان في السودان بعد عقوبة 6 أشهر وغرامة كبير ما سمعت بقصة عباس دي

صمت عبد الباقي ثم قال بصوت أقرب للهمس

- بتاجر في أدوات جنسية ومراهم تفتيح البشرة منتهية الصلاحية وأقراص وخلطات تقوية جنسية بعمله هو بنفسه من العسل والزنجبيل المشكلة بعد تحليلها وجد انه يضيف اليها مادة فياجرا غير مرخص بها في المملكة ومهربة من الفلبين

لا حولاً!!!! اصابني حيرة حقيقية ولكن ليس مستبعدا على نوعية عباس ما سمعته عنه الان، حاولت عدم الغوص أكثر في تناول سيرة شخصية احتقرها تماما قلت: -

- ما سمعت والله بالكلام دا هو الان رجع السودان خلاص يعني

قال عبد الباقي ساخرا: -

- ايوة رجع من كم شهر كدا واتعين في وزارة التربية ممثل لاحد الحركات المسلحة ويقود حملة قوية على دكتور عمر القروي بسبب المناهج ودون ان أدري وجدت نفسي اضحك بقوة شاركني عبد الباقي الضحك وهو يقول: -

- السودان دا بلد عجيب خلاص

صمت فجأة اعاني اختلال للذي سمعته أغلقت الخط مع أستاذ عبد الباقي على امل اللقاء مساء اليوم معه ، وضعت راسي على المكتب اغمضت عيني من بشاعة ما سمعت ادركت الان مأساتنا التي يعيشها الوطن نوعية عباس هذا قد تجبر شخصية مثل القروي عن التنازل من مهامه التي يريد ان ينتشل بها الوطن ، غرقت في ذل بلا حدود وانا افكر كيف تسير الأمور في بلد يتهافت عليه بغاث العسكر وتجار حبوب الجنس والحرب ، الى متي نظل نجابد اقدارنا تلك انتهت حياتنا ونحن جلوساً على حافة حلم لم يتحقق ، متى تعلن السماء خلاصنا من كل هذا الرهق افقت من سرحاني هذا على يد تطبطب على راسي من الخلف النفث كانت روز اقتربت مني ببط قالت بشفاها مرتجفة :-

- في حاجة يا احمد

كنت مثقل الذكريات احمل همي وكوابيس من دم تدك مضجعي

- لا ما في حاجة يا روز

كم وددت في تلك اللحظة ان القى براسي في حجرها ابكي نفسي رمقتني هي
بنظرة مطولة وكأنها تصارحني بحقيقتي اني لست على ما يرام هززت راسي في
اسي وقلت

- انا ما نائم كويس

وقف مائلا على نفسي مثل بلدي وهي تنظر الى فقط اغرورقت عينها بالدمع
وهي تراني اهبط لدرك سحيق اتحامل على ثبات جسدي الذي اعياه الحين
وبثت فيه كوايبس الليل السموم، اخذت تنظر الى فقط لا تدري ماذا تفعل
وعيناه تنزف دمعاً روز امرأة واضحة ، وأدرك ان وضوح الأنثى يعطيها هالة
من جاذبية يكرهها الرجال تسبب لهم ضعف امامها، وكم أكره ما انا فيه من
ضعف أحاول مللمة اجزائي ولا قدرة لي على الخروج من شرنقة احزائي التي
الفتها منذ فض الاعتصام لقد نحتت على روعي الخوف الارق السهر

..... انا لست بخير يا وطن ففي كل يوم تزورني أرواح من
كنت معهم

خرجت من مكان عملي أحاول ان أجد مخرج لقله نومي اتصل بجنان الان
ومن ثم اذهب الى اسعد أحاول ان أجد طبيب نفسي اعرض عليه حالتي تلك،
وقفت امام باب السيارة نظرت الى محل بيع قطع الغيار حيث اعمل اللافتة
تحمل اسم (كوش) لبيع قطع الغيار المستعملة ظهر أنطوان ومن خلفه روز
تحته على اللحاق بي

- يا احمد مالك يا عزيزي

فتحت باب السيارة ودعوته للدخول

- تعال اركب

فتح الباب المقابل لي قلت بأسي

- انا مرهق جدا يا أنطوان اعرف أنى مقصر في العمل ول.....

قاطعي قائلا

- عمل شنو بس يا احمد انت ما عاجني اطلاقا ما عارف الحاصل شنو لكن واضح أنك ما قاعد تنوم غير مهتم باي تفاصيل في حياتك انت داخل على اکتئاب او انت فيه الان انا مريت بالوضع الانت فيهو دا قبل كدا

أؤمت براسي إيجابا وقلت: -

- غالبا انا اعاني من شيء أقرب لما قلت

وضع أنطوان يده على كتفي مؤاسياً وقال

- اقترح عليك ان تتواصل مع طبيب نفسي يا احمد انا اعرف ما مررت به في السودان وكيف نجوت من موت محقق

ظلمت صامتا انظر الى الاشياء امامي وفي عيني حزن عميق لا أدرى لماذا انا فيه، اخرج أنطوان هاتفه المحمول وقام بالاتصال على رقم استخرجه من قائمة الهاتف تحدث مع شخص بالطرف الاخر

- إذا سمحت عايز احجز لمقابلة اليوم إذا أمكن

استمع للحظات ثم قال

- ايوه نعم نعم الاسم احمد امين الصادق العمر 46 عام

صمت للحظات وقال

- طيب جميل غدا الساعة الثامنة

نظرت الى أنطوان مستفسرا الحوار الذي دار قبل قليل، رسم على شفثيه ابتسامه عريضة وقال: -

- ما عايزك تزعل لكن روز وصتني احجز ليك مع دكتورة ندي
نادر متخصصة في psychologist

نظر أنطوان الى باهتمام ثم أردف قائلاً

- أصلوا ندي دي صديقة روز وطبيبتها لفترة طويلة

لم ابدي أي اهتمام بجدية كل ما فعلته اني حركت راسي إيجاباً فكرة جيدة ان اقبل طبيب نفسي هذا ما كنت اريده توقفت هل قال ان روز كانت تتابع معها التفت اليه في نفس اللحظة التي استأذني فيها للحاق بأخته داخل المحل الذي انكب عليه عدد من العملاء على ان نتقابل مساء اليوم عندهم بالمنزل فالجدة تريد ان تراني حسب قولها ومنه نتحرك الى العيادة النفسية ، ادرت محرك السيارة وتحركت الى الشقة لعلى انال قسط من النوم الذي فارقتني في الشهور الماضية اعاني من سرعه ضربات قلبي لساني ثقيل لعله قلة النوم والارق توقفت امام صيدلية المودة انا في حاجة لحبوب منومه جديدة لقد جربت نايث كوم لم يأتي بنتيجة معي وحتى songha night وصفه لي الصيدلي بانه مركب عشبي وطبيعي ولا توجد عليه اثار جانبية تناولته ولم يفلح في اصلاح عطفي بعدم النوم قضيت الليالي السابقة اغلبها اتقلب على مصلاقي ركوعاً وسجوداً اخذت ابحت من جديد عن الله هل تخلى عني ام ان داخلي اصبح كريها وتنناً لا يصلح لوجوده فيه ، دلفت الى داخل الصيدلية وجدت دكتور خالد السوداني الذي رحب بي وتفاجأ من شكلي الاشعث تخطي الحاجز الزجاجي وتقدم ناحيتي وعلامات الشفقة باينه عليه رسمت على وجهي ابتسامه ابث بها طمأنينة اليه وفخمت صوتي لأخفي نبره الحزن وثقل لساني فيه ،

- كيفك أستاذ احمد ان شاء الله بخير مالك يا راجل الحاصل عليك شنو بالضبط

قلت وانا امد يدي المرتجفة نحوه مصافحاً

- بخير الحمد لله مريت بالطريق قلت أسلم عليك وبالمرة اشوف لو ألقى منوم أفضل من الشلتهم المرة الفاتت

جذبني الدكتور اليه برأفه تجاوزنا الحاجز الزجاجي الفاصل بين الصيدلي والزبون اجلسني على مقعد امام مكتبة وقال: -

- كدي اول شيء اشوف ضغطك كم شكلو مرتفع يا أستاذ احمد

لم يمهليني حتى على الموافقة او الاعتراض تناول جهاز الضغط وربط الشريط الضاغط على يدي وشرع في قياس مستوي قراءة ضغط دمي الانبساطي والانقباضي وقف للحظات ثم اتسعت عيناه سألني

- عندك ضغط انت يا أستاذ احمد

قلت وانا اشعر بارتفاع دقات قلبي

- ابدا ... لا ضغط لا سكري الحمد لله

لم يجاوبني اخذ بيث هواء الضغط مرة اخري على الشريط الضاغط نظرت الى ملاحظته التي كتبها على الورقة كانت الأرقام قريبة من بعض 90/143 ، نظر الى بتحفظ

- انت متأكد ما عندك ضغط اصلو الأرقام دي بتقول ضغطك مرتفع شديد

- ايوة متأكد ما عندي ضغط

خرج صوتي هذه المرة حزينا نسيت تفخيمه ويدات غيمة ضبابية تتكون امام عيني لا أدري ما كنهها لعله من قلة النوم اثار انتباه خالد ثقل لساني وارهاقني الواضح م قال مستغربا

- حتى لسانك تقيل يا زول واضح عندك تشويش في الرؤية

تحرك الدكتور سريعاً وجلب كوب ماء وشريط به أقراص صغيرة تناولت قرص
ورشفت خلفه الماء

-انا ما عايز اخوفك يا أستاذ احمد لكن بالضرورة نتحرك على الطواري الان
لم اعي بقية حديث دكتور خالد فقد دخلت في نوبه تشنج اشبه بالتي انتابني
اول ايامي بالمملكة وغبت بعدها عن الوعي وفي بالي صورة حنان وعمار في
موكب اليوم.

- الانتقالية نفسها برئيس وزرائها ,وزرائها المدنيين ماهي الا ظل وصدي لتوجهات منظمات دوليه واقليمية يا حنان .

كانت ترتجف ارتجافه الخوف وكلمات عمار تلك تتآمر مع دخان الإطارات المحروقة وسخانة الأجواء الملبدة بدماء الشهداء قالت حنان وهي تدعو الله ان لا يسقط شهيد اخر بعد سماعها لصوت رصاص حي متفرق

- حمدوك لا يدري كم المصائب التي تزرع في طريقه فخاخاً للنيل من الثورة، لن يتكونا نعم بحريتنا الوضع الاقتصادي صعب للغاية على الكثيرين

العاصمة القومية تغلي من جديد خرج المواطنين في ذكرى الحادي والعشرون من أكتوبر ينددون بالعسكر والاتفاق معهم، اغلب الثوار ينتظرون كلمه حمدوك اليوم بمناسبة ذكرى أكتوبر فهم يشاهدون العسكر يخنقون المدنية عن عمد، وهل الحرية تولد في جو يسيطر عليه القديم بالكامل اغلب الثوار لا يعرفون السياسة ولكنهم يحبون الوطن والحياة ، لذلك عندما تري شعاراتهم تندهش لها حنينهيو سلمية ... عدالة، تراجع عمار مع حنان سحبها من يدها برفق من منتصف الموكب وتحرك بها الى حيث تجلس ست البنات مع أمهات اخريات بالقرب من مستشفى الأربعين بشارع الشهيد عبد العظيم تقرفص الاثني امامهم ، الجدة تحتضن اسعد الصغير عدد من أبناء الحي يمرون عليهم يصافحون عمار وحنان ويلقون التحية على ست البنات يسألون عن صحة احمد ويرجعون الى الهتاف ومطاردة الكجر .

- الوطن يمر بمخاض مؤلم مالم تتغير عقلية السياسيين في هذا الوطن فان المشكلة قائمة الى يوم الدين.

قال الشفيح أحد أعضاء لجان مقاومة امدرمان تلك الكلمات رد عليه اخر بعد ان ألقى السلام على المجتمعين

- يعني نحنا بنعيد في نفس الحاجات نفس الأخطاء المشكلة، في التفاوض الوثيقة الدستورية ضعفيه جدا وصدقني العسكر ما حيسلموا رئاسة المجلس السيادي للمدنيين

وقف عمار على واستند على كتف أحد أعضاء مقاومة الحي

- نعم المشكلة هنا بالضبط بنعيد في نفس الأخطاء السابقة اى مجتمع لا يحفل برصد تاريخه وتحليله هو مجتمع محكوم عليه بان يظل الصراع فيه عبثياً.

ارتفعت الهتافات بمجيء موكب من اتجاه الفتيحاب وأبو سعد وانضم الى ثوار شارع الأربعين ارتفعت صور الشهداء والاعلام وقف الثوار صغار السن حديثي الحياة لا تتجاوز أعمارهم منتصف العشرين اعتادوا التعامل مع الموت لم يفزعوا ولم يتراجعوا تنطلق من عيونهم البراءة ممزوجة بالحماس لهم نفس النظرة نفس الصفاء وقفت ست البنات وأطلقت زغرودة عالية صمت لها الجميع خشوعاً كان هنالك شيء مختلف تماما همست به في اذن حنان: -

- انتِ عارفه الثورة دي مختلفة من أكتوبر ومن ابريل انا والمرحوم أبو احمد طلعتنا في ابريل احمد كان اكبر من اسعد دا حبه وأشارت الى ابن ولدها الصغير وحتى أكتوبر بتذكر فيها احداث لكن الشايفاهو هسه دا مختلف يا بتي، مختلف تماما من أكتوبر ومن ابريل في الاثنين طلع المظاهرات المتعلمين والموظفين والطلاب لكن الشايفهم في المظاهرات دي كل الناس كل الناس مشاركة

انتهت حنان لحديث ام احمد سرحت مع نفسها وهي تتأمل المشاركين في

الموكب برغم كبر العدد لكن اختلاف السحنات والاعمار والجنس حتى اختلاف الطبقات كان واضحاً نوعاً ما، من يقود الحراك الان اغلبهم لا يملكون حياة الطبقة ما دون المتوسطة هي الأغلبية.

وفجأة بدا الشارع في التحرك نحو البرلمان واصوات الهتاف تدك السماء ذكاً تحرك عمار وبعد ان أشار الى حنان ان تبقي مع ست البنات وابنها الصغير فالمعركة امام البرلمان معركة كر وفر لم ينهي عمار حديثه حتى سقط امامه احد الثوار بطلقة في بطنه كان من الواضح ان هنالك قناص على احد الاسطح التي تطل على الشارع لان الإصابات اخذت تتوالي سقط في اقل من دقيقتان 4 ثوار من بينهم إصابات خطيرة تفرق المتظاهرين غير دارين بما يحصل وسيطرت حاله هلع وتوتر على الجميع بدءاً الخوف واضحاً على البعض وصيحات فزعه تنطلق من افواه الأمهات ، تم اخلاء منطقة الإصابات فوراً وتمدد الثوار على الأرض او خلف الأشجار واعمدوا الكهرباء الى ان اشارات احدي الكنداكات الى سطح احد المنازل العالية التي على الشارع شاهد الجميع انعكاس منظار القناص وخلفه شخص بنظارة سودا كانت ملامحه واضحة نوعاً ما ، وبجذر ومن خلف المبني تحرك اليها عمار ومعه الشفيع وعدد من لجان المقاومة تمت محاصرته وتغويله والقبض عليها ، نزل الثوار ومعهم شخص يرتدي ملابس مدنية ويضع على عينه نظارة سوداء امسك عمار بالسلاح الناري لم تكن بندقية قنص بالمعني الواضح كانت بندقية موسين الروسية عليها بعض التعديلات غالباً تمت في التصنيع الحربي ، اخذت حنان تنظر الى القناص غير مستوعبه اقتربت منه وقامت برفع يدها وصفعه على خده بقوة ترنح على اثرها الرجل وفقد توازنه وسقطت نظارته ارضاً نعم هو نفسه محمد صلاح كادر الكيزان بالجامعة كما توقعت تذكرته برغم كل تلك السنين فشخصية صلاح من الشخصيات التي نحتت على ذاكرة السياسيين المعارضين فهو سليل اللسان متبجح لا يخفي انتمائه لقوات الامن الشعبي تسبب في اعتقال عدد كبير من الطلاب السياسيين نظرت اليه حنان وفي عينها

غل لهذا الذي يقتل مخالفه بدم بارد وقف محمد صلاح وسط جمع من الثوار
عمار وبعض لجان المقاومة يحاولوا حمايته بقدر الإمكان من فتك النساء
اخذ محمد صلاح يرتجف ويولول مثل انثي فقدت بعلمها بل اشد اخذ صراخه
يتعالى وسط ضحكات الكنداكات

- ووووووآآآي.... وآآآآآآآي ... سجمي لاآآآآآ لاآآآآآآآ
وآآآآآآي

هكذا هم أبناء النظام عندما تتم محاسبتهم على افعالهم ، لم يدري الجمع ماذا
حدث لمحمد صلاح الذي صمت فجاءة وجحظت عيناه في هلع نظر عدد
من الثوار الى سكينه بت عوض احدي نساء حي امدرمان القديمة لها صوت
جهوري وسن ذهبه تظهر مع ضحكتها العالية ، سكينه ترسم حاجبها رسماً
على شكل هلال اسود وتمد كحل عينيه بطريقة اهل النوبة القديمة لها شفاه
سفلي متدليلة قائمة السواد شعرها ممشط دائماً وتستعين بخصل اخري لزيادة
طوله تغني في جلسات الزار وقعدات الجبنة ومشهورة في الاعراس بتهيئة
الأزواج ومسيحهم بالدلكة و الجرتق، لا احد يدري كم هو عمر سكينه حتى
هي نفسها ولكنها عاشت طويلا ومازالت في كمال قوتها تدخن اكثر من اربعة
علب بنسون كبيرة لا تتذكر عدد زيجاتها التي تعدت العشرة واغلب مغتربي
امدرمان القديمة في قدومه للسودان لا بد ان يدخل بيت خاله سكينه محملاً
بأجود أنواع الخمور ولا يخفي على شيوخ وشباب ونساء المنطقة عشق الخالة
سكينه ل (تيكيللا *) و (بهارد سيدر*) وفي مناسبات الاعراس يكون لشربوت
سكينه نكهة خاصة فلا بد ان يكسر ك بنسبه معينة مع مشروب (براندي*)
، شاهد الجمع الخالة سكينه وهي تقبض على الكوز محمد صلاح من الخلف
وتمد يدها فاردة اصبعها الأوسط وتغرف من مؤخرته غرماً كانت يدها مثل
مفراكه على قدر سقط كادر الامن على الأرض من كثر ه الغرف وعدد من
الحضور يضحك بشي من الشماتة فقد بلغ الرجل ارتجافته الاولي ، وقفت
سكينه فوقه ورفعت فستانها تريد التبول عليه لولا ان امسكها عمار وبعض

و الوجوه المنكسرة المذهولة من هول الفجيعة بفقد الاصحاب والحلم الذي كان ، السودان ارض الخراب ، الشوارع تثور وتغور الوطن يأكل نفسه بفعل النجوم التي تراصت على اكتاف الجنرالات المتآمرين على الحقيقة ، انطلق قذيفة اريبي جي من امام مدخل البرلمان لتستقر على راس احد الثوار فتفتته كاملا ويسقط مخه تحت اقدام عمار الذي اصابته المفاجأة يذهول فتح عيناه في رعب حقيقي تسمر للحظات ، حمل الثوار الشهيد مبتعدين عن مكان اطلاق الرصاص مع الذهول الذي اصاب عمار والمفاجأة التي أوقعت مخ الشهيد تحت قدمية حملة على لوح خشب وركض مع الاخرين مبتعدا عن قذائف الاريبي جي التي اطلقها الجنود على الثوار السلميين عمار اسرع جريا من رصاصهم يحاول الحفاظ على ما تبقي من حياته توقف عن الركض اما صينية بانث حيث تجمع الثوار للمرة الثانية بعد ان تم تفريقهم بالقذائف ومضادات الدبابات فالعسكر من اجل السلطة يأخذون في طريقهم ارواح اليفع وبقايا الامل واحلام وطن ، وقف عمار رفع مخ الشهيد وأشار الى ان العسكر يضربون الثوار بمضادات الطائرات بداء يخطب في الثوار ويدعوهم للتماسك وان ارواحهم غالية لا للتهور وانهم اصحاب حق ولا ضاع

.....

لم يكمل حديثه في تلك اللحظة تحديدا وعند تلك الجملة عبرت رصاصه قناص اخر الطريق حقدًا تبحث عن منطقة القلب بجسد عمار الذي سقط رافعا يديه بعلامة النصر ، زُدد الصدى آهاته مع اعلان التلفزيون القومي كلمة رئيس الوزراء ظهر يومها حمدوك مرتديا زي قومي ابيض وعمامة تحدث في كل شيء الا الثورة ، ضاع الحق رغم ان وراه مطالب بل ضاع المطالب نفسه وسط هرج دولة العسكر و الجنجويد قتلنا بسيف حب الوطن و عمار متورط في حب هذا الوطن الى النهاية الان يسقط واقفاً حملة الثوار مهولين وخلفه تاتشرات الكجر ، حملوه جسدا على نعش الوطن لم يكونوا مصدقين عمار علي .. الخال ... مثقف بدرجة وطن، سقط برصاص جاهل، قاتل الثوار في

الحفاظ على عمار بين أيديهم وسط سيل منهمر من الرصاص وبكاء ودموع
امدرمان.

34

الموت... حزنا.... فقداً هو كل ما يقدمه لنا الوطن وعلى قدر حبنا
له ينكسر قلبنا من افعاله، افقت على صوت روز بجاني بمستشفي جدة
التخصصي واسعد قابضاً على يدي نظرت إليهم غير مستوعب اين انا وماذا
حدث في اللحظة التي دخل علينا دكتور خالد بصحبه طبيب سوداني اخر
بداء واضحا القلق وقف امامي رسم جدية على وجهه قال: -

- حمدالله على السلامة يا أستاذ احمد

تناول يدي فحص نبضي وضع السماعه يستمع الى ضربات قلبي التي بطيء
ايقاعها مع غياب حنان

قلت بصوت ضعيف: -

- خير يا دكتور الحاصل شنو

لم يجاوبني التفت الى اسعد كانت عيناه محمرتان هل كان يبكي على طيلة
غيوبتي لقد اتعبت اسعد كثيرا سأله الطبيب

- انت صديقه موش

- ايوة أصحاب اخوان عديل

- عائشين مع بعض

رد اسعد

- ايوة لينا قريب السننتين الان

سال الدكتور بتأنيب: -

- طيب ما لاحظت عليه اى تغييرات الضغط والسكر ديل بكون عندها إشارات معينه

رد اسعد بجزن

- لاحظت عليه قلة الاكل ضعف شديد في الفترة الأخير وطوالي كان بشكي من صداع خلاف قلة النوم وقلت دا كلو راجع للتجربة المرة بيها في الخرطوم

التفت الطبيب نحوي قال: -

- ح تقعد معانا كم يوم يا استاذ احمد وح نحتاج اجراء فحوصات كل ست ساعات

تفهمت الامر هززت راسي إيجابا واغمضت عيني مستسلماً كل ما يشغلني الان ان استعيد صحتي ، اكره ان ترايني ست البنات وحنان في هذا الشكل ، فتحت عيني بعد خروج الأطباء اشارات روز لأسعد ان يكون برفقتي روز أيضا محمرة العينين تنظر لي مشجعه تضع على شفتيها ابتسامه باهته جعلتها اجمل الفتيات يكفي فقط نبض قلبها ونظراتها تلك لتشعل انوثتها في المكان روز انثي بقلب الدنيا إنسانية وبراءة ، تخرج لاحقة بالأطباء يبدو انها تريد ترتيب الأمور المالية مع المستشفى هكذا خمنت ابتسمت لها بدوري ، نظرت الى اسعد كان غارقاً في دموعه يبكي شجنا غائب ، اسعد ليس بهذا الضعف امام المواقف التي تتطلب سند تسرب لي انكساره نظرت اليه مستفسرا :-

- الحاصل شنو يا اسعد انا كويس، في الفحوصات ظهرت حاجة يعني

مسح اسعد عينيه وقال: =

- لا الفحوصات لسه عايزة تأكيد ذي ما قال الدكتور

- طيب مالك

- ما في شيء بس خفنا عليك

قال اسعد كلماته تلك وتحرك صوب الباب فقد كان تلفونه يومض خرج من الغرفة يرد على الاتصال الامر الذي استغربت له، نظرت الى الطاولة ابحت عن تلفوني أيضا حاولت ان أقوم مستندا على قوائم السرير يبدو اني اعاني بالفعل ، قسطرة التبول تعيق حركتي و على ويدي اليسرى فراشة ابر الوريد يا الهي غربة ومرض حالة جنون تتدثر تحتها تجعلك تتوسد الحنين والذكري وشجن الماضي ، تري كيف حال حنان لم اخبرها الى الان بان الفيذا جاهزة ، ضغطت على نفسي ووقفت على رجلي الم رهيب يجتاحني ارجلي متورمه بصورة كبير ترنحت استند على طرف السرير الطبي خفت الوقع على الأرض في هذه اللحظة دخلت روز ، وجدتي بتلك الحالة هرولت نحوي بخوف وهى تصرخ

- احمد مالك ماشي وين انت

صوتها العالي أربع اسعد وانطوان في الخارج دلف الجميع الى داخل الغرفة كان الاضطراب بائنا عليهم نظرت الى اسعد ونقلت بصري الى روز وانا اشير إليهم نحو قدمي

- الحاصل شنوا متورمه لي كدا

نظر اسعد الى روز التي اجلستني تمددت على السرير وجلست هي بجانبى ووضعت يدها على راسي قائلة

- الحاصل كلو خير يا احمد في ارتفاع في البولينا سبب اجهاد للكليتين والفحوصات حتبين الحاصل أكثر.

قالت روز كلماتها تلك بعينين دامعتين ابتسم انا ساخرا من مطبات الدنيا التي

توضع امامي امتحان لتجلدي وانا ذاهباً في طريق الفشل الكلوي كل ما أومن به الان يخذلني وكل ما تمسكت به يتسرب خفيه من يدي تري ماذا ينتظرني فلنحمد الله على كل حال فاذا كانت الحياة متوقعه لتوقفت ، ولكانت بلا نكهه اخذت احمد الله في سري تذكرت في تلك اللحظات عم علي والد حنان في مرضه الأخير وكيفية تجلده تمنيت ان ينزل على الله بعض من يقين الرجل فيه ،سمعت طرقات على باب الغرفة دخلت سحر هرولت نحوي حضنتني بشفقه غائب وطرف من عينيها ملئ بدمع يبدو انها قد تماسكت اثناء دخولها على جلست سحر بجانب قابضة على يدي اليمني ترتل بعض آيات من القرآن ،دلف جمال مع بناته مرتديات عباءة سعودية وغطاء مرمي بإهمال على الراس وقفت روز على الجانب الاخر مفسحة مكان لجمال أن يكون بقربي ارتمي على احتضني يبكي نفسه معي ،ربت على كتفي وهو يقول

- بأذن الله بأذن الله ح تعدي يا احمد

قلت بشي من السخرية: -

- ح تعدي نعم

نظرت ناحية اسعد كانت عيناه مثبتة على آية ، وجمال يواسيني: -

- يلا يا حبيينا صحصح كدا عشان عندنا مواضيع كثيرة عايزين نتناقش فيها البرهان عامل نفسو رئيس السودان محتاجين تحليلاتك يا ابوحميد.

قلت مبتسماً

- حاضر كلها كم يوم واطلع من المستشفى ...

نظرت للناحية الأخرى مازالت عيننا اسعد تعبت خجلاً بين حين وحين نحو آية نظرت اليه محذراً قلت في نفسي احترس يا صديقي فبنات المعتربين أخطر من بنادق العسكر،

تقدمت ابنتا جمال صافحتاني قالت آية بلغه عريية ركيكة: -

- حمدالله على سلامتک عمو

انطلقت مني ضحكة ساخرة عفوية وانا أقول لها: -

- الله يسلمک يا بتي

ضحك اسعد وانطوان فيما ابتسمت سحر ، وجمال يضاري احراج غبي ظهر عليه ، الان تداركنا العمر الذي مضى فجاءة أصبح اسمي مسبقا ب (عمو / خالو) وانا الذي كنت احسب علامتي في الحياة وطن، مشي الزمن أو سرق لا يهم فقد خلف مزيداً من الانين مزيدا من الوجدع مزيدا من طمس الحياة، وقف جمال ووقفت سحر بدخول الطبيب كانت روز متأثرة تملا عينها الدموع تحاول اخفاها تقف في ركن الغرفة وبجانبتها أنطوان الذي بداء يتعرف على بنات جمال، انطلقت نغمة تلفون اسعد خرج مرة اخري والطبيب يأمرني بان اتدد على السرير ضربت الممرضة بعض المحاليل على وريدي الذي ثار منفعلاً من برودة السائل فعبير عن عدم ارتياحه بحرارة اجتاحت كل يدي اليسرى توقفت الممرضة وهي تنظر لمكان انتفاخ الوريد، همس الطبيب في اذن الممرضة

- الاوردة ضعيفة جدا واضح ان الادوية ما جابت نتيجة.

امر الطبيب الموجودين في الغرفة بالخروج وتم استدعاء طاقم الأطباء مختلف الجنسيات وقفوا جميعا حوالي يتحدثون بلهجة الانجليزي الهندي تولت الفحوصات فحص تلو فحص الى ان قرروا جلوسي على ماكينة غسيل الكلوى ، دخل على اسعد وجمال كانت دموع الأخير واضحة اما اسعد في الغالب فقد قدرته على البكاء كنت اري الدموع تقف داخل عينيه ولكنه ظل صامدا يحاول ادعاء الثبات وداخله يرتجف من كلمة فشل كلوي ، سحر قلبتها مناحه اما روز فتبكت وهي تنظر الي كانت مذهولة تماما ترتجف بقوي تقبض على يد أنطوان الذي انهمرت دموعه بصمت وكأنه غير مصدق هذا

نفس موقف والدها الذي رحل متأثراً بالفشل الكلوي ايضاً الان يعاد الشريط مع الشبيهه يا انا حزنك ووجعك وانتِ ترين كل قدوة تنهار بنفس الأسباب يا روز ، ابتسمت لهم وللمرة الثانية يمر امامي طيف عم علي والد حنان يا اللهبي الان ادركت ما لم احط به خيراً كم كان حكيماً في تعامله مع الحياة ، ارتفع رنين هاتف اسعد مرة ثالثة وقبل ان يخرج سألته:-

- تلفوني وين يا اسعد

اقترب مني قائلاً

- التلفون في العربية بره يا احمد عايز التلفون لي شنوا

- عايز أتكلم مع حنان يا اسعد اتصل عليها

- نظر اسعد الى جمال وروز قال بأسى: -

- أفضل عدم الحديث معها الان وانت في الوضع ، بالمناسبة كان معنا أستاذ عبد الباقي السر وانت في الغيبوبة وصل اول ما عرف المر بيك في صيدلية دكتور خالد استلمت منو الفيز ورسلتها لحنان خلى الأمور دي الان لحدي ما تبلغ الصحة

ايد الجميع حديث اسعد وكأنهم على اتفاق مسبق الامر الذي جعلني اذهب بظنوني بعيد بان حنان ليست بخير فضلت عدم جداهم سكت وان اتحسس موضع حلمي، لم اعد تائهاً أصبحت اختار طريقي الان فالله داخلي الان ينجيني من سمومي لا لن أسقط فريسه للمرض على التماسك ضد قسوة المرض صوت حنان يناديني

- ابقى طيب يا احمد.

دخل ممرضان اجلسوني على نقالة متحركة تحركوا بي الى غرفه التجهيز لبدء عملية الغسيل

لم أكن استوعب ان احمد مريض فشل كلوي عندما اتصلت على تلفونه ورد على دكتور خالد ايقنت ان مكروها حصل له خمنت ربما يكون حاث مروري ولكن ان يكون مصابا بالفشل الكلوي لم يدر بخاطري ولا حتى في احلامي ارتجفت اطرافي توترت حشرجت وانقطع نفسي حاولت ان استوعب ما يقوله بقدر ما استطعت من ايمان كان حديث الدكتور الصيدلي مختصرا ، دامي: -

- وعليكم السلام كيفك أستاذ اسعد اسف رديت على تلفون احمد نحن في المستشفى الان احمد دا مريض كان معاي في الصيدلية وجينا لمستشفى جدة التخصصي تعال علينا

وقفت امام عدد من الموظفين مصريين وسوريين مبكم الإحساس تائها في ملكوت الشك والريبة ماذا حدث لأحمد...؟! وصل الي طرف من حديثهم الذي يدور حول الثورة السودانية وأنها في طريقها للفشل وما الثورة في السودان الا صدي لما حدث في مصر نظرت الى أحاديثهم التافه تلك وهم يحثوني للدخول معهم في حوار ، انصرفت عنهم تماما وبترفع قديم قدم كوش العظيم ، اتصلت بروز أخبرها ان احمد بمستشفي جدة التخصصي عليها ان تلحقني الى هنالك ولأول مرة أحس بتلك الأنثى فقد لسعتني حنية صوتها، أغلقت الخط واتصلت بجمال أيضا فقد اتي في إجازة لمدة مع اسرته بعد ان استوطن المدينة حسب رغبة سحر ، تركت الشركة حتى بدون ان استأذن وتحركت بالسيارة الى وجهتي التي بها احمد أمين، كنت اقود بسرعه تفوق السرعة المصرح بها في بعض الأحيان أحاول اللحاق بالمستشفى ، تذكرت ايامي قبل

مجي احمد اغرقت نفسي في العمل ومجاملات السودانين تحاشيت ذكرياتي مع
ناهد والحزب وبدون ان اعرف أي شيء عن الوطن خبأت جزاء من نفسي
بعيدا عن كل شيء ارهق نفسي حد الموت لأعود ليلاً محملاً بأدوية منومه
اتناوله لأسقط مغشيا على لصباح الغد توقفت في باركن المستشفى ارتفع
رنين الهاتف كان المتصل أستاذ عبد الباقي السيد التوترباديا على نبره صوته

- يا اسعد اخبارك يا ابني

قلت وانا اضعب منظاري الطبي على عيني

- الحمد لله بخير أستاذ عبد الباقي

- انا والله كنت مواعدا احمد دا نتلاقى اليوم المساء الفيزا بتاعه زوجته
ووالدته طلعت

ارت ان أقول له ان احمد الان بالمستشفى الا انه واصل قائلاً: -

- الحقيقة انا عرفت انو بالمستشفى الان وأنك في طريقك اليه كنت
على اتصال قبل شوية مع دكتور خالد بس في حاجة كنت عايز اوريك ليها
وقفت مشدوها خفت من حديثه القادم لا أدري لماذا ارتفعت دقات قلبي
وكأنني في انتظار خبر سيئ

- نعم استاذي ماذا تريد

رد أستاذ عبد الباقي بشي من الحذر

- اعتقد ان نسيب احمد دا توفي بالخرطوم في المظاهرات

قلت بفرع:

- نسيبو منو يا أستاذ

صمت عبد الباقي لحظة كأنه يسترجع الخبر

- موش عمار علي نسيب احمد اخ زوجته حنان علي

سقط الاسم على كالصاعقة اخذت اردد

- انت متأكد يا استاذ عبد الباقي لا 11 1111 يكون تشابه أسماء ساي انت
عرفت كيف ...

اخمر سيل من الأسئلة على عقلي ترجمته على الأستاذ الذي صمت للحظات
ثم قال: -

- حقيقة انا كنت مع جمال وسحر وسحر متأكدة تماما من الخبر
بحكم علاقتها مع حنان انا متحرك عليكم في المستشفى الى ان اصلكم يا
اسعد ارجو ان لا يطلع احمد على اى تطبيق لا واتساب لا فيس بوك فصورة
وفيدويوهات قتل عمار علي تملأ مواقع التواصل الاجتماعي انا لله وانا اليه
راجعون.

اغلق أستاذ عبد الباقي الخط في اللحظة التي شاهدت فيها روز مقبلة نحوي
كنت ارتجف فعلاقتي بعمار علي قوية تعرفت على عمار حتى قبل ان يعرف
احمد حنان جمعنا حب الهلال واغاني الحقيبة التقينا في دار فلاح ومكتبة
عبدالكريم ميرغني ضممتنا المشاوير و امدرمان القديمة والتي تتيح لنا ان نتسكع
في شوارعها ويطيب المساء بفول الواحة او الجان وفي أيام الفرح بعد مغامرة
حب تجمعنا مع عاشقات عابرات كنا نحتفل بالذهاب الى الكوتش لتناول وجبه
كوارع ، لا نحس برهق الخطي فتكفينا الرفقة ، تجلدي ذكري عمار بعنف تدك
جسدي تتمثل لي فيلما سينمائيا امامي عمار بشحمه ولحمه ، ذكرياتي مع
عمار أكبر من ان احكيها او اقصها على نفسي ، كثير من احداثها تافهة
فارغه لاتهم احد سوانا عشناها بحب وحياة فهي لنا لنا وحدنا فقط.

هل من المعقول ان يرحل عمار هكذا دون حتى ان يقول لنا وداعاً او يمسح

شاربه بالسبابة والابهام كعادته دائماً.

فتحت تطبيق الفيس كنت ابحث عنه بين الرفات بين الأموات رايتنه يسقط سهواً في شراك العسكر رافعا يده اليميني بعلامه النصر والأخرى تقبض على قلبة الذي خضبه حب الوطن قبل الدماء... نعم هو نفسه عمار علي، بشاربه المميز وتسريحه شعرة التي تشابه مصطفى سيد احمد، وصلتني روز

- اسعد كيفك احمد مالو

لم اجابها بل كنت انظر الى التلفون وابكي بحرقه بكيت الى ان ارقميت على الأرض تتاروني احزاني من جديد ويتقاذفني الحنين هرعت روز تأخذني من يدي تصرخ في وجهي وتبكي بمرارة

- في شنوا احمد مالو احمد مالو

سكن جسمي وتسرب الألم الى راسي سحبتني روز اليها مسنده جسدي على كتفها تماسكت نوعا ما اشرت الى الفيديو المعروض لقنص عمار قلت بصوت واهن

- دا شقيق حنان زوجه احمد استشهد اليوم في السودان

جحظت عينها تبكمت اخذت تنظر الى الفيديو وعلقت على لسانها كلمه واحدة

- بشع بشع ... بشع

استدركت الامر احمد مفترض ما يعرف الحاصل دا لحدي ما نظمتن عليه قلت لروز اخذت الهاتف تحاملت على صبري أكثر ، اتصلت على حنان لابد ان اعرف كيف حالها الان، اصطحبت روز وتحركنا نحو الغرفة التي بها احمد حسب وصف دكتور خالد، في الطريق كنت أحاول الاتصال على حنان صوت جرس متواصل دون رد، لم أياس اتصلت بمعصم سليمان رد وعلى

صوته بحه حزن

- معتصم الأحوال انت وين
- في المشرحة يا اسعد كيف انت ان شاء الله بخير كويس أنك اتصلت كنت بمحاول اتصل على احمد عرفت الحاصل
- أيوة عرفت البركة فينا وفيكم
- انهارت دموع معتصم العالقة مثل سد كُسر حاجزة لم يستطيع التماسك كان بكائه هستيريا بكاء عمار بكاء حار سمعت من حوله أصوات بكاء وهتاف حاولت ان اصبره قلت له
- اسمع يا معتصم احمد امين دا راقد في المستشفى ما معروف الحاصل شنوا لكن خبر ذي استشهاد عمار ح يزيد من حالته
- لم أتوقع ان حنان بالقرب منه سمعتها تصرخ بأعلى صوت نعم هو صوت حنان التي قبضت على الهاتف
- احمد مالو يا معتصم انت بتتكلم مع منو...؟ احمد عرف موش عرف وتعب تاني
- معتصم سليمان هذا المعتوه كان يتحدث معي بالاسبيكر لم أدري ماذا أقول وضعت الهاتف على يد روز وقلت لها: -
- اتكلمي مع حنان عزيزها وطمئنها على احمد
- لا أدري هل ما فعلته جنبنا او خوف تركت روز مع حنان ودلفت الى غرفه احمد لازال غائبا عن الوعي معه عدد من الأطباء اخذت جانبنا الى ان دخلت روز وقفت بجانبني
- طمأنت حنان على احمد قلت لها نفس الحالة التي تعتربه بعد فض

الاعتصام هي الان غير مستوعبه مسكينه بكائها صعب على اخيها

- خير ما فعلتي روز

اكتفيت بهذا الرد وشيخ عمار يتجول امامي يقف امام احمد وسط الأطباء يتفحص نبضه ويهمس على اذنه الثورة مستمرة غلبتني دموعي وطبيب سوداني برفقه دكتور خالد الصيدلي يقف امامنا صافحني خالد وقال بصوت واهن حزين بعد انصراف الطبيب: -

- الوضع غير مستقر، الأطباء هنا شاكين في ضمور وظائف الكلبي في ارتفاع في البولينا بشكل كبير

صمت لبرهه وكأنه يتعمد ان يصل بنا لأعلى درجات الفضول قبل ان يردف قائلاً: -

- ح تعمل الفحوصات للتأكد فقط وغالبا يدخل لغسيل

قال كلامه هذا مثل قذيفه اطلقت عمدا على حي سكني في ليلة صيفية ساكنة جحظت عينايا فيما وقفت روز غير مستوعبه كأها في كابوس استأذن خالد في الانصراف لان الصيدلية لوحدها وعدني ان يكون معنا مساء لم ينزل نظير دكتور خالد من روز طيلة حديثه حتى انه تبعها وهي تتجه باكية تحتضن يد احمد تحول نظرة الى بعلامه استفهام كأنه يريد ان يسألني من هذه ، اكتفيت ان هزرت راسي له تركت الفضول ينهش داخله وهو ينظر الى روز مشدوها بها ، لم تعره الأثنى إي اهتمام فقد تدفقت ذاكرة الألم عليها فانكبت على شبيهه والدها تجتر مرارة مرضه الأخير قبل رحيله بنفس الاعراض.

سيأتينا من بعيد صوت الانين انين ضحايا الوطن سيؤرقنا صراخهم بعض الوقت ثم يتلاشى هويننا.... هويننا الى ان يختفي سريعاً ويتحول الشهداء الى مجرد ارقام تُذكر مع كل فاجعه جديدة، استيقظت الخرطوم صباح اليوم الخامس والعشرون من أكتوبر على بيان البرهان يعد الوطن بكارثه جديدة تمت في سري وانا اشاهد احمد امين ممددا على كرسي الغسيل يجتر الامه سارحا في سقف الحجرة وعددٍ من الاسلاك والانايب تدخل في جسده تمتص دماءه وتقيأها مرة اخرة داخله هزرت راسي في اسي ودمعه على خدي تبلبل شوقي ، لم يكتفي البرهان بانقلابه بل اجج النيران فتنه في الوطن، ففتحت ابواب الجحيم علينا ، البرهان اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا أوّمن خان تبا له لقد خان امانه الله في دم شعبه ثلاثاً ، احمد امين كأنه يدرك ما يحاك ضد الوطن ظل ساهما يعيد احاديثه مع نفسه لم اشاء ان ازعجه في الأيام الماضية بخبر استشهاد عمار علي الم الفقد مريّر تتمني ان تعيشه وحدك بعين شهيد لتقتل جنين الخبيثة عسكر يتوالدون من جديد ، اعلم انه مفرط الشوق لحنان وصمته الان غفران لخطيئة الغياب عنها .

لم استطع النوم منذ ان دخل احمد الى المستشفى ارقمي فقط على كنبه الانتظار التي امام غرفته اعاني ارهاق السنين اذهب في غفوة استيقظ منها على شفاه كابوس يؤرقني بقية اليوم ، كوابيسي تتربص بي على عتبه النعاس تأخذني الى امدردمان حاملاً لنعش وتابوت ، نظرت الى احمد مرة اخري من خلال النافذة الزجاجية لغرفة الغسيل كان شاحب الوجه هزيل الجسم فقد كامل ليافته البدنية التي اعجبت مدام انزوت يوما ما اصبح كهلاً تساقط شعر

راسه واضمحله خده ، الا ان حضوره طاغيا حتى في مرضه، لأحمد حضور أوكاريزما تهيب وتخيف حتى كوادرات الامن أيام الجامعة أتذكر جيدا محاولة اعتقاله بمكتب الحرس الجامعي عندما تم استدعائية ذهبنا معه انا وحنان وعدد من الطلاب اقترب منه احد ضباط الامن الطلابي وبدون ان يقول شيئا انهم عليه بصفحات متتالية اخذ يترنح مع آلامه المبرحة تحامل على نفسه ووقف شامخا مره اخري انقض على الضابط مثل حيوان مفترس لم نستوعب شيء في هذه اللحظة الا غريزة الدفاع عن النفس اخرج كل واحد منا سكيننا من تحت ثيابه وهجمنا على الحراس امامنا لو لا صياحات حنان لكان الحدث له لون ورائحة سمي هذا اليوم بمعركة (ذات السنان والبول) ففيها فقد الضابط الصف الأول من اسنان كاملة بضربه من يد احمد وتبول البقية على ملابسهم خوفاً ، رجعت الى واقعي انظر اليه تلاقت انظارنا مع ابتسامه بعيدة لاحت على وجهه نقشت وشما على صريح روحي تماسك يا صديقي تماسك فهنالكَ على هذه الأرض ما يستحق الحياة صدقني فانا لا اعرف طعم الحياة بدون رفقتك وصدافتك تماسك من اجل غدا افضل تماسك من اجل حنان واسعد الصغير ، افقت على يد جمال على كتفي

- كيف الأحوال شكلك ما نائم يا اسعد

قلت بشي من الوجد

- ولا اعتقد ح أقدر انوم...؟

- لقد مددت اجازتي في جدة ما ح ارجع الا نظمتن على احمد

نظرت الى الصالة خلفي كانت سحر تختضن روز في بكاء صامت اخذني جمال من يدي بعد أن راي ارتجاف جسدي ونظراتي تتجه الى احمد اتجهنا الى حيث روز ، الجدة تتوسطهم على كنبه الانتظار بالصالة تتمم بأدعية الفرج ، لأول مره الاحظ عدد من السعوديين والمصريين معنا في صالة الانتظار تقدم رجل عليه فضول ولحية كثيفة يضع العقل والشماع السعودي على راسه صافح

جمال بمعرفة ومد يده ناحيتي صافحته واتخذت ركنا قصيا فقد خفت ان افصح نفسي وينكشف ما يعتريني من غم ان تحدثت مع الرجل الذي اخذ يتساءل بحزن عن ما يحدث في السودان خفضت بصري حسرة فالوطن بين الشعوب الأخرى لا يصلح الا للشفقة ، صمتُ وصمت جمال نظرنا الى بعضنا البعض وتساءلت بيني وبين نفسي كيف لهذا الاعرابي ان يعرف ان صمتي هذا مزدحم بنفس تساؤلاته ماذا يحدث في وطني .. لم ادري بماذا جاوبه جمال ظللت صامتة الى ان اقتربت مني روز جلست بالقرب مني سلمتني الهاتف قالت

- أنطوان يريدك

وضعت التلفون على اذني سمعت الطرف الاخر يقول: -

- اسعد كيف صحتك اتمني أنك بخير متابع اخبار السودان في انقلاب على ما يبدو والوضع غير آمن اطلاقا انا جهزت تذاكر لمدام حنان و البقية ارجو اخبارها بان يستعدوا للسفر خلال يومين.

- ممتاز أنطوان ممتاز أرسل التذاكر الى روز لإرسالها لحنان وانا سوف أخبرها اليوم

اغلقت الخط وجمال يجلس بالقرب مني في نفس اللحظة التي فتح فيه باب غرفة الغسيل احمد مستلقي على نقالة منهك الجسم يعتليه شحوب واضح هرعت روز اليه عيناه غائرتان تدوران في محجريهما اخذت انظر اليه ودمعي ينسكب على خدي ينظر الي مبتسما احمد امين صديق اللهفة والخيبات والاحلام التي لم تكتمل بعد لم استطيع التحرك نحوه تسمرت مكاني والممرض يدفع النقالة سريعا عبر الممرات وقفت انظر الى شاشة التلفزيون المعلقة في صالة الانتظار فقد عبث بها السعودي الذي تحدث معنا قبل قليل وبرمجها على احدي القنوات الإخبارية احتلت اخبار انقلاب البرهان صدارة الاحداث ومع فيديو استشهاد عدد من الثوار ازداد انين جرحي بكاء، وجمال يأخذ بيدي للخارج تبعتني شبح عمار علي من جديد وهو يقول:-

- نحن لا نبكي تلك الدماء التي سكبت فهي مهر الانعتاق ولكننا نبكي ضياع الشرعية الثورية بالتفاوض مع العسكر وها هم الان يفرضون علينا الجزية وقفت مكاني اخذت اتلفت بحثا عنه كان الصوت واضحا يدك اذني نفس نبره حديثة تركني جمال لسحر التي ضمتني اليها قائلة

- اهدا يا اسعد اهدا انت مرهق

لم اهدا أفلت جسدي من بين يدي سحر وتحركت الى غرفة احمد جلسنا انا وروز بالقرب منه ظل صامتا ينظر الى سقف الغرفة كأنه ينتظر ملك الموت ان يصب عليه حباً لحق بنا جمال حاملا سندوتشات وعصير ناولها لي قائلاً

- واضح أنك جائع يا اسعد وتعاني قلة النوم رأيك شنو تمشي الشقة ترتاح ونرجع ثاني

تحسست رائحة دمعي وابتسامه احمد ناصعه برغم الألم تحثني على المضي رفضت المقترح تماما، خرجنا جميعا مع دخول الطاقم الطبي لمراجعته حالته بعد الغسيل لم تمضي لحظات حتى أخبرنا الطبيب الهندي منع الزيارة نهائيا عنه، افترشت الأرض امام غرفته ولسان حالي يقول

- والله لن ابرح الأرض حتى يأذن لي احمد او يحكم الله لي ،

كنت أخاف عليه الوحدة تمددت بجانبه روز واضعه راسها على راحة يديها وسحر تأخذ بيد الجدة الى داخل الصالة وشاشة التلفزيون على الصالة تبث اخبار السودان والبرهان يتلو بيان الانقلاب المشؤوم، رائحة الكذب تحثني كذب البرهان له رائحة وطعم ولون وملمس، البرهان يتمدد في كذبه تصرخ سحر ساخطة وهي تري بناء اعتقال قيادات قوي الحرية والتغيير مكتوبا على الشاشة تحت عنوان عاجل

- الوطن لا يحتاج لأمثال البرهان والساسة ليكون بخير ، هو فقط يحتاج

حبنا

للوهلة الاولى لم اعى ما اشاهده قمت فزعا حتى ان روز انزعجت من قيامي بتلك الطريقة هرولتُ نحو النافذة الزجاجية احمد امين واقفاً خلفها ملتصقا بالزجاج ينظر الى شاشة التلفاز بحزن ولوعه،

- يا اللهي كيف نؤكل هكذا كوجبة شهية من قبل العسكر دون بسملة او حمد .

قلت نفسي وانا اشاهد احمد امين منزوع الروح وكأنه استهلك رصيد حياته المتبقي في محنته تلك ، فتحت باب الغرفة دلفت اليه كانت الممرضة المرافقة له في حاله يرثي لها تحاول إقناعه بالعدول عن الوقف وعليه الرجوع فورا الى التمدد واخذ العلاج اخذت بيده أحاول ارجاعه قال بصوت واهن

- لازم امشي السودان البرهان عمل انقلاب موش ..؟ اتصل على حنان اديني حنان يا اسعد

قلت بعد ان تغمصت دوري كشخص حاسم عدلت مقاييس صوتي ابعد عنه نغمة الحزن او الشفقة

- تمشي وين يا حبيبتنا هي حنان خلاص بكرنا حتكون معاك بأذن الله قطعنا ليهم التذاكر مع خالتي ست البنات واسعد الصغير

دخلت علينا روز سحبتة من يده و هي تهمس على اذنه ان يتبعها تجاوب معها احمد دون اعتراض تمدد على السرير الطبي في نفس اللحظة التي دخل فيها الطبيب منزعجاً امرنا بالخروج وقام بتأنيب الممرضة التي انكششت على نفسها خائفة ، القيت نظرة الى احمد الذي استسلم تماما للممرضة اخري تغرس الابر على جلدة كنا متشابهين تماما في الألم ، الا ان خيبياتي تفوقه بقليل اخذت ادعو الله من كل قلبي ان يسلم احمد وان يعود لنا سالماً ولو اضطر الامر بان اتبرع له بأحدى كليتي، جلسنا في الصالة مرة اخري نتابع احداث

السودان وصيحات وهتاف المتظاهرين تندد بالانقلاب ،الحزن يخيم علينا
بصور الشهداء التي تتوالي على القنوات الإخبارية لا شيء قادر على بث
الأم فينا سوي وطن منهوب من قبل العسكر ليس لنا سوي دعواتنا المطوية
بلهفات الرجاء ان يسلم الله الثوار من رصاصات الغدر ، البرهان يعد الوطن
بالمزيد والساسة لهم نزوات ومغامرات ، العسكر يتوعدون الشعب بثلاث
عجاف يرسمون لنا المواقف نفسها التي أدت لانداع الثورة يحرقون امنياتنا
الباهتة الجافه المخطئة من الوجود تسالني روز وهى مطبقة اسنانها من الغيظ :-

- البرهان دا عايز يصل لي شنو الراجل دا مكروه.... مكروه من كل
السودانيين ما فعله البرهان في سنتين فعلة البشير في 30 سنة يا اسعد.

ليس لي حيلة للكلام يا روز لا رغبة لي في شيء اتكئ فقط على حزني اتنفس
بعمق وابتلع لعابي المتبقي لعلى ازج به تلك العبرة التي تكومت في حلقي ،
الحزن يخصم من رصيد حياتنا ومستحققاتنا يدفعها قربناً للعسكر، كان المشهد
مخيفاً خرج السودان جُله للشارع البشر يهتفون ضد البرهان وعصيته ، ترتجف
القاهرة هنالك لدي ايمان عجائز ان الشمال هو من خطط لكل هذا لن تهدأ
مدينة المعز ابن عبد العزيز حتى تُدك الخرطوم دكاً فهي تري احقيتها في ثرواتها،
الم يأتي ذلك الالباني غازيا لنا بحثنا عن المال والرجال فتلك الأشياء مفقودة
تماما في الشمال وصل بنا الهوان بدل اطماعهم في بعض الثروات اصبح طمعهم
في كامل الوطن ، خيبتنا في ساستنا كخيبة أهل صفين عندما ظنوا أنه الحق برفع
المصاحف على الرماح ، الحقيقة ليست واحدة يا روز ، الحقيقة لها وجوه
متعددة في وطني ، لا زلت اذكر حديث احمد أمين:-

- الغدر لم يكن من العسكر وحدهم، هنالك من مهد لهم الطريق يا
اسعد

سرحت بعيدا مع تلك التفاصيل واحمد يكيل الشتم لصاحب مصانع دال
للمنتجات الغذائية كنت قد ابدت اعجابي بمنتج (كابو) عندما كنا نشاهد

قناة السودان وجاءت دعائية لأحدي منتجات (دال) نظر لي مستغربا ثم
قال: -

- ختها قاعدة عندك يا اسعد وجود الرسمالية في أي فعل سياسي يدعو
للقلق حتى لو كان يعملون خيراً، مع أصحاب راس المال الذين نمت أموالهم في
ظل ديكتاتوريات لازم تقلق

صمت للحظات لم اشاء ان ادخل معه في جدل عن الرسمالية فانا على قناعه
ان جُل محصلة أفكاره قائمة على التحليل الماركسي اخذت انتظر ما يريد
قوله فقط واصل قائلاً

- لأسامة داؤود صاحب دال هذه دور مشبوه في تغويض الشرعية
الثورية يا اسعد لا ليس هذا فحسب بل له مصالح واضحة مع العسكر
نظرت اليه باهتمام الان الحديث خرج من منطق فكري الى واقع سياسي
قلت: -

- كيف هذا

نظر الي وكأنه يدرك ما يجول داخلي من شك قال بعد ان ازاح بصره عنى

- سوف اخبرك ..

كنت اظن ان لحظات الغياب على بعد شبر من الحقيقة والموت اكبر حقيقة تناسينها في غمرة فرحه الانتصار بعبور الثوار الى داخل الساحة المطللة على بوابه القوات البحرية نفس البوابة التي أغلقت امامنا والجنود يقتحمون الاعتصام ينشرون الرعب في النفوس ، نجوت من فض الاعتصام ولكني فقدت عددا من الأصدقاء وشعارات كنت احملها داخل صدري وايمانا بوطن، تمنيت لو مت ذلك اليوم يا اسعد تمنيت لو ذهبت معهم وصعدت روحي أيضا ، ابصرت مروان ود هندسة يتألم مرمي امامي بعد اصابته برصاصة في بطنه حملته على ظهري وهرولت به مثل حصان سباق أعرج ألقيته امام إحدى المنازل بيري وواصلت ركضي ،احمل غصنة في حلقي وطعم الغدر مرارة على لساني نجى مروان من اصابته واصبت انا بجذلان لم اشفي منه ابداً ، لا انسي تلك التفاصيل التي نحتت على الذاكرة بدقة متناهية فكل من شاهد فض الاعتصام يعيش كابوس لن يشفي منه ابداً ، ميزة الهزائم الساحقة يا اسعد وضوحها وهزيمتنا بدأت مع اول جلوس لنا مع العسكر. تركت مشاهدة قناة السودان وركزت حديثي مع احمد امين قلت له بعد ان دكت كلماته تلك اذني :-

- لم يكن هنالك من حل الا التفاوض معهم حتى تنجح الثورة يا احمد

نظر لي وعلى شفته ابتسامه حزينة وقال : -

- ما كان مدركاً بأول العقل والحس فليس عليه استدلال ، ففي الاصل هم أعداء الثورة هم أنفسهم جزء من المنظومة البائدة كيف يتثنى لنا ان نتعذب

بالأمل في وجودهم

صمتنا عن الحديث نتابع قناة السودان عسى ان يطفى هذا بعض الحنين فينا
عُرِضت داعية لمعكرونة Nobo خرج صوته حزينا كأنه قادم من جب سحق
يحمل في نبرته رطوبة وعيفونه البئر القديم قال: -

- أسامة داوود لا يقل غدرا عن لجنه البشير الأمنية يا اسعد فهم
يعلمون الثورة موجات والشعب قد انهي الموجة الأولى بإزاحة النظام السياسي
الحاكم وتليه الموجة الأصعب هنا يتم اغتيال اغلب الثورات إذا لم يكن الشعب
على درجة من الوعي، في الموجة التالية يتغير النمط الاقتصادي والاجتماعي
والثقافي، وراس المال الذي ترعرع في حضن الدكتاتوريات يخاف هذا التغيير
يخافه تماما مثلما يخاف الصغار من العفاريت (وود ام بعلو) واسامه داوود كان
يخاف تمدد الثورة الى هذا الحيز .

ما لم يقله احمد يومها ان الثورة تكالب عليها الجميع فالعسكر كانوا يثيرون
قضايا هامشية وانصرافيه لدرجة الهزل والضحك يطالبون من المفاوضين
المدنيين الذي اختاروا هذا الطريق بكامل قوهم العقلية يطالبونهم بإيقاف شتائم
المواطنين على الجنجويد والعسكر ، من الواضح ان الجنرالات يدارون من جهة
ما جهة تريد افراغ الثورة من مضامينها وقتل النفس الثوري بالتسويق اذكر
حديث احمد لي في نفس تلك الليلة ان التفاوض بداء بدعوي من العسكر
للأحزاب على استحياء ووصل الى ان يماطل العسكر ويعلقون التفاوض لأكثر
من مرة وأكثرها مرارة والمآ يوم 8 رمضان يومها علق العسكر التفاوض بذريعة
فاشلة بعد قتل الدود ورفاقه ، وتم جس المدنيين الذين رجعوا الى التفاوض مرة
اخرى في ضعف بائن وكأن العسكر يريدون ان يقولوا انهم على كل شيء قدير
يوقفون التفاوض ويرجعون اليه يقتلون ويستبيحون ومن يتقى غضب البرهان
وحميدتي يجعل له العسكر مخرجا .

واصل احمد امين حديثه هذه المرة بتحفز وهو يلعن الساسة قبل العسكر: -

- هم من أدخلونا في هذا يا اسعد أتدرى كنا قبل فض الاعتصام نتابع جلسات التفاوض تلك برغم تحفظنا على الجلوس مع العسكر الامر الذي اثار دهشتنا هو هذا التمرحل الغريب والذي رسمت مسارة قوي استخبارية خارجية فالعسكر لاحول لهم ولا فكر بهذا التخطيط، فقد سمي المدنيين ممثلهم لقبول الجلوس مع العسكر بلجنة اتصال وتحولت اللجنة الى لجنة تفاوض وانتقل التفاوض من القيادة العامة الى القصر الجمهوري وفي هذا دلالة واضحة على قوة فرض الأرضية من قبل العسكرة بقوة قادر تحول التفاوض من القصر الى فندق كورثينا

نظر لي احمد يحاول ان يري إثر حديثه على، كنت غير مدرك كيف تم تفريغ الحس الثوري كيف تم تغيير الشعارات كيف تم اسكات الهتاف واصل احمد حديثه قال بعد ان أطلق ضحكة ساخرة: -

- انت قادر تصدق الهون بتاع المدنيين وصل لي اي مرحلة...؟ الشيء الوحيد المميزين فيه السياسيين في السودان هو الخذلان للوطن يا اسعد نظرت اليه متسائلاً رد قائلاً وعلى شفته ابتسامه ساخرة هذه المرة: -

- ياخ العسكر ديل طلبوا من لجنة الاتصال بعد ان أقروا تحويلها الى لجنة تفاوض طلبوا منهم ان يأتوا بتفويض مكتوب انهم ممثلين للشعب في هذا التفاوض

لم يتمالك احمد امين نفسه من الضحك فانطلقت منه ضحكة عالية فيها من الشماتة ما فيها اصابني وجم وحسره انقلبت الى استياء كبير وانا اري دموع الحزن واضحة على وجه احمد الضاحك هو يغالب خيباته بهذه الطريقة، لم يكتفي احمد بهذا بل زاد قائلاً

- عندما انتقل التفاوض الى فندق كورنيثيا ترك السفير الاماراتي والسفير السعودي سفاراتهم وانتقلوا الى جناحين خاصين بالفندق ليكونوا بالقرب من

القرار اى هوان هذا الذي يجعل سفير بلد ما يحدد مستقبل بلد اخر، عرفت ما كنا نعاني منه يا زميل، انما الدونية نعاني إحساس الدونية من القادم خارجاً صدقني منذ حملات الدفتردار الانتقامية والوطن يمجّد الغريب القادم* ويتوسد الحقد بين أبناءه

فتحت فمي مندهشاً وقع اندهاشي ملتصقا بي كعلامه استفهام استدركها احمد مواصلاً:

- انما حقيقة التي نخجل ان نقولها فالقمع بيننا يسير والوطن يخجل من شعب ينتظر الفرج من الغازي والمحتل كل مشاكلنا كانت حلولها من مبادرات خارجية انظر الى صراعتنا كم الحقد والغل الذي فيها وانظر للمعتدين على أراضينا وثرواتنا شكل السماحة والحب الذي نلقيها عليهم أثر استلابنا لحيط غير الذي خلقنا له.

انها الصدمة، الصدمة التي القاها احمد امين على في ذاك اليوم اخذت انظر اليه مشدوها وكلماته يتردد صداها في اذني وصوت داخلي يقول لي تالله انما الحقيقة، احمد امين يواصل دلّق المر على الحلوق المجروحة بالأمل: -

- لم تكن للمؤامرة القادمة من الخارج ان تجد لها طريقا الا من خلال اعوانها من العسكر والرمالية والساسة يا اسعد اسمعني وارجو ان لا تقاطعني دعني أكمل لك وان كان حديثي سيطول قليلاً تحلي بالصبر يا صدقي

اسطورة الغريب الحكيم في الثقافة السودانية هي نزعها في الثقافة السودانية تتمثل في رد القدرات الخاصة او فكرة الإنقاذ للغريب القادم من خارج الوطن اشرت براسي موافقا فكلي شوق لمعرفه كيف بدأت مؤامرة وادّ الثورة عن عمد واصل احمد قائلاً :-

- لقد اصابتنا الدهشة أيام الاعتصام والتفاوض حتى انني تحدث لعمار علي الذي اصابته حيرة لحظية ، دهشتي وحيرة عمار اللحظية كانت تتمثل في

دخول رجال اعمال سودانيين لم يكن معرف عنهم الاهتمام السياسي بصورة كبيرة بل اكاد اجزم ان اغلبهم ان لم يكن جلهم كانوا من اهم الداعمين للحزب الحاكم ان لم يكونوا أعضاء فيه ظهر اسم اسامه داؤود عبداللطيف بشكل لافت أيام الاعتصام وبالأخص أيام التفاوض ومرادف معه اسم انيس حجار الذي تم تفصيل الوثيقة الدستورية في صالون منزله وانضم للمهتمين الجدد أسماء اخري طه علي بشير ووجدي ميرغني وامين عبداللطيف واحمد النفيدي ،وهاشم السوبات وهاشم هذا قصة يا عزيزي فقد كان الممول الأول لحكومة البشير بالمواد البترولية وكان يقوم بعمليات ضخمة في العهد البائد وتدرج من موظف في الهيئة القومية للكهرباء الى ان ظهر فجاءة كرجل اعمال ، ظهور تلك الأسماء أيام الاعتصام وتقرهم من الثوار وتقديم الدعم اللازم لهم من مواد وسلع استهلاكية ومياه غازية كان دلالة واضحة على أنهم يريدون رسم مسار الثورة المستقبلية بما يضمن لهم الحفاظ على مستحقاتهم الشخصية ، كثير من الرأسماليين هؤلاء كانوا نبت ترعرع في تربة الإسلاميين الفاسدة لذلك بدوا فوراً في اجهاض الثورة وتفريغها من شعاراتها وبالأخص مفردة العدالة التي تعني في قاموسهم الاشتراكية تقاعس المدنيين عن اتخاذ خيار الشرعية الثورية كمنهج فيدات انياب العسكر ومن خلفهم تلك الأسماء تنهش في لحم الثورة الذي ترك عارياً بعد ان خُلعت شعاراتها ،بداء الضعف واضحا على الممثلين المدنيين لدرجة ان مبعوث الاتحاد الافريقي والذي يدعي احمد ود لبات كان يرفع صوته فيهم مثل تلاميذ خائبين لم يقوموا بأعداد الواجب المنزلي بالشكل المطلوب

لأول مره اقاطع احمد منذ ان بدا الحديث فما ذكره يبين مدي الضعف والانهاك الذي اعتلى مفاوضي قوي الحرية والتغيير لأول مره أدرك ان العله الحقيقية كانت في الوفد المفاوض فالجميع يعلم ان المؤسسة العسكرية ما بعد انقلاب الاسلامين تغيرت كثيرا

- كيف تدخل رجال الاعمال لإجهاض الشرعية الثورية

انطلقت تنهيدة حارة من صدر احمد امين سرح قليلاً ثم قال: -

- الخوف على وضعية استثمارهم المغلوطة اقتصادياً وتخوفهم من شعارات الثورة هو ما دفعهم الى عدائها ولكن بشكل مختلف للعداء الصريح هم أعداء التغيير الاجتماعي والاقتصادي ولكنهم مع التغيير السطحي الفوقي السياسي هذا ما اذهب حيره عمار علي يومها وما قاله لي وثبتت نظريته تلك فعند تعليق كل تفاوض من قبل الجيش هنالك دور مرسوم بدقه لاحد هؤلاء الرسمالية بان يقوم بإرجاع وفد الحرية والتغيير للتفاوض مرة اخري وعليهم انكسار بطريقة تجعل العسكر في موقف أقوى وكأن الطلب من المدنيين قلت: -

- هذا دور قواد
ابتسم احمد قائلاً: -

- كل الرسمالية قوادين لمصالحهم الشخصية يا اسعد ولا أجد أكثر نتانة مما حدث ببيت الضيافة بعد تعليق المفاوضات من قبل العسكر التقت يومها مجموعته من المدنيين فيهم خالد يوسف المشهور بسلك ومدني عباس وعلي الريح وايمن خالد واحمد ربيع التقوا بعدالفتاح البرهان وحميدي صمت احمد واطال النظر لي ثم قال: -

- الامر الغريب ان وفد العسكر في هذا الاجتماع غير الرسمي ضم أيضا اسامه داؤود وسليمان صالح فضيل صاحب مستشفى فضيل بالسوق العربي صرخت مندهشاً: -
معقولة يا احمد

- نعم معقولة انها المصالح يا عزيزي الثورة هنا اكلت بعضها البعض فلم يقف الامر عند هذه المرحلة يا اسعد فمع احتداد النقاش بين المدنيين والجنرالين فالخط المرسوم لهم من قبل الاستخبارات الإقليمية هو تسويق

القضايا وبث الإحباط في الثوار بإطالة امد التفاوض وهو الهدف الحقيقي من كل هذا، تدخل اسامه داؤود بعض ان وضع رجلاً على رجل وقال مخاطباً المدنيين بفوقية وعجرفة واضحة

- (انتو كيف يا جماعه اتفان كون عنءكم فله 67% ومجلس وزراء كله لىكم والغالبله لىكم كيف يعنل !؟ وىن الشراكة !؟)

فتحت فمى ءهشة مرة اخرى معقولة اسامه ءاؤوء صاحب مجموعة ءال بقول مثل هذا الكلام هذه مزائءة رءىصة مزائءة حقيرة، على ما ببءو ان فرضفة عمار على صءىحة سالت اءمء بعء برهه من الصمء :-

- وماءا ءءء بعء ءلك

نظر اءمء الى اعلى وقال ببروء :-

- لم بءءء شىء كل المءوءع أصبء ءقفة فقء روء رجال الاعمال هؤلاء لءبار الشراكة 50% لى 50% لعضوفه المجلس السبءى وعمل النفبءى وانلس ءجار الى ءمربر هذا المءءء بكل السبل وعنءما اسءعصى الامر بسبب قوى الجماهفر اللى ءرابط على مءىء القبءاء العامة واللى ءسءمء منها ءءورة اسءمراءبءها لم بكن هنالك من ءل الافض هذه القوى الجماهفرفة فقء كانت ءسبب ارق وقلق للعسكر ورجال الاعمال والقوى الإقللمفة اللى ءرى مصالءها فى هذا البلد المءلوب امام مءء ءقفى بوءوء الاعءصام

- يعنل عافز ءقول لى ان رجال الاعمال ءبل كانوا على ءرافة بفض الاعءصام

ابءسم اءمء ساخرا وقال :-

- لىس رجال الاعمال فقط بل ءءى بعض ممءلى قوى ءرفة والءبفر كانوا على علم ءام بفض الاعءصام الامر المصءء المبكى ان أءء المءنبن

وهو المتحدث الرسمي باسم الحرية والتغيير كان قد اتصل بعضوة من أعضاء الحزب الشيوعي محذراً لها ان تتواجد في الاعتصام في توقيت محدد لان هنالك نية اكيد لفض الاعتصام

وضعت يدس على راسي من الدهول اغمضت جفني وانا اعيد ما قيل لي فهو يصلح موضوعاً لقصة من قصص الاساطير او تراث بلاد السند المفعم بالسخرية والمستحيلات هل انا في حلم .؟ هل ما يقوله احمد حقيقة .؟ وجد نفسي أتسأل من هذا الرجل لم يتفاجأ مُحدثي بل قال على الفور

- احمد ربيع

قلت بشي من الحيرة

- اليس هو من وقع الوثيقة الدستورية نيابة عن المدنيين

انتابت احمد نوبة حزن عميقة سرح بعيدا وكأنه يسترجع الاحداث من ركن قصي فالذكري معلقة في مصير قبضة العسكر هنالك يبدو ان الواقع في الوطن أكثر غرابة وخيالاً وعبثية مما نراه في قصص الخيال والمغامرات سمعته يقول: -

- نعم هو نفس الزول ، لا ادري كيف تم اختياره بان يكون ناطق رسمي باسم المفاوضات المدنيين وكيف تم اختياره مرة اخري ليكون ممثل قوي الحرية والتغيير في توقيع الوثيقة الدستورية ف احمد ربيع هذا من قيل فيه (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) هو الغدر يمشي على رجلين فعلاقة الرجل بالبرهان لا تخفي، ووقوعه في شباك العسكر واضحة فقد ترك العسكر كل ممثلي الحرية والتغيير وحتى الناطق الرسمي الأول مدني عباس واحاطوا بأحمد ربيع عميل العسكر والقوي الخارجية داخل قوي الحرية والتغيير .

قلت بأسى: -

- الم تكن كل تلك الملاحظات معروفة لدي قوي الحرية والتغيير

رد احمد باقتضاب: -

- لا أدري ولكنها وصلتنا من بعض ممثلي هذه القوي كانوا حانقين على بعض منهم احمد ربيع ومبارك اردول وعسكري وغيرهم

افقت من ذكرياتي تلك على يد تمزني بعنف فتحت عيني مخلوعا يبدووا اني قد غفوت وعقلي ملئ بالضجيج ترات لي صورة سحر باهت ومعها روز وصوت مفعوع لم اتبينه لمن فيهن ينادي على

- قوم يا اسعد قوم شوف دي موش حنان، دي موش حنان يا اسعد

لدي يقين دائم بان رجال امدرمان على النقيض من كل الرجال الشرقيين لا يتألقون الا في وجود زوجاتهم لا يخافون منافستهن لهم لذلك كانت اغلب الصالونات النسائية في امدرمان منها صالون فوز ومبروكة يتجمع فيها صفوة الفنانين والادباء ومن هذه التجمعات ولدت أفكار وتمخضت مبادي اثرت على كل الوطن وهذا ما كان عليه احمد في وجود حنان تألق وتغير حتى سلوكه وطباعه اصبح أكثرنا حكمة انطبع التصوف صبغه على سلوكه ، النساء في وطني لا يخفين سعادتهن بالحب من الرجل الأسمر الوسيم الملتحي مفتول العضلات ويفضلن يعددن محاسنه ويتغزلن فيه امام صديقاتهن وقد تتبرع بكل شيء له من الاحضان الى الجنس باسم الحب ثم بعد ذلك يشكين ظلمه وكذبه وخداعة ماعدا حنان هي من احكم وثاق العلاقة في محيط الحكمة هي من زرعت السلام فيها ووجد احمد ضالته في قربه منها والذي عرف من خلاله الله معنى ويقيناً.

لا اذكر بالضبط ما قالته سحر لي بعد ان قمت فزعاً من غفوتي تلك ولكن الامر الذي نحت على ذاكرتي هو مشهد احمد امين واقفا امامنا في الصالة مشدوها ينظر الى التلفاز وصورة حنان تحتل جزء من الشاشة وتحتها وصف الشهيدة وعلى الجانب الاخر فيديو لقنصها ومن ثم وهى محمولة على اعناق الثوار مهرولين بها من رصاص منهمر ، وقفت فاتحاً فمي غير مستوعب الاحداث يبدو انني مازلت في غفوتي، صراخ سحر وانهباء جمال امامي اعادني للحقيقة ، تأملت وجه روز الذي احتشدت به كريات الدم الحمراء حزناً والمأ كانت عينها تقطر لؤلؤاً وقعت في حضن جدتها تحاول ان تجد من يخفف عنها

المها ، تجمع عدد من المرافقين حولنا يحاولون التخفيف عنا ، وحده احمد امين ظل واقفا مثل تمثال شمع ظلت عيناه مثبتة على شاشة التلفاز حتى بعد الانتقال لخبر جديد وقف عدد من الأطباء امامه يحاولن منعه من مشاهدة المزيد بعد ان عرفوا من جمال ان الشهيدة زوجته ، لا استطيع تصور ما يشعر به احمد لقد تصدع قلبي انا نزيفاً برؤية خبر استشهاد حنان لا اظني قادرا على ملمة حطامي وكيف الامر بأحمد .

في لحظة مر طيف حنان امامي فتجمعت سحب الذكريات تخطر حيننا تذكركها أيام الجامعة انني وديعه لم تقدر السنين على خفت وهجها و ذكائها وجمالها لم يستطيع الغبن الذي عشعش على الوطن النيل من رقتها حنان لم تكن تشبه احد من الفتيات التي تمت صناعتهم بعبارات المسلسلات والتكلف الزائد هي ابنة الأرا جميلة دون مساحيق من ينظر اليها يري روح اماني ريناس وتاريخ عميق من الإنسانية كُننا نقترض منها بعض المال من اجل المواصلات لندوة أو ركن نقاش بأحدي الجامعات او الذهاب الى احد المراكز الثقافية وطال ماهي معنا لم نكن نملك ترف التفكير في كيفية العودة او حتى تناول وجبة من سندوتشات الطعمية التي على الطريق ، رحلت حنان رحلت وتركت احمد جسدا بلا روح كنت اري خفوت تألقه تدريجياً فقد ذهبت من كان يستمد منها الضياء ، وقف متبلد المشاعر يشاهد فيديو حنان محمولة بين ايدي الثوار عيناه امتلات ببريق ووميض ظل يعاند الحقيقة حقيقة الغياب اخذ يتمت بكلمات سمعته يقول :-

- احب حنان ما شات فانت مفارق لها.

القدر يوزع الخن بالتساوي يا زميل ومخنه الوطن أكبر لو كانوا يعلمون فهو قاب قوسين او ادني من التشرذم، العسكر بجنوبيدهم عملاء للشيطان التفت ناحيتي احتضني كأنه يبحث عن فرصة لعبور الألم معي والوطن يصدق بالموت المعلن مع كل صباح جديد احتضنته بعنف جسده أصبح ضئيلاً جدا لقد انطفي... انطفي تماما أصبح جلدٍ على عظم صرخت فيه: -

- تكلم يا احمد ابـكي !!!!! قل شيئاً اصرخ

ظل الصمت ونظراته الباردة هي أساس الموقف، كل الاحزان تكاثرت الان بشكل مزعج عرضت القناة الإخبارية فيديو لرجل طاعن في السن وجهه مجمد بعدد خيبات الوطن في جيشه، نظر الرجل بحسرة للجنود وهم يطلقون النار ويهرولون خلف الثوار اخذت عيناه تترقب بحذر الشارع الملبد بالدخان حرك العجوز فمه الثقيل وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة صرخ في وجه العسكر بصوت متهدج: -

- انتو تقتلوا في أولاد الناس ليه يا ولد

لم يجد العجوز جوابا بل تكالب عليه الكلاب والكجر ضربا بالسياط وركلاً بالأرجل

العسكر كعادتهم دائماً مقاتلين متمرسين للآمال والاحلام قست قلوبهم وبعد الانقلاب هي اشد قسوة احمد يتمدد على الأرض وفي عينيه شيء من الألم صمتنا أغمض عينيه ومذيع القناة الإخبارية يعيد خبر استشهاد المناضلة النسوية (حنان علي) إثر تلقيها رصاصة قاتلة من قناص في موكب اليوم الذي يندد بانقلاب الجيش على الحكومة الانتقالية.

لا أدري كم مضي من الأيام منذ خبر استشهاد حنان خوفنا كله انصب على احمد الذي كدنا ننسي صوته لا يتكلم لا يجيب على تساؤلاتنا او أسئلة الأطباء سوي بإيماء حيناً وبهزة راس رافضة في اغلب الأوقات ، حاوطت عيناه هالات سوداء من الارق، ولان الاقدار تأتي معاً مثل ريح عاصف فقد ابي ملك الموت الصعود بروح حنان فقط دون ان يصيب احمد امين بسهم جديد يدمي به قلبه فكانت فاجعه جديدة بوفاة ست البنات أخبرني معتصم سليمان انهم الان قبروا والدة احمد بجانب قبر حنان وعمار سألته وداخلي عبره فقد نفذ الدمع في مقلي: -

- ما خبر اسعد الصغير

رد باكياً: -

- هو مع والدتي واخواتي، الصغير لا يكف عن السؤال عن والدته
وجدته سؤاله يقطع قلبي ويعيدني الى قهري
صدي هتاف يتردد في اذني: -

- حمدوك يا بّي الشارع حي ... حمدوك يا بّي الشارع حي ...

سالت معتصم ماذا هناك لم يجاوبني فقد أنقطع الاتصال يبدو ان العسكر
يعودون الي اسلوبهم الرخيص في قطع الاتصالات مع كل كارثة يفعلونها باسم
الوطن ، تحركت الي حيث غرفه احمد وقفت امام النافذة الزجاجية وحمدوك
في هذه الاثناء يوقع باللون الأحمر على شاهد قبر حنان وثيقة جديدة تضمن
استمرار العسكر الي حين ، الان سقط من كانوا يطلقون عليه المؤسس وبقيت
حسرتنا تقودنا لحتفنا كرها، نظرت من النافذة الزجاجية الي احمد ممدداً على
السريير الطبي ووصلات الأجهزة تمتص رحيق شبابه بالحسرات مثل الكيزان في
جسد الوطن، يا الله من مرارة الأيام رفض الدهر الا ان يتكالب عليه يريه
مرارة الحرمان فسلب منه زوجته وامه في أسبوع وقبلها صديقه ونسيبه عمار
علي، موت ام وزوجه احمد كانا سببان كافيان لانفجار ثقب الذكري داخلي
فانفجرت من خلاله دموعي بركان من الاسي جثوت على ركبتي ارتجف حزني
وخلفي الرفاق يغادرون محطات الامل لفاجعه جديدة ، لم نخبره بموت والدته
الي الان خوفاً عليه، فقط طالبنا القدر ان يكف يده عن الوطن ،لقد تعلمنا
كثيراً بالرغم من الألم، أظن أن الألم هو ما يضيف للأشخاص بريقهم. تعلمنا
أن الهزيمة أحياناً مفيدة، وأن النصائح التي جاءت من كبارنا التي حاولوا أن
يطعموها لنا بالملقعة بدلاً من اختبار التجربة كلّها صحيحة تذكرت حديث
القيادي علي محمود حسين يومها ، الخيانة منا وفينا الساسة هم من فتح
ذراعيهم للعسكر استاذي علي محمود ، لقد صدرت أحزاب الحرية والتغيير

صراعهم ورغبتهم في السلطة وقلقهم بعضهم من بعض للثوار فكانت طامة
الجنجويد وعسكر البرهان ، هوس الهيمنة على المجال العام من قبل السياسيين
هو من أفقدهم ثقة الشارع ، كنت دائما اري التضحية بالموت في سبيل وطننا
مثل بلدي هراء فما عند الثوار ينفذ وما عند العسكر باق ، الجنرالات رزقهم
الله اللامبالاة في المحن.

لا أدري كم مضي على وانا على هذه الحالة يعرج بنا الوطن الى حيث رقعته
الامل الميؤوس وصورة احمد باهته تحتل فراغ الغرفة بالشقة بجي غليل هنا
كانت اشجانا تعطيني وطيف احمد ورائحة عطرة (اوبسيشن كالفن كلاين)
التي يبئها كل صباح تملأ المكان، لا تزال كتبه مبعثرة على مكتبة الصغير
وقع بصري على زراعة الجوع في السودان تيسير محمد أحمد ، اخذت
كتاب اخر بيدي قرأت عنوانه الفكر السوداني اصوله وتطوره محمد المكي
إبراهيم لم استطع النظر لبقية الكتب على المكتب تركتها كما هي ململت
بعض قصاصات الأوراق عليها بعض الملاحظات التي استخرجها احمد من
قراته وضعتها في منتصف احد الكتب على ارفف مكتبته التي تضم عدد
كبير من الكتب وقع بصري على مبخرة (مبخر) من الفخار عالية رماد
وحفنه من اعواد الصندل السوداني التي كان يعطر بها احمد غرفته ، بعض
ملابسه مطبقة ومرصوفة بعناية على طرف السرير وكأنه يريد ان يدخلها الى
الدولاب بعد عودته ، السرير مشدود الملاية والغطاء مطبق بحرص مسبخته
مرمية بإهمال على السجادة في طرف الغرفة والمصحف على الحامل مفتوح
على سورة الواقعة ، نظرت الى صورة مكبرة لحنان وابنه الصغير تحتل الحائط
الجنوبي للغرفة وتحتها مباشرة ساعة الحائط على الكومودينو الذي بجانبه
وضعت صورة مبروزه باللون الأبيض والأسود لوالده يرتدي البذلة العسكرية
برفقة والدته التي ترتدي بلوزة قصيرة وعلى وجوههم فرح وحب عميقان ،
لم اذق طعم للنوم منذ دخوله للمستشفى الى الان، رأيت انعكاسي على المرآة
التي وقفت امامها عيناى حمراوان الشعر على جوانب راسي الاصلع منفوش

بشكل مرعب وذقني اشعث ، جسدي يرتعش اشعر بالبرد يدخل الى عظمي ، مهلهل الملابس كأني في حلم او كابوس ، تجمع عددا كبير من أبناء الجالية السودانية من كامل المملكة عندما خرجت اليهم بالصالة اخذوا يرفعون أيديهم يتمتمون بشيء لا افهم ومن ثم يحتضنوني

- البركة فيكم. شد حيلك

اخر يقول:

- حال الدنيا وما تدري نفس بأي أرض تموت شد حيلك يا أستاذ اسعد

رأيت جمال مغمض العينين يبكي بحرقه والم ، ماذا دهاهم هؤلاء المأفونون لماذا كل هذا الحزن وحده أستاذ عبد الباقي السيد من تحرك نحوي اخذني من يدي الى خارج الشقة أدخلني شقة جارنا المصري المتاخمة لشقتي وهو يقول لي :-

- هنالك من يريد رؤيتك

وجدت سحر وروز تقدمت مدام انزوت وقفت امامي وقالت بجزن حقيقي

- أحسن الله عزاكم أستاذ اسعد

انفجرت المدام باكيا انفجرت الدموع من عينيها إحدى عشر لهفه تستبقها اهداب رموشها التي ظللت على الماء المنهمر منها، تبدو في الحزن أجمل كثيرا ، او لعلها كذلك ولم أكن اعني هذا الحقيقة، لا أدري لماذا تذكرت ناهد عندما رأيت انزوت، عدد من نساء الجالية تكالبوا على جميعهن يرفعن أيديهن يتمتمن بكلمات ثم يطالبون من الرب الرحمة وان يثبتني على الفراق فراق من أيها المخابيل وجدت نفسي أصرخ كما صرخ عمر رضي الله عنه عند موت الرسول عليه السلام وأجهتني روز بالحقيقة حقيقي التي ارفضها تماما (من كان يعبد محمداً فإنه قد مات، ومن كان يعبد الذي في السماء فإنه حي لا يموت)

لا يمكن ان يذهب احمد هكذا رفضت فكرة الموت من أساسها عاودتني قرحة
الحين وقبر امي في الوطن التمسست بقائي الى جوار حزني فالتصقت بي روز
تحملني من مكاني عنوة الى حقيقة موت احمد امين الصادق .

- الحياة تحتم علينا ان نتحمل الفقد وليس الفرح بالكسب يا اسعد

وضعت كلماتها تلك على قلبي الذي شرعت أبوابه الى السماء أن صب علينا
صبرا والطف بنا يا رحيم، في أقصى مرارتي التعيسة لم أتصور فقد احمد امين
فقد كامل اسرته بهذه الطريقة رحل احمد ورحلت حنان ورحلت ست البنات
وقبلهم امي وابي رحل جميع من احببتهم، وددت لو ازاحم ملائكة الرحمة التي
تحمل ارواحهم واتخلل مكاني معهم .

ما اخشاه من كابوس تردد صداه في حلمي أياماً أحمل نعش صديقي للوطن
رائحة الموت تزكم انوف الثوار، انهم يحاولون القضاء على الثورة بدفن
المواطنين احياء، العسكر يكرهون الوطن دون سبب كنت اعجب كيف يجتمع
جبروت وحزن وبكاء وعنف في بلد واحد السودان استثناء فهو حزن للمحن
، الديمقراطية فيه ما تزال فريضة غائبة فقدت حتى شهية الكلام أصبحت اسيرا
للوجع والالم وجثمان احمد ملقي على تابوت عليه العلم في انتظار تصريح نقله
للوطن ، سفارة السودان بالمملكة تماطل في سفر الجثمان فنوعية احمد اشد
خطرا على الانقلابين من ساسة الأحزاب، مازالوا مصرين على ترديد تلك
التمتمات مع رفع الايدي اجنوا على ركبتى بحثنا عن شيء اسد به ثقب الحزن
الذي اتسع داخلي فتطالعي صورة احمد محتضنا حنان ويشير الى روز وصوته
يتخللني

- ان احتمي بها من نيران الوحدة في غيابنا

تندرج طائرة الاجلاء العسكرية من نوع A400M Atlas التابعة للقوات الامريكية على مدرج وادي سيدنا العسكري ، تكوم عددا من المسافرين من جنسيات مختلفة داخل الطائرة الا ان الغالبية العظمي من حملة الجواز الأخضر ، الانفاس تتلاحق والتوتر بائناً على الوجوه، الاحزان تنبت مثل نبات العُشر ، أينما نظرت حولك اطلت وجوه السودانيين المجنسين منكسرة و مذهولة من هول الفجيعة الأرض الخراب الوطن الحلم لم يعد سوي رماد محترق بكامله ، السنه السحب السوداء المتصاعدة للسماء تلعن عاصمة للوطن المستباح الان من التتار واعوانهم المتحاربين ضدهم من المؤسسة العسكرية ، السودان يأكل نفسة بحقد النجوم والصقور التي تربعت على اكتاف جنرالات الفساد ، ها هي عري الحقيقة يعترينا والحقيقة عار يأكل قلوبهم المريضة كالنار ، النار التي اشعلها زبانيتهم في كامل الوطن فتنة من دين وخجل يتراقص حولها شياطين الانس من مؤيدي النظام السابق باسم الجيش وجنجويدهم الذي تم فطمهم على خيرات الوطن ، يتراقصون جميعا على جثث المتساقطين جراء حرب الحقد والغل تلك ، سيل من الوجع والانيين يضرب راسي بصخب التفت الى روز اضمها الى بعد ان وضعت راسها على كتفي وبيدها الأخرى تحيط خصر اسعد الصغير الذي ارتمي على حجرها مضت سنه ونصف منذ ان قدمت الى الوطن حاملا نعش احمد امين على كتفي ، دفن بمقابر حمد النيل بالقرب من قبر حنان ووالدته ست البنات وبجانب قبر عمار علي ، وقفت امام قبرة بشفاه مرتجفة اجر قدمي بتثاقل كأنهم ليس جزء مني ، شيء منفصل عني تكومت على نفسي محتضنا قبره احتضني هو بقوة كنت أحاول ان استنجد

كل انفاسي لتهبني القوة التي احمي بها طفله وروحه المتبقية في هذه الدنيا اضم
يدي على عيني الممتلئة بالدموع والملتهبة بالبكاء والارق وعدم النوم يحملني
جمال ومعتصم سليمان وطارق دفع الله يسندوني يتمتم طارق :-

- الدعاء له أفضل من البكاء عليه يا اسعد

انكب على نفسي مرة اخري ونحيبهم يغطي على دعاء الأموات الاخرين، الجميع
في ذهول من رحيل حنان واحمد في نفس سنه النكسة التي اصابت الوطن في مقتل
شاهدت وجه ست البنات خارجا من إحدى الهالات المضيئة وجهها يطل من العدم
تدعو الرب ان يلطف بهذا البلد الأمين، نقف بالقرب من ضريح الشيخ حمد النيل
ينضم الينا الحلاج والجنيد وابن عربي ومن خلفهم احمد امين يحمل طار ينشد

الاوولا مكاشفي القوم

يطوف بين قوله نظر بالعين

شالوا شلوشله من يد لي يد

لي مكاشفي ابو دله كلامه متين

وقف احمد امين الذي ارتدي جبه خضراء مرقعه بالأحمر بمحازه الحلاج وابن عربي
والجنيد الذين اخذو يرددوا

فالقوس القوس (القوس القوس)

فالقوس القوس (القوس القوس)

ويرد احمد امين بعد ان تمايل يمنا ويسره وهو يضرب على الطار

برسيم باب الله بمهما يكون

دني فتدلى لككين فكاكين

اخرجني صوت روز من ذكري حزني تلك بعد ان سمعت نحيبها والطائرة تعلن إقلاعها الابدي من الوطن الذي مكثت فيه سنه ونيف من حين تزوجت روز عملاً بوصية احمد وحنان وحباً في تلك الأثنى التي أرجعتني للحياة بعد ان فقدت شغفي بها ، تبينت رعاية اسعد الصغير يبلغ من العمر الان خمس أعوام ونصف تحتضنه روز مثل ابنها وأكثر ، في البداية رفضت مغادرة ارض والدها تشبعت بحب امدرمان واحبت شعر سيف الدين الدسوقي و على المك كثيرا ونقبت في حياة الأخير وكتبت عنه مقالات في صحف شتي بالعربية والانجليزية قالت لي ذات مرة ان حبه لعللي المك نابع من حبه لتلك المدينة ابتسمت لي فبانت شمس اسنانها تجهر من بين شفيتها التي اخذت توردها من والدتها ابنه الروم واكتناظها من عرقها الكوشي فكانت مثل ثمرة الفراولة اشتهاً، هي تدرك ما يعتريني في تلك اللحظات فتسرع للارتقاء في حضني مواصلة حديثها خوف ان ينقطع استرسالها بالقبل فتواصل ساخرة من حالي ان نفوذ علي الملك مستمد من حياته اليومية، التي ارتبطت بغمار الناس، وأصدقائه الذين لا أول لهم ولا آخر، فكل الناس كانوا اصدقاء على الملك، حتى لتكاد لا تجد من هو ليس صديقا له بدء بالبسطاء والفقراء، مروراً بأبناء الطبقة الوسطى، ووصولاً لعلية القوم، وكان وسط كل هؤلاء بسيطا، ومرحاً وساخراً وطريقة العيش تلك لن تجدها في مدينة اخري سوي امدرمان يا اسعد

عندما تتحدث روز كنت اشم رائحة احمد امين الذي حفر مجري الثقافة داخلها، احبت امدرمان هكذا بكل تفاصيلها بإنسانها بترابها بباعتها المتجولين بأزقتها وحواريها اخذت تنتحب باكية بحرقه وهي تتابع ارتفاع الطائرة الى السماء متوجهين الى جيوتي كمحطة اولي القاعدة الامريكية والسنه الدخان تبعتها كأنها رؤوس الشياطين تتجسد في صورة حميدي والبرهان الذين تعاونوا على الاثم والعدوان ، اخذت اسعد بين يدي وضممتها لي أحاول ان اخفف عنها وجعها تذكرت حوارنا يوما ونحن بسوق امدرمان شارع العناقريب سألتها بحنق: -

- ياخ انتِ العاجبك في امدرمان دي كلها شنو ...؟

وقفت في منتصف الالهفة بيني وبين المدينة القديمة اخذت تتنفس تسامحاً وتبضع

مغفرة تنظر الى بحب ، روز لها طول فارغ وجسد مثل البان مع احتشام ووقار يجعلك تذوب ولهاً عندما تقترب منك قالت لي ولكنه أقرب ولكنه علي المك عندما يتحدث وهي تضحك: -

- يا حبيبي هو في أجمل من امدرمان دي مدينة لها روح واحدة وعدة قلوب كل قلب منها له نبض مميز وروحها تملأ تلك الازقه الضيقة التي بين المنازل وبيوت الطين

انني مثلها تدرك تماما ان ما تبقي من ثورة لا يرضي شعبا مثل شعبي ابتسمت لها والاسي يعتصر قلبي فقد كنت أخاف ان تفقدي امدر أيضا فالعسكر اطماعهم واضحة لا تخفي ،عقلي غارقا بالأفكار السيئة لا ادري كيف استوعبها فحزني قاتم وروحي ساخطة عليهم و اخشي ما اخشاه ان يكون حبنا لهذا البلد هو ذنبنا الوحيد ، انقطع جبل افكاري ويد روز تعبت في محتويات حقيبتها اليدوية تخرج جوازها الأمريكي وورقة عقد زواجنا مع شهادة تبني اسعد وكأنا قد تنبأت بالأحداث فقد شرعت في توثيق الأوراق من سفارة جنسيتها منذ ست اشهر ، الان انا برفقتها الى وطن لم ازره من قبل ، هي ولدت فيه و قضت فيه اغلب سنوات عمرها، رصت المستندات برفق واخرجت مسودة رواية والدها التي صححها احمد امين راجعت الاهداء الذي اضافته لروح شبيهه والدها اغلقت مسودة الرواية التي تحمل اسم

(بين نارين قصة الوطن والثورة والغربة) .

نظرت الى الخرطوم من اعلي رقعة، خالية صحراء جرداء تتصارع فيها الأحقاد ها هم بعد عام واحد فقط من قتل الثوار جنرالان يتقاتلان على الاشلاء والشعب بينهم يتلقى الضربات في هوان ، كنت قد تجاوزت خيبي وانا أقول بأسي: -

- هل تقوم قائمة للوطن مرة اخري بعد كل هذا الخراب

سرحت روز ناظرة الى الدخان المتصاعد غصبا الى اعلى قالت لي بصوت هادي بعد

ان خف توترها: -

- الدول يا حبيبي ليست بمبانيها وطرقها الدول بسكانها، شخصية المكان من شخصية اهله والسودان بكل تاريخه شجن تشتم فيه رائحة النقاء كريمة دافئة تحثويك رغماً عنك تحميك طيبة انسانه وسمو اخلاقه ميزة السودانين يا اسعد انهم خليط من الدهشة والصبر لهم قدرة غريبة على احتواء الألم والضنك ان اردوا وأيضاً لهم جراءة عجيبة على ذلك المتكبر ان تجبر.

صمتت لبرهه انكمشت في حضني وقالت: -

- هي الان فرصه لإعادته لمسارة الصحيح أن أردنا ذلك ، فقد ضل الوطن الطريق منذ امد بعيد.

اغمضت عينها في حضني فيما اخذت تهمس في اذني بحزن كلمات قصيدة سيف الدين الدسوقي التي تعشقها مودعه بها امدرمان: -

يا زمن الأفراح الوردية

في ماضي الأيام القاسية ألمره

كلماتي..

تعبر موجات البحر وتصل إليك

وتحط على فرعٍ في حقل فؤادك..

بين يديك

وتقول: أنا أهواك

أحببتك حين الحب بأرضك غير مباح

ممنوعٌ بالقانون

ممنوعٌ يا سمراءُ لأن الحب هناك جنونٌ

وأنا مجنون تعرفني كلُّ الأشعار

يعرفني الليلُ المسدُّلُ سترتهُ

وشقاءُ الفنِ وكلُّ نهار

لا أحسنُ أن أبقى من غير الحب

والحب حرامٌ في الصحراء

وأنا يا أنتِ أيا سمراء

إحساسي لا يعرف طعم المال ولا البترول

الشاعرُ يسمعُ صوتَ الحُسنِ

ويُحسِنُ كلَّ فنونِ القولِ

لكن أن يمينا في أرض جفاف

أن يصنعَ أعصاباً من ألياف

لتكون مكان الحِسِّ على الإنسان

فمحالٌ ذلك ليس من الإمكان

ولذلك حينَ عبرتُ البحرَ إلى السودان

غثيتُ سعيداً كالأطفال

ونسيتُ حلاوةَ طعمِ المأل

ورجعتُ أغردُ بالأفياءِ بكل مكان

وركعتُ أقبِلُ أم درمانُ
هذى العاصمَةُ الأثنى
أهواها مذ كنتُ غراماً في عيني أُمي وأبي
وحملتُ الحبَّ معي بدمي..
في رحلة هذا العمرِ...
وأحمِلُهُ حتى ألقى ربي
كلما تي يا زمن الأفراح الوردية
عبرت موجات البحر لتصل اليك
لتقول: أنا مشتاق
لنُطِلَّ قليلاً في عينيكُ
ولتحمِلْ عذري في سفري
فأنا يا سمراء الصحراء..
هذا قدري
ان أعشق أنثى عاصمَةً
تلك المحبوبة أم درمان

تمت

.....صلالة.....

مايو 2023

- مراجع مهمة استعنت بها في كتابه الرواية: -
- الانتماء والاعتزاز محمد سعيد القدال
- مكة في جغرافيا القران دان جيبسون
- المهاجرون باتريشيا كرونه ومايكل كوك
- مكة في الدراسات الاستشراقية الاب لامنس بروف كستر
- Sudanese Online موقع الاشباح
- التعذيب في بيوت الاشباح
- التعذيب في السودان مركز النديم
- الفكر السوداني أصوله وتطوره محمد المكي إبراهيم
- الطوطم فتحي الضو
- بيت العنكبوت فتحي الضو
- الطاعون فتحي الضو
- المثقف والسلطة
- مدينة جدة السعودية مواقع على internet كتاب حدود مدينه
جدة ١: عبادي فلمان
- كتاب «تاريخ جدة» للمؤرخة الألمانية أولريكة فرايتاغ
- موقع طواسين للتصوف والاسلاميات
- مدارات صوفية هادي العلوي

- اخبار الحلاج هادي العلوي
- زراعة الجوع في السودان تيسير محمد أحمد علي، ترجمة محمد علي جادين.
- المهشاشة النفسية إسماعيل عرفة
- عقدة النفسية سجنك الابدی

شكر وتقدير خاص الى كل من وقف بجاني وشجعني في هذه الاصدارة

• روز ماكندي،

• وجدي الكُردِي،

• جمال الكُردِي،

• سماح أبو المجد

• خليفة عمر حمزة،

• انس محمد احمد

الصحبة التي خفت مرارة الغربة والأيام

دمتمت

محبه وتقدير الي ابطالي الذين استعنت بحكمتهم معي دائماً

د/ أحمد امين الصادق الذي تعلمت معه التغافل عن الألم ...

م / اسعد باب الله المغيرة قصة حياة تمشي على قدمين ...

م/ معتصم سليمان رجل المستحيل دائماً

د/ روز ماكندي الصوفية التي على الديانة الإبراهيمية

م/ جمال الكردي الإنسانية نفسها من جسد وروح

م/ عمار علي الصديق الصدوق

م/ محمد عثمان الجميل دوماً

د/ طارق دفع الله الرائع ابداً

محبات

